تُراث

torathehc

تراثية ثقافية منوعة تصدر عن هيئة أبوظبي للتراث العدد 295 مايو 2024

إبل الإمارات:
ركيزة مستدامة للتراث والمجتمع

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان
الزعيم الخالد

ذكريات زمن البدايات:
الدكتور عمر الخطيب «فارس اللغة»

الحنين الإنتاجي في التراث المعماري
«نزل الرياحين» أنموذجاً

الهاجس الإنساني
في روايات علي أبو الريش

رحلة استيبانكو الأزموري
إلى أمريكا الشمالية
أول مغربي يطأ أرض الهنود الحمر عام 1539 م

الشاعرة القطرية (صدى الحرمان)
2002 - 1962

سباقات الهجن في ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات

إبل الإمارات:
ركيزة مستدامة للتراث والمجتمع

تحمل الإبل أهمية بارزة في مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة والمجتمعات الخليجية والعربية عموماً، فالإبل تحتل مكانة خاصة في التراث والثقافة الإماراتية، وتعتبر رمزاً حياً يجسد العديد من القيم والتقاليد التي تُعبّر عن جذور المجتمع وتاريخه الغني في المجالات كافة سواء الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو السياسية. وتولي دولة الإمارات العربية المتحدة أهمية كبيرة للحفاظ على موروث الإبل، وتسعى جاهدة لتعزيز الفهم الصحيح للثقافة الرعوية؛ من خلال تطوير قطاع الإبل وتعزيزه في الدولة والاستفادة من التطور التكنولوجي، حيث يستخدم التتبع الذكي والحلول الذكية لتحسين رعاية الإبل وإدارتها، بما في ذلك إدارة الأعلاف والرعاية الصحية، كما تولي الدولة اهتماماً كبيراً بالبحث والتطوير في مجال تربية الإبل، ما يسهم في تطوير سلالات الإبل المحلية وتحسين أدائها ومقاومتها للأمراض.

بالإضافة إلى ذلك، تركز دولة الإمارات العربية المتحدة على تعزيز التعاون المحلي والإقليمي والدولي لحماية ودعم تراث الإبل الثقافي باعتباره يشكل عنصراً مهماً من عناصر الموروث الشعبي وأحد أهم الواجهات الحضارية للدولة، وقد نجحت دولة الإمارات في نهاية عام 2020 في تسجيل «سباق الهجن» في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) في ملف مشترك بالتعاون مع سلطنة عُمان، مما يعكس الاعتراف بأهمية هذا النشاط التقليدي وتراثه في تعزيز التواصل والتبادل الثقافي بين البلدين والمنطقة بشكل عام، وتعزيز فهمه واحترامه على المستوى العالمي وتعزيزه للأجيال القادمة، حيث يعتبر سباق الهجن تقليداً قديماً يعود لعقود عديدة في المنطقة، ويحظى بشعبية كبيرة ويشكل جزءاً مهماً من الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات المحلية. كما نجحت الدولة في عام 2023 في إدراج «حداء الإبل» كموروث شعبي يستخدم للتواصل بين الإبل وملاكها في دول الخليج عبر لغة خاصة، على القائمة التمثيلية لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، في ملف مشترك كذلك بالتعاون مع المملكة العربية السعودية وسلطنة عُمان.

وتوضح الجهود المبذولة لتعزيز دور الإبل في الإمارات كركيزة مستدامة للتراث والمجتمع كذلك من خلال النشر والمهرجانات الخاصة سواء بسباقات الإبل أو بالمزاينة، كما يتم التفكير في تنويع استخدامات الإبل أيضاً، في الرياضات التقليدية والرحلات السياحية في الصحاري، وفي تحقيق مستهدفات الأمن الغذائي من خلال الاستفادة من ألبانها ولحومها، بهدف ضمان استمرارية تراث الإبل وربطه بواقع المجتمع الحالي.

بشكل عام، يتوقع أن يستمر الاهتمام والاستثمار في قطاع الإبل في الإمارات، مما يضمن مستقبلاً واعداً ومستداماً لهذا الجانب الثقافي والاقتصادي، ولأهمية هذا الموضوع جاء اختيارنا ليكون ملفاً لعدد تراث هذا الشهر، والأمل يحدونا بأن تستمتعوا بموضوعات العدد المتنوعة.

شمسة الظاهري
رئيسة التحرير

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority
السلسلة التراثية الثقافية

torathehc www.torath.ae

84
وجهة سفر

البحيرة المسحورة (الفيوم)

الفيوم مدينة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ المصري والبشري والتي اشتهرت قديماً باسم واحة الفيوم وكانت المنطقة في مصر القديمة معروفة بخصوبتها ووفرة الحياة النباتية والحيوانية فيها، وتقع الفيوم على بُعد 62 ميلاً (100 كيلومتر) جنوب ممفيس (القاهرة الحديثة)، وكانت ذات يوم حوضاً صحراوياً قاحلاً ثم أصبحت واحة خضراء عندما غمر أحد فروع نهر النيل أراضيها بالمياه وحوّلها إلى أراضٍ خصبة وامتلأ الحوض خصوبة وجمالاً مما جذب الحياة البرية وشجّع نمو النباتات ولاحقاً جذب البشر إلى المنطقة في وقت ما قبل القرن الميلادي 7200 ق.م ... ضياء الدين الحفناوي

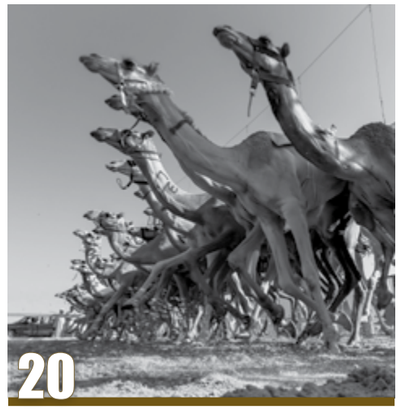

20

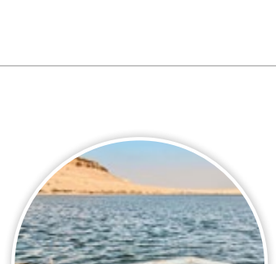

91
ارتياد الآفاق

رحلة استيبانكو الأزموري
إلى أمريكا الشمالية عام 1539م

في خريف عام 1527م انطلقت الرحلة الاستكشافية التي ضمت ثلاثمئة رجل داخل فلوريدا، يقودهم «دي نارفاييز» ومعه أربعون حصاناً، لم يضع في حسبانه أن مغامرته هذه قد تدوم طويلاً، وقد تكون هي المغامرة الأخيرة له، ومن معه، لم يكن أحد منهم يتصور أنه لن ينجو من تلك المغامرة إلا أربعة أشخاص، على رأسهم «استيبانكو» الذي حاز الشهرة واعتقت رقبته ... محمد عبد العزيز السقا

68

84

104
ملامح الماضي

الحنين الإنتاجي في التراث المعماري
(نُزُلْ الرياحين) أنموذجاً

يبدو نُزُل الرياحين الواقع على ساحل (خور فكان) بدءاً بمسماه الأثري الحميم، يبدو خالداً منذ حقب عربية بعيدة في التاريخ، وكأنك تسير في أزقة قرية طينية ساحلية من قرى الإمارات القديمة جداً، ففي جوف المعيشة الفندقية في النُزُل تعود بالزمن إلى عهد الأجداد وأبناء الغوص والعصور اللؤلؤية، تمرُ في الزقاق بخطوٍ مملوء بالاشتياق لحضن الظلال الرحيمة، ظلال جدة مجهولة تنتظر أحفاداً ذهبوا إلى حيث لا يأتي أحد.... لكنك تنتبه إلى كونك في جوف الأطياف والذكريات والشرود الروحي في ملامح الماضي وإشراقاته المستنيرة في دواخلك ... لولوة المنصوري

100

118

106
سرد الذاكرة

الدكتور عمر الخطيب... فارس اللغة

«لم يكن الدكتور عمر الخطيب مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون فحسب، بل كان هو نفسه مذيعاً من الدرجة الأولى خاصةً في المناسبات التي تحتاج إلى البث المباشر والتغطية الصوتية. عندما أصغيت إليه وهو ينقل الاحتفال بالعيد الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة في التلفزيون، شعرت أنني أمام أستاذ في اللغة العربية، يرتجلها بطلاقة ومن دون أي لحن، أي من دون أي خطأ في قواعدها. وهو لا يشعرك عندما يرتجل أنه يتصنع ويستحضر جملاً مكررة، بل يجعلك تقتنع أن ذلك الرجل يعرف ما يقول، وأن لديه قضية» ... خليل عيلبوني

126

82 عين الباب السرية - عبد الفتاح صبري

90 المخايل ...الشاعر حمد حارب راشد العميمي - إعداد: نايلة الأحبابي

100 الهاجس الإنساني في روايات علي أبو الريش - هيثم يحيى الخواجة

108 تأثير الموسيقى على القلب - نورة صابر المزروعي

114 المرأة والتحوُّلات الحضارية (2)
تعظيم التعلّم وتمجيد العمل - خالد صالح ملكاوي

117 النهر والذين يعبرون - حمزة قناوي

118 الشاعرة القطرية (صدى الحرمان) 1962 - 2002 - مريم النقبي

126 الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان الزعيم الخالد - د. شهاب غانم

130 الأم وطن ولغة - فاطمة حمد المزروعي

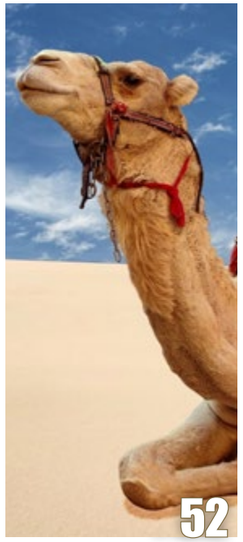

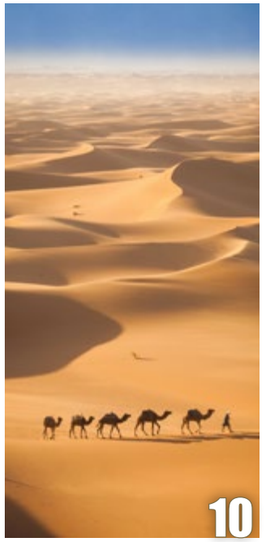

أسعار البيع

الإمارات العربية المتحدة: 10 دراهم - المملكة العربية السعودية 10 ريالات - الكويت دينار واحد - سلطنة عمان 800 بيسة - مملكة البحرين دينار واحد - اليمن 200 ريال - مصر 5 جنيهات - السودان 250 جنيهاً - لبنان 5000 ليرة - سورية 100 ليرة - المملكة الأردنية الهاشمية ديناران - العراق 2500 دينار - فلسطين ديناران - المملكة المغربية 20 درهماً - الجماهيرية الليبية 4 دنانير - الجمهورية التونسية ديناران - بريطانيا 3 جنيهات - سويسرا 7 فرنكات - دول الاتحاد الأوروبي 4 يورو - الولايات المتحدة الأمريكية وكندا 5 دولارات.

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكتاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو هيئة أبوظبي للتراث

110

جلساء التراث

قراءة في كتاب «علي بن تميم».. «السَّرد والظّاهرة الدّراميّة»

قضايا كثيرة طرحها الكاتب وهو يعرّف «الظاهرة الدراميّة»، حيث الطواف المتأني، والحوار المثمر، والقصديّة المعرفيَّة في مناقشته لأطروحات، بما حقّ له من اقتباس، أو نقد، أو تصريف، وانتهى بعد ذلك إلى نتيجة مفادها: أن فهم النقاد المعاصرين للدرامية يتجه إلى رؤى تختلف تفاصيلها، ولكنها تنطلق جميعها إلى الرؤى التالية: رؤيتهم للعمل الدرامي في السرد العربي القديم، ورؤيتهم للمتلقي الدرامي في السرد العربي القديم، ورؤيتهم للمؤدي الدرامي في السرد العربي القديم، ورؤيتهم المتشابهات الدرامية: بين الإغريق والمسرح الأوروبي من جهة، وبين السرد العربي القديم من جهة أخرى ... خالد عمر بن قفه

120

حوار خاص

رفيق الرضي:
عندما يخوض الشعر في متاهات الحياة بروح فلسفية

يقول الشاعر رفيق الرضى: «الحياة تنبض بكل شيء جميل، والشاعر من يبحث عن الجمال لينقله للآخرين محاولاً رسم اللوحات الفنية الجميلة بكلمات تلامس قلوب الناس ومشاعرهم، والشاعر من يجب أن يكون رمزاً اجتماعياً في أخلاقه وسموه وعطائه وتضحيته، وأن يبين للآخرين الصواب من الخطأ. لقد كتبت عن المدن التي سافرت إليها، وعن الأشخاص الذين تعاملت معهم، والذكريات، والعتاب، وشكاوى الغربة والغياب، ومهما يكن فما زالت الحياة أجمل بكثير مما كتبت عنها» ... هشام أزكيض

الاشتراكات

للأفراد داخل دولة الإمارات: 150 درهماً / للأفراد من خارج الدولة: 200 دولار - للمؤسسات داخل الدولة: 150 درهماً / للمؤسسات خارج الدولة 200 دولار.

تراثية ثقافية منوعة

تصدر عن:

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

رئيس التحرير
شمسة حمد العبد الظاهري

الإشراف العام
فاطمة مسعود المنصوري
موزة عويص علي الدرعي

الإخراج والتنفيذ
غادة حجاج

سكرتير إداري وشؤون الكتاب
سهى فرج خير
torath@ehcl.ae

التصوير:
- مصطفى شعبان

عناوين المجلة

الإدارة والتحرير:
الإمارات العربية المتحدة - أبوظبي
هاتف: 024456456 - 024092336

حافظ على الهجن

الشاعر خميس حمد السماحي

حافـــظ علـــى الهجـــن المساريـح
نقْـــوَة أصايـــل بالوكـــاده
لـــي يسلّـــن الخاطـــر بتفريـــح
مـــا بيـــن جمهـــور وســـاده
يرشحهـــــن ترشيـــــح
والعلـــم عنـــد اللـــه حيـــاده
يوم اسرحـــن شروى هـــوا الريـــح
و«شدايـــد» انْفـــردت فـــراده
شلّـــت الكـــاس بعـــزمٍ صُحيـــح
ولْهـــا علـــى النـــاموس عـــاده
لـــي ماخـــذه الحـــق بْتوضّيـــح
مـــا تبغـــى مُحامـــي وشهـــاده
ناقـــة رفيـــع القـــدر لمْريـــح
لـــي ما شكـــا هـــمّ ومكـــاده
يعلـــه عـــدد كـــل المصابيـــح
فـــي خيـــر وافـــراح وسعـــاده
واهـــدي للمضمّـــر تصاريـــح
نـــال الشـــرف والعـــزّ قـــاده
يستاهـــل اجْـــزال المرابيـــح
لي فـــي العمـــل باذل اجْهـــاده
يـــوم العـــرب كلهـــا مطاييـــح
مـــا يهتنـــي بلـــذّة رُقـــاده
واليـــوم يتـــفرّج تفرّيـــح
وكلٍ يهنّـــى لـــه زْيـــاده
وأنا بهنّـــي بقلـــب نُصّيـــح
وارجـــو العفـــو منكـــم يا ســـاده

القصيدة للشاعر خميس حمد السماحي وهو من مواليد عام 1940م، ومن قرية وادي الصفني التابعة لإمارة رأس الخيمة. ويشتهر السماحي بقصائده التراثية الشعبية الخفيفة، التي يطرب لها كل من يسمعها، كما يعد أحد أشهر شعراء «الرزيف» و«العازي» في دولة الإمارات العربية المتحدة. وتتركز أغراضه الشعرية في قول المدح، والشكاوى، والردود، والغزل. وقد كتب هذه القصيدة بمناسبة فوز «شدايد» وهي من إبل المغفور له الشيخ «حمدان بن راشد آل مكتوم».

إبل الإمارات: ركيزة مستدامة للتراث والمجتمع

10 **الإبل في الإمارات.. من عُمق التاريخ إلى آفاق الحضارة** - خالد صالح ملكاوي
15 **بِئدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح ألفاظُ الإبل** - محمد فاتح زغل
16 **ناقة الإمارات أيقونة التوثيق والتحدي** - عبدالله محمد السبب
24 أول مدرسة لتعليم ركوب الإبل في دبي
المرأة الإماراتية تتفوق على الرجل في سباقات الهجن - أماني إبراهيم ياسين
30 شعر الإبل الغرض السادس في الشعر العربي
الشعر النبطي يحيي تاريخ المعلقات في وصف الإبل - الأمير كمال فرج
38 **حضور الإبل في الموروث الثقافي والشعبي لسكان المنطقة الوسطى في إمارة الشارقة** - علي تهامي
42 **الإبل.. إرث أصيل وثروة مستدامة في دولة الإمارات** - جمال مشاعل
46 **الإبل في الإمارات بين تراثها التاريخي وحاضرها التصي والحياتي** - أحمد حسين حميدان
52 **سباقات الهجن في ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات**
ترسيخ لقيم الموروث الإماراتي وخلق لمحتوى إبداعي يعزز الفعاليات التراثية - أحمد عبد القادر الرفاعي
58 **الإبل... إرث متجدد واستدامة للمستقبل** - مريم سلطان المزروعي
62 **الإبل ركيزة مستدامة لفكرة وهوية** - محمد نجيب قدورة
68 **الإبل في الإمارات.. تراث الآباء يُحييه الأبناء** - قتيبة أحمد المقطرن
74 **الإبل في الإمارات وأماكن أخرى: دراسة تاريخية** - صديق جوهر
78 **سرديات ومرويات تراثية وحكائية عن الإبل** - محمد فاتح صالح زغل

الإبل في الإمارات.. من عُمق التاريخ إلى آفاق الحضارة

خالد صالح ملكاوي

الجَمَل.. هذا الحيوان الساحر الذي لم يأخذ حظه من الدراسة والتقدير مثل غيره من الحيوانات الأخرى، افتُتنت به ثقافات كثيرة، بما في ذلك الثقافات في المناطق التي لم يكن الجمل من حيواناتها المحلية، إذ أثار فضول البشر وتطلعاتهم على مدى قرون بشكل جعله أكثر من مجرد حيوان صحراوي، إذ كان له دوره في التاريخ الطبيعي للبشرية، وكان له أهميته في تطور المجتمعات في أنحاء العالم، قبل أن تنجح الحضارة الحديثة في انزواء الجَمَل بعيداً في فيافي الصحارى المجهولة، اللهم إلا في بعض المجتمعات، مثل مجتمع الإمارات، التي حرصت على الحفاظ على تراث مجتمع الإبل، وسعت إلى تحقيق الاستدامة وضمان الاستمرارية في هذا التراث وربطه بواقع حياة اليوم.

دور تاريخي في التواصل الثقافي

وللجمل دوره التاريخي الذي لا يُنكر في التواصل الحضاري بين الأمم القديمة عن طريق القوافل التجارية التي كانت تعتمد في حمولتها وعبورها المسافات الطويلة القاسية على الجمال، فعبر قارات العالم المختلفة كان الجمل هو القاسم المشترك حضارياً عبر العصور في تواصل الجسور الحضارية والحياتية بين الشعوب المختلفة. وفي بعض المناطق، ولدى حضارات بعينها، كان للجمل تأثيراته على اقتصاد تلك المناطق، وعلى تطور شعوبها الاجتماعي والثقافي. وقد خصّ الله تعالى هذا الحيوان بميزات جسدية وتشريحية، ووظائفية لا تتوافر لغيره من الحيوانات، فلا عجب مع هذا التميز أن نرى أن للجمل تاريخه الثقافي؛ إذ مثَّل هذا الحيوان عنصراً رئيسياً في تكوين العديد من المعتقدات والأساطير والخرافات وانتشارها في ثقافات عدة، وتداخَل في النتاج الأدبي والفني

صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان رئيس الدولة «حفظه الله»، أكد أثناء استقباله لفريق هجن الرئاسة على الأهمية التاريخية والاجتماعية لسباقات الهجن

لأشهر الأدباء والفنانين.. وغيرهم، كما تداخل في الموروث الشعبي للمجتمعات المختلفة. وفي تاريخ العرب، احتل الجمل من نفوس العرب مكانةً مرموقةً لا تكاد تعدلها أو تدانيها منزلة إلا منزلة الخيل، وليس أدلّ على ذلك من أن الإبل كانت تُسمى بالمال، وحتى وقت قريب ظل العرب يقيسون عزَّ القبيلة وقوتها بعدد الإبل التي تمتلكها، وكانت الإبل في الوقت نفسه ثمناً للأفراح والأتراح، فمهر العروس من النياق، وكلما زاد عدد النوق زاد قدر العروس، وكان والد عبلة قد اشترط على عنترة مئة من النوق المغاتير. وفي الأتراح كانت الإبل ثمناً لإيقاف الدم، فتدفع ديةً للقتل الخطأ غير المقصود، وحين تنشب النزاعات بين أفراد القبائل.

عصب التجارة العربية والتبادل الحضاري

تأهَّل الجمل للقيام بدور أساسي في البيئة الصحراوية القاحلة، فقد تحلى بالصبر وقوة التحمل، ووهبه الله المقدرة على الحركة والترحال لمسافات طويلة، كما أنعم عليه بنعمة الذكاء الخارق في معرفة الطرق، مما جعله جزءاً حيوياً من نظام ومكونات هذه البيئة، مكملاً لإنسانها وأرضها. فلا غرابة أن يكون الجمل وسيلة النقل الرئيسية عند الأمم والشعوب التي عايشته، ولا عجب أن يظل سيد الدواب عند العرب في فتح أبواب الصحراء أمامهم، وفي مشاركتهم أعباء وهموم ترحالهم وتنقلاتهم، إضافة إلى حمل تجارتهم إلى مختلف الأصقاع.

ومع دورها هذا، باعتبارها الناقل الوحيد لمعظم خطوط التجارة البرية في الجزيرة العربية عبر العصور، شكَّلت الإبل عصباً رئيسياً في حياة السكان، وقوة مؤثرة في اقتصاد المنطقة وتطورها الاجتماعي والثقافي، بل وفي مجرى تاريخ سكان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا؛ فإلى جانب أهميتها القصوى في حياة أهل البادية فقد لعبت الإبل دورها في المجتمعات الحضرية في المراكز المستقرة المتناثرة على امتداد بلاد العرب، سواء كانت قرى أو مدناً، فقد كان امتلاك قطعان الإبل من أهم سمات رؤساء وكبار القبائل الشهيرة المعروفة بعراقة أصلها وسمو نسبها، وبمركزها الاجتماعي الذي يضعها موضع السادة الشرفاء، كما كان كذلك سبباً في تفعيل التجارة وامتلاك الثروة والانفتاح على الحضارات والأمم الأخرى، بما خلق تبادلاً حضارياً قاد إلى كثير من مراحل التطور وإيجاد نهضة حضارية لتلك المنطقة لم تشهدها من قبل.

فعبْر الطرق التجارية انتقلت الكتابة وخط المسند. والخط الآرامي النبطي، مما أوجد أثراً كبيراً في ثقافة الجزيرة العربية. فالقلم المسند كان القلم الرسمي الذي عبَّر به أهل الجزيرة العربية، شمالها وجنوبها، في حقبة ما قبل الإسلام، فكتبت به ممالك سبأ ومعين وحمير وغيرها من حضارات جنوب الجزيرة العربية، وانتشر هذا القلم أيضاً في الشمال، فكتبت به حضارات ذاك العصر، كما كتب به أرباب القوافل وسكان البادية. وقد استطاعت المنافذ التجارية الشمالية أن تنقل

معها القلم الآرامي - النبطي والتدمري الذي وُجد في مناطق متفرقة في شمال الجزيرة العربية ووسطها، كما نقلت القلم الآرامي - البهلوي أيضاً الذي وُجد في أختام وأوزان البرونز، كتلك المكتشفة في موقع قرية «الفاو» عاصمة مملكة كندة الأولى. قامت الطرق التجارية بما سلكها من قوافل الإبل في الجزيرة العربية وجيرانها بدور كبير في قولبة أنظمة المجتمعات الحضارية والدينية خلال حقبة ما قبل التاريخ وفجره. وتشير المعثورات الفخارية التي كانت ضمن السلع التجارية في مواقع حضارات العبيد (6000 - 5000ق.م) على امتداد الساحل الشرقي للجزيرة العربية إلى صلات وثيقة بمراكز حضارية مع المناطق المجاورة. كما كان لوجود الطرق التجارية القديمة في الجزيرة العربية، وما صاحبها من تداخل ثقافي واجتماعي، دور أساسي في إيجاد تراث ديني مشترك لعرب الجزيرة العربية جنوبها وشمالها. وتشير الأدلة الآثارية إلى أن معبودات عرب جنوب الجزيرة كانت ضمن معبودات عرب الشمال، كما كانت معبودات عرب الشمال تُعبد عند عرب الجنوب. وتواصلت علاقات الجزيرة العربية التجارية مع بلاد فارس عبر الطريق البري لواحة البريمي، فالموجودات التي عُثر عليها في كل مكان من مواقع، مثل: تبيحي، وبامبر وغيرها في إيران لها ما يناظرها في مواقع هيلي، وأم النار في دولة الإمارات العربية المتحدة. كما تميز ساحل الجزيرة العربية الشرقي بصلات تجارية وحضارية وثيقة مع الهند منذ حقبة ما قبل التاريخ المتأخر.

الجمل في الإمارات منذ القِدم

يرتبط تاريخ وجود الإبل في دولة الإمارات العربية المتحدة بتاريخ وجودها في الجزيرة العربية، وثمة العديد من الأدلة الآثارية التي تؤكد على وجود الجمال في هذه المنطقة منذ القِدم، فقد كان فريق من باحثي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث قد اكتشف منذ العقد الأول من القرن الحالي في المنطقة الغربية من إمارة أبوظبي هياكل عظمية لنحو 40 جملاً برياً تعود عظامها لأكثر من (6000) آلاف عام مما شكّل اكتشافاً علمياً جديداً على مستوى العالم.. ومثّلت الهياكل العظمية للجِمال التي تم اكتشافها في منطقة بينونة الصحراوية أكبر عيّنة من عظام الجِمال البرية التي تم اكتشافها في شبه الجزيرة العربية. كما عثر المنقّبون على مجموعة من عظام الجمال تعود إلى حولي الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد ضمن مقبرة ضخمة في مواقع، مثل: جبل البحايص، وتم العثور على أدلة مماثلة - أي عظام جمال - في مواقع في جزيرة غناضة، ومنطقة هيلي في مدينة العين وشمل وتل أبرق. وفي جزيرة أم النار، تم العثور على رسمٍ لجملٍ على حجر جيري ضمن الجدار الدائري لأحد القبور التاريخية فيها. وفي الجزيرة أيضاً عُثر على كميات كبيرة من العظام، من أبرزها 200 عظمة للجمال التي يُعتقد أنها كانت مستأنَسة وليست برية، ويبدو أن الجمال في هذه الفترة استخدمت لغرض النقل، حيث كانت تنقل النحاس من أماكن الإنتاج إلى الجزيرة بهدف التصدير إلى الخارج وبالذات إلى بلاد الرافدين.

تراث مُعظَّم بنهج مستدام في الإمارات

كانت الإبل وما زالت متجذرة في حياة المجتمع الإماراتي، فهي جزء من حركته اليومية، سواء في البادية أو الساحل، وكان الإماراتيون يهتمون بالإبل وتغذيتها وامتلاك الأصيلة منها، وهم إلى اليوم يعتزون بإبلهم رغم التحضّر والتقدم العمراني الذي شهدته الإمارات. ولم يقتصر هذا الاهتمام على فئة خاصة من المجتمع، بل شمل الجميع، رغم الانتقال من زمن البداوة إلى زمن الحضارة. وتشهد الفيافي خارج المدن والقرى على هذا الاهتمام، إذ أعد ملاك الإبل لإبلهم أماكن خاصة، يطلق عليها اسم «العِزَبْ». وكان لمؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - دوره الكبير في الحفاظ على استدامة هذه الركيزة من ركائز التراث الإماراتي، بما صنعه لتشجيع مربي الإبل على الاهتمام بها، فعمل على تخصيص الأراضي لملاك الإبل وغيرهم، ووفّر الماء، وأوصله إلى عمق الصحراء، ليخدم النهضة الزراعية والتطوّر العمراني على السواء، ووجه بإقامة ميادين سباقات الإبل، فأقيمت ميادين عدة في كل إمارة من إمارات الدولة، وأقيمت مهرجانات «المزاين» في جميع أنحاء الدولة، وخُصصت للمشاركين الجوائز، كما وحظيت تلك السباقات والمهرجانات بالرعاية والاهتمام من سموه ومن القيادة الرشيدة من بعده، التي ترى في الإبل معطى حضارياً وتاريخياً وأصالة ضاربة في القِدم، فعظّمت من شأن السباقات الخاصة بالإبل وطوّرت في برامجها وفعالياتها، ووسّعت من دائرة استقطابها لتشمل دول المنطقة.

سبق عالمي في سباقات الهجن

تُعدّ الإمارات أول دولة في التاريخ الحديث تقيم سباقات للهجن العربية الأصيلة، وقد رصدت لها جوائز مالية وعينية دفعت الناس إلى الاهتمام أكثر بالهجن. وتتويجاً للاهتمام الرسمي بشؤون الإبل عموماً، والهجن خصوصاً، شهد عام 1992م قيام اتحاد لسباقات الهجن، وكان لهذا الاتحاد دوره في انتشار سباقات الهجن في المنطقة وخارجها، إذ بدأت معه هذه الرياضة تحظى باهتمام كبير في عدد من الدول الأوروبية، حيث رعى تنظيم عدد من السباقات الناجحة في نهايات القرن الماضي في كل من ألمانيا وأستراليا. ويُعدُّ مهرجان الظفرة أكبر مهرجانات الإبل في المنطقة، ويشهد أكبر تجمع للإبل، وهو يدعم جهود استدامة تراث الإبل بخاصة والتراث الإماراتي بعامة، بفعاليات متنوعة، أساسها سباقات الهجن، إلى جانب مسابقات المزاينة التي عُدَّت فيها مسابقة «بيرق الإمارات»، من أولى المسابقات النوعية المعنية ببعض فئات الإبل، وغدت الحلم الذي يسعى إليه أشهر ملاك الإبل في منطقة الخليج العربي من أجل الوصول إلى منصة التتويج، إذ يلتقي سنوياً مُلّاك الإبل من دولة الإمارات ودول الخليج خلال المهرجان الذي بات يشكل جسراً بين الماضي والحاضر، إذ حرصت هيئة التراث المسؤولة عن تنظيمه على أن يعمل على نقل العادات والتقاليد الإماراتية الأصيلة إلى الشباب، ضمن فعاليات شاملة وتعليمية، بما يضمن استمرارية التراث وتقديره، عبر تجربة غنية ومتكاملة تحتفي بالتقاليد الإماراتية، وتعزز من قيم الاستدامة للأجيال القادمة.

تراث الإبل في مكنون «اليونسكو»

وفي نهاية عام 2020م، تمكّنت دولة الإمارات العربية المتحدة من إدراج «سباق الهجن» في القائمة التمثيلية للتراث الثقافي غير المادي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، وذلك في ملف مشترك مع سلطنة عُمان، باعتبار السباق تراثاً احتفالياً، وممارسة اجتماعية مرتبطة بالإبل، وبوصفه إرثاً إنسانياً غنياً جديراً بالصون والحفظ للأجيال القادمة، والترويج له لدى منظمة «اليونسكو» الراعي الدولي لتراث الشعوب. وبالتزامن مع ذلك اختارت اللجنة الدولية الحكومية لصون التراث في منظمة «اليونسكو»، التراث الاحتفالي المتعلق بالإبل في دولة الإمارات والتقاليد الاجتماعية ذات الصلة، عنواناً لحملتها الإعلامية التي أطلقتها باللغات الرسمية الست للأمم المتحدة عبر مختلف منصاتها الإلكترونية والمطبوعات كافة الصادرة عنها، وأبرزت «سباق الهجن» والعادات الاجتماعية والتراث الاحتفالي البهيج المتعلق بالإبل في الإمارات وسلطنة عُمان، وذلك ضمن أهدافها في إذكاء الوعي بالتراث غير المادي وإبراز التقاليد الثقافية والمهارات التي تمتلكها المجتمعات المحلية في مختلف الدول، وأكدت المنظمة الدولية أن «أهمية سباق الهجن لدى المجتمعات البدوية تكمن في الدور البارز للإبل في المناطق الصحراوية، حيث تعتبر المراقبة من سبل تناقل المعارف والمهارات المتعلقة بهذه الفعالية، فضلاً عن تمارين المحاكاة، وأشكال التعبير الشفوية ذات الصلة بهذا التراث الشيّق» ■

باحث وإعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع:

1. الإبل في الإمارات: دراسة تاريخية - تراثية - أدبية، فاطمة مسعود نايع المنصوري، العين، مركز زايد للدراسات والبحوث، الطبعة الأولى، 2006م.
2. الإبل في بلاد الشرق الأدنى القديم وشبه الجزيرة العربية: تاريخياً، آثارياً، أدبياً، حمد محمد بن صراي، أبوظبي، دار الكتب الوطنية بهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، 2011م.
3. الآثار التاريخية في ظفار، صلالة، مطابع ظفار الوطنية، سعيد بن مسعود المعشني، 1997م.
4. جريدة الاتحاد، 2009/1/22م.
5. الجزيرة الفراتية وديارها العربية (ديار بكر، ديار ربيعة، ديار مضر)، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر، عبد الحكيم الكعبي، 2009م.
6. الجنادرية: فكر وتراث وهوية، صور من التاريخ الحضاري السعودي، صالح محمد سبأ، عمان: دار مجدلاوي، 2008م.
7. الجمل: التاريخ الطبيعي والثقافي، روبرت إيروين، ترجمة أحمد محمود، أبوظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، 2012 م.
8. الجمل والعجلة، ريتشارد بوليت، ترجمة مروان سعد الدين، أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، الطبعة الأولى، 2009م.
9. طرق التجارة القديمة، علي بن إبراهيم الغبان وآخرون، الرياض: الهيئة العامة للسياحة والآثار السعودية، 2010م.
10. ظفار أرض اللبان، عبد القادر بن سالم الغساني، مسقط: المطابع العالمية، 1980م
11. كتاب الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، 2001م.
12. المسالك والممالك، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، بيروت، دار صادر أفست ليدن، 1989م.
13. موسوعة الإبل، محمد محمود حامد، عمان، داردجلة، الطبعة الأولى، 2009م
14. موسوعة الدرر الزاهرة في الأصالة المعاصِرة، بسيوني الخولي، المجلد الثاني، حضارة الإسلام (الذات الحضارية للإسلام)، الجزء الثاني، مفهوم حضارة الإسلام ونظرية نشوئه، القاهرة، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 2016م.
15. موسوعة «المأمورة»، أبوظبي، الأرشيف الوطني التابع لوزارة شؤون الرئاسة، 2005م.

بِيْدار اللَّهْجَةِ الإماراتيّة فيما طابق الفصيح

ألفاظُ الإبل

محمد فاتح زغل
أكاديمي وباحث في التراث

تعد الإبل مكوناً رئيسياً في حياة العرب البدو، حتى إنها خرجت من كونها مجرد حيوانات، لتدخل إلى مخيال الفرد والجماعة ثم قصائد الشعراء، وفي جملة من المرادفات اللغوية ما جعلهم يلقبون هذا الحيوان بـ «سفينة الصحراء» وبأسماء عديدة أخرى جادت بها القريحة، حتى أصبحت الإبل في مخيالهم رؤى ثابتة ورموزاً قيمية ملزمة في حياتهم، لا تطالها عاديات الزمن.

بُوْش، بَوْش (بفتح الباء، وضمها):

يطلق على قطيع الإبل في هذه اللهجة بُوش، كما في قولهم: هذا بُوش فلان، وقد تشمل هذه اللفظة الجماعة المختلطة من الناس، كما في قولهم/ يا من الناس الهُوش، والبُوش. والبَوش في العربية: الجماعة المختلطة من الناس من قبائل شتى كما في قول العرب: جاء من الناس الهَوش، والبَوش (الكثرة) وضجيج الأخلاط من الناس، على أنهم الغوغاء، وقيل إن الهَوش والبَوش كثرة الناس، والدَّواب.

جازئٌ، وجوازئ (كازٍ ويُوازي):

تستعمل جازئٌ (كازي)، وتكسيرها (ويوازي) في هذه اللهجة للدلالة على الجَمل في وقت عدم شربه، والجِمال في هذا الوقت على أنهما من قول العرب: جزأتِ، وجزئَتِ الإبل بالرطب عن الماء (قنعت، واكتفت) والجوازئ: بقر الوحش، لتجزُّئها بالرطب عن الماء والنّخل التي استغنت عن السقي، والجُزء: اسم للرطب عند أهل المدينة.

ذوْدٌ (ذُوْد):

الذّوْد في هذه اللهجة: الإبل، وهو في العربية: ثلاثة أبعرةٍ إلى التسعة، أو العشرة، أو ثلاثة إلى خمسة عشر، أو إلى عشرين، أو أكثر من عشرين أو ما بين الثلاثة إلى الثلاثين أو مابين الثنتين، والتّسع، على أن الذّود مؤنث، ولا يكون إلا من لفظه، أو واحدٌ، وجمعه أذودٌ.

عَزُوفٌ:

تستعمل هذه للدلالة على الناقة مع ابنها، وجمعها،كما قيل: وهي دلالة تتبدّى بوضوح من العزوف عن الشيء، وهو المنصرف عنه، أو الصادّ، والزّاهد فيه، والسالي له، لأن الناقة، كما يُفهم، انصرفت مع ابنها إلى مكان قد يكون بعيداً عن مكان تجمع الإبل، كما يظهر لي، وقد يكون أصل هذه اللفظة عَسوفاً، وهي الناقة التي تركب رأسها في السير على غير علمٍ.

عَوْدٌ، وعَوْدةٌ (عُوْد، وعُوْدَه):

العَوْد، والعَوْدة في هذه اللهجة، وبعض لهجات الخليج العربي: المُسنّ، والمُسنّة، من الآدميين، ومن الإبل، الكبير، والكبيرة من أيّ شيء، كما في قولهم: الورقة عُوده، ورجُلٌ عُود. والعَود في العربية: المسن المدرَّب من الإبل، والشاء، والناس، كما في قول العرب في المثل: «زاحم بعَودٍ، أو دَعْ»، على أن المعنى: استعن على حربك بالمشايخ الكُمَلِ من أهل السِّن، والمعرفة.

نُحازٌ (نْحاز):

النُّحاز في هذه اللهجة: مرض يجعل الإبل تسعل، وهو في العربية: داء يصيب الإبل في رئتها، فتسعل منه سعالاً شديداً، ومنه: بعير ناحزٌ، ونحيزٌ ونَحزٌ، ومنحوزٌ، ومنحَّزٌ (به نُحازٌ) وأنحزوا (أصاب إبلهم النُّحاز).

هَجمةٌ:

تستعمل هذه اللفظة في هذه اللهجة للدلالة على مجموعة من الإبل، كما قولهم: فلان مرّ بهجمة. وهي في العربية: القطعة الضخمة من الإبل، ما بين الثلاثين والمئة، أو الأربعين إلى مازاد عليها، أو بين السبعين إلى دون المئة، أو السبعين إلى المئة، أو التسعين إلى المئة، أو الستين إلى المئة ■

ناقة الإمارات أيقونة التوثيق والتحدي

عبد الله محمد السبب

«الصديق الشاعر عبد الله السبب.. إلى قلبك العامر بالمحبة: أتقدم بنسخة من كتابي هذا، راجياً أن ينال بعض التفاتة منك، وأنت الذي تابعتَ خطواتي في دراسة التراث المحلي منذ سنواتي الأولى..»، مع محبتي وتقديري.. عياش: رأس الخيمة: 2014/12/18

مدخل معلوماتي:

الكتاب: الناقة في الشعر النبطي بالإمارات.. مقامات الأمومة ومسرَّات الجَمال.

المؤلف: الشاعر والباحث والإعلامي العربي الجزائري - عياش يحياوي (رحمه الله: 1957م - 2020م).

الطبعة الأولى: إصدار خاص 2014م - مطبعة دار الفجر - أبوظبي.

المحتوى: (توطئة. الناقة المقدَّسة. في الرحلة. الرحلة في الشعر النبطي. الناقة/ المرأة/ الجَمال. الخَلُوجُ. زمن الوصل والصفاء. المصير المُفلِقُ. مهرجان الظفرة. الناقة تجمع الأجيال الجديدة. مهرجان الظفرة في الصحافة العالمية. مهرجان سلطان بن زايد التراثي. مزاينة بينونة للإبل 2014م. أسماء النوق: قديمها وحديثها. صفات نوق. أسانيد الكتاب «حسب ظهورها»).

هذا الكتاب:

(الناقة في الشعر النبطي بالإمارات.. مقامات الأمومة ومسرَّات الجَمال)، أول كتاب في موضوعه بالمكتبة الإماراتية، الصادر قبل نحو عشر سنوات من الآن؛ حيث يقول مؤلفه: (أذكر أني شرعت في جمع مادة هذا الكتاب منذ سنوات عديدة، لإدراكي أن المكتبة الإماراتية تخلو من مثيل له في طبيعة مادته وخصوصيته). ص 14. فماذا يُخبرنا الرجلُ الجزائري الإماراتي الموسوعي، الزميل والأخ الصديق الأستاذ عياش يحياوي - رحمه الله؟ وماذا عساه يتحفنا بمعلومات عن الناقة في الإمارات وعن عواملها..؟!

إمارات الإبل:

في «توطئة» الكتاب، يقول الباحث عياش يحياوي: (وقد دلت المسوح والتنقيبات الأثرية في دولة الإمارات العربية المتحدة على وجود قديم لإبل في مناطق عدة، وقد أشار إلى ذلك الباحث والمؤرخ الدكتور حمد محمد بن صراي: (في دولة الإمارات عثر المنقبون على مجموعة من عِظام الجِمال أيضاً في مواقع مثل «جبل البحايص»، وذلك ضمن مقبرة ضخمة تعود إلى نحو الألفين الخامس والرابع قبل الميلاد، وفي «جزيرة غناضة وهيلي وشمل وتل أبرق» وهذه الآثار تعود إلى الألفين الثالث والثاني ق. م).

بل إن السكان القُدامى في الإمارات كانت تنتشر بينهم عادة دفن الإبل انطلاقاً من معتقدات دينية. يقول ابن صراي: (ويبدو أن هذا الجمل قد دُفِنَ بالقرب من صاحبه الذي وُجِدَ هيكله العظمي بجانبه، وبجواره سيف في غُمده. ولكن رقبة الجمل مفقودة، وهذا الهيكل لناقة).

ويبدو أنّ دفن الناقة بجوار صاحبها مصدره الاعتقاد في البعث، وقد كان البدوي قديماً يرى أنه من الضروري أن تُدفن معه راحلته حتى إذا كان يوم البعث بُعِثت معه فركبها وسار إلى حيث يسير المبعوثون معه. ومن هنا كانت كثرة قبور الإبل والأحصنة. (وفي موقع مليحة الآثاري في دولة الإمارات العربية

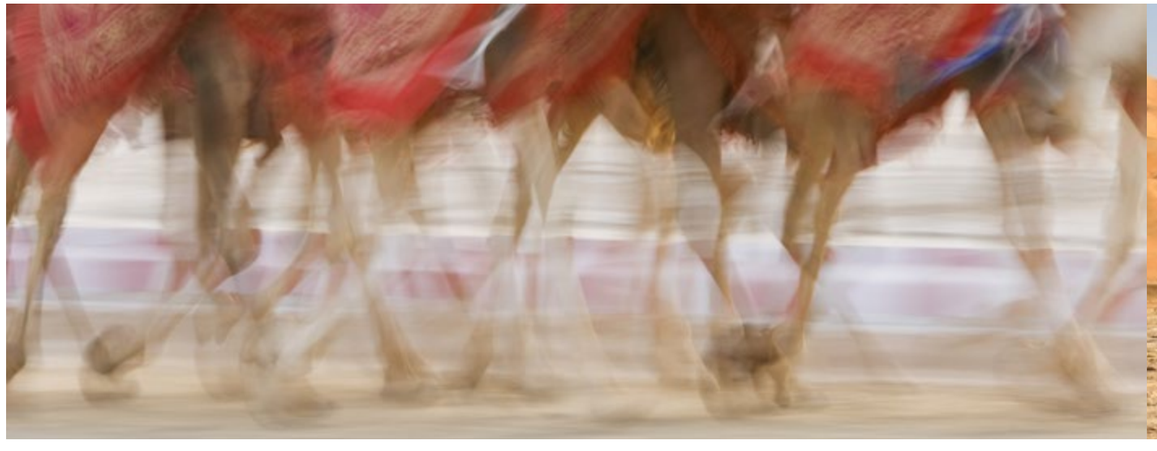

المتحدة أيضاً، عُثِر على 12 قبراً للجمل بالقرب من قبور أصحابها، فيما يبدو. وفي اثنين من هذه القبور كانت الجِمال مدفونة جنباً إلى جنبٍ مع حصان). (ص 9 - 10).

إبل ابن ظاهر:

(الرحلة في الشعر النبطي)؛ عنوان واضح وصريح وضعه الباحث عياش يحياوي تحدّث فيه عن الشاعر النبطي الإماراتي وهو يخوض غمار الرحلة وعالم الناقة.. قائلاً: {خاض الشاعر الإماراتي النبطي في عالم الناقة خوضاً مشروطاً بثقافته ومطالب معيشته البدوية الصحراوية، ولم يكن ذلك مُقلداً للشاعر الجاهلي لأن كليهما عبّر عن تجربة وجودية أمْلتها طبيعة النشاط الاجتماعي في زمنه، وما تفرضه الجغرافيا من أنماط ذهنية وسلوكية. وقد تنبّه مبكّراً طه حسين إلى الشبه بين الأدب الشعبي في شبه الجزيرة العربية والأدب الجاهلي حين قال: (وهذا الأدب وإن فسدت لغته حيّ قويّ له قيمته الممتازة. من حيث إنه مرآة صافية لحياة الأعراب في باديتهم وهو في موضوعاته ومعانيه وأساليبه مشبه كل الشبه للأدب العربي القديم، الذي كان ينشأ في العصر الجاهلي). فإذا قوربت تجربة الماجدي بن ظاهر وهو أقدم شاعر إماراتي نبطي

معروف حتى الآن ومن ظهر بعده من شعراء نبطيين تم الوقوف على ما ذهب إليه عميد الأدب العربي، الذي قصد من «فساد اللغة» عدم التزامها بقوانين النحو العربي، وهي صفة لازمة في هذا الضرب من الشعر الشعبي في البوادي العربية التي لا يزال حتى اليوم شعراؤها يعبّرون به عن وجدانهم ونسيج معتقداتهم وعاداتهم ونظرتهم إلى العالم. أما قاموس الشعر النبطي محور الدراسة فهو عربي يضرب بجذوره عميقاً في موروث شبه الجزيرة العربية}. (ص 41).

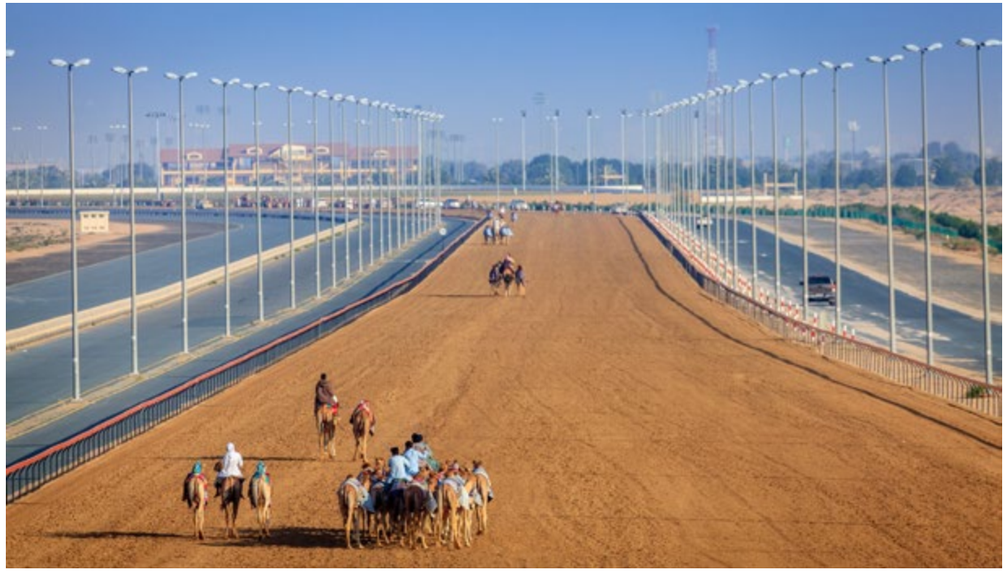

يقول الماجدي بن ظاهر:

ونـا كلمـا نـادى المنـــادي لرحلتـه
ودنوا لشوقـــي مدنيـــات الزمايـــل
فـــلا طـــاب لي نوم ولا لـذ لي كـــرى
سوى القلـــب من لابـي جواليـــه جايل

هكذا يتابع الباحث عياش يحياوي فعالية الناقة في الرحلة وحالتها كما انطبعتا في ذهن ومخيال الشاعر الماجدي بن ظاهر، وهكذا يصل إلى النتيجة الإحصائية التالية (ص 43):

وردت الإبل في شعر ابن ظاهر 22 مرة، منها 15 مرة بصيغة المفرد و7 مرات بصيغة الجمع، وكثرة المفرد تعني أنَّ لابن ظاهر تجربة طويلة ودقيقة مع الجمل أو الناقة، لأنَّ من سمات الإفراد الخصوصية في المعنى على عكس الجمع الذي يحمل المعاني الشمولية العامة. ولم يفرد ابن ظاهر في نصوصه التي تناقلها الرواة قصيدة أو مقطعاً تفصيلياً للناقة، لكنه ذكرها في خضمّ استرجاعه لواعج حبّه وأحزانه وذكرياته القريبة والبعيدة، كقوله مستذكراً أيام الصبا والناقة الحلوب:

علـى دهـر مضـــى لـــي من زمـــان
رعـــاك اللـــه يا عهـد التصابـــــي
ربينـــــا فـــي بهيـــات الشبـــاب
علـــى حلـــوة رعـــي واحتـــلاب

وقوله في مضمار الحكمة:

وكم حائـــل تعـــدو بِالْإدْاف سابـــق
وتعـــجزْ إلى جاهـــا العيـــا عن شدادهـــا

وقوله متحسّراً على فعل قوم «حملوا نساء جميلات» على نوق لها خبرة في الترحال، ولم يتركوا وراءهم سوى رماد الأثافي الذي يقابل رماداً يتلوّن به مزاجه:

على بزّل شلـــوا من الخـــود ما بغـــوا
وخلوا من الأثـــلاث جانـــي سوادهـــا

وفي مقطع نادر يخصص ابن ظاهر ثلاث أبيات لوصف النوق بقوله:

واسْطـى مِزار الحـيْ وتْباعـــدِ المـــدى
وعادِ المطايـــا مِنْ ورَا الرهُـــم زايْفـــه
بِليهيَّـــةٍ أدمـا العلابـــي كواظـــمٍ
كوصُـــف الزعالا منْ شناهـــمْ مهايْفـــه
وقادوا عَيِلْ الاضعـــانْ متباعـد الخطـا
طويـلِ القراشبْ عن مـــلاوي حنايفـــه

العائلة الإبلية:

(تعددت الأسماء والإبل واحدة).. هكذا يمكن أن نستدل على «نُوق» عياش يحياوي في كتابه الذي يرصد («الناقة» في الشعر الشعبي بالإمارات)..

يقول: (المتمعّن في قراءة أسماء النوق يلاحظ أن البدوي يُطلق الاسم على الناقة تماماً كما يُطلق الاسم على البنت عند ميلادها، الفرق الوحيد هو أن الناقة قد يُطلق عليها الاسم بعد فترة زمنية من ميلادها قد تطول وتقصر. أما البنت فيُطلق عليها الاسم في الغالب عند ميلادها أو خلال الأسبوع نفسه. وتختلف أسباب إطلاق الأسماء، فقد يتم ذلك تأثراً بالطقس الممطر لحظة الميلاد فيكون الاسم «مطيرة» أو «هملولة»، وقد يكون اسم ناقة عزيزة نفقتْ، أو اسم ناقة شهيرة بصفاتها الكريمة عند العرب. وقد يُطلق الاسم انطلاقاً من لون أو شية في الناقة كما قد يُطلق بصفة اعتباطية لا سند لها). ص 289.

(إنَّ المتمعن في أسماء نوق السباقات يقف أمام أسماء قديمة ذات صلة بالمحيط الطبوغرافي والسوسيولوجي العريق، كما يقف أمام أسماء حديثة ويُصاب بالذهول لتنوعها واختلاف مصادرها ومراميها).. (ص: 290 - 292):

الاسم - تأثير نفسي:

يختار راعي الناقة اسمها لأسباب نفسية متعددة، منها إرهاب المنافس في ميادين الهِجن ببث الروع فينفسه انطلاقاً من إيحاءات الاسم. ومن أمثلة ذلك: (مخيفة، الكايدة، محتلة، محنة، غزوة، نهب، صاعقة، انفجار، مهولة، الضاربة، مدمرة، داهية، بلبلة).

وقد يكون الإيعاز النفسي خيراً فيكون الاسم دالاً على العفاف، مثل: «عفيفة» و«حشمة»، أو دالاً على الندرة والعجب، مثل: «وحيدة» و«عجايب»، أو دالاً على الخير غالباً مثل «هقواي». وقد يكون اختيار الاسم نابعاً من معانٍ ذات أبعاد نفسية أخرى ومنها: (جحّادة «تجحد التعب»، نزّاعة «تنزع إلى الفوز»، محينة «تمحن غيرها»، مشوّشة «مشتاقة»، معثة «تعثّ خاطر من يحاول منافستها في السباق»، العسرة «الصعبة»، الخبش «المجنون في لسان آل مُرة الكرام»، مشعوفة «مجنونة، فلان فيه شغاف أي جنون «من دهّامة» قالوا لا آتيك ما حنّت الدهماء؛ وهي الناقة»، الدَّهْمُ الجماعة الكثيرة. والدهيماء: المصيبة العظيمة الكايدة).. يقول الأمير خالد الفيصل:

يـــا مهـــــدور الهيـــن ترى الكايد أحلـى
واســـأل مغني كايـــــدات الطروقـــي

الاسم - النسب: صوغة، مهرة، بنت صوغان، الدرعية «نسبة لدروع عُمان»، مايدية «نسبة إلى شخص اسمه ماید اشتُريت منه الناقة»

الاسم - الشكل: النايفة، منيفة، العارية، طويلة، عالية، فارعة، الخَروفة «وبرها ناعم وشبيه بصوف الخروف الصغير»، الجثلة «المتينة»، منحاف «نحيفة»، سمحة «جميلة الشكل»، القبْعى «ليست فارعة»، مثْتلّة «ممدودة الرقبة».

الاسم - الجوهر: دانات، الذهب، مرجانة، التبر.

الاسم - المدح: مشكورة، مبروكة، عوايد.

الاسم - اللون: وضحة، الدهما، الصفرا.

الاسم - الحيوان: الورق، ظبية، الشاهينية، شواهين، العنود

الاسم - المقام: الشيخة، رياسة، سلطانة.

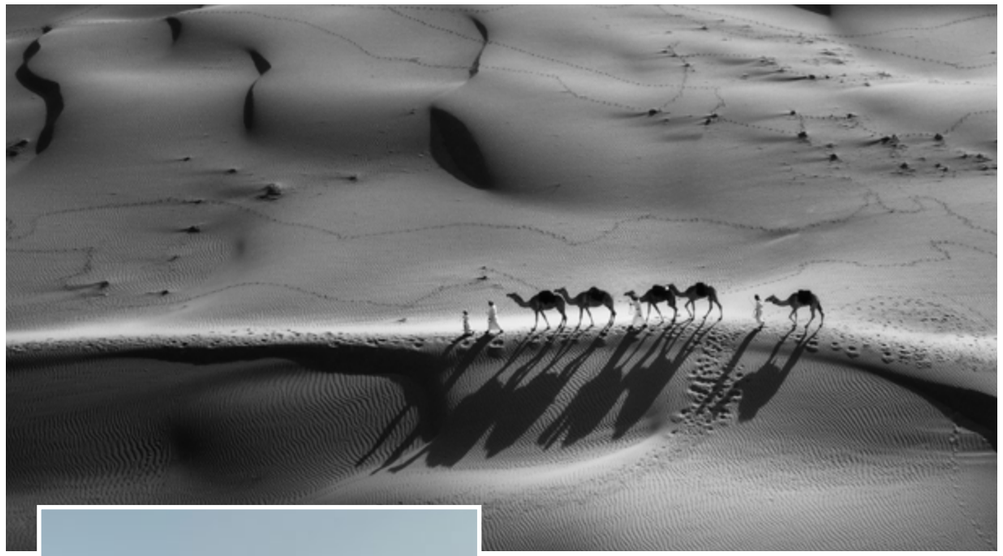

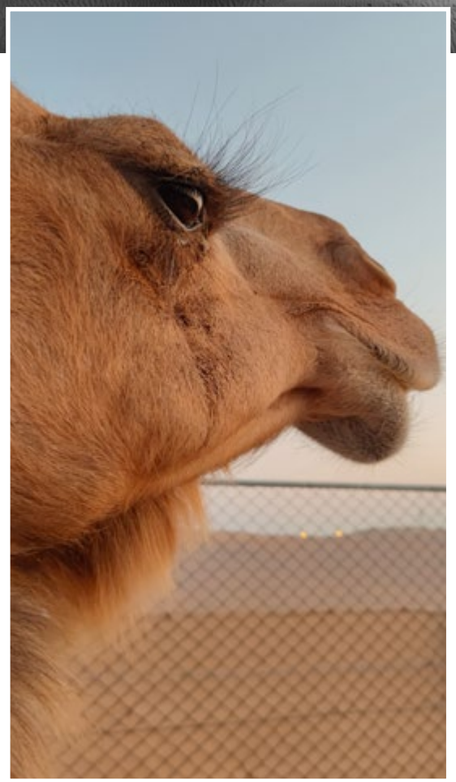

الاسم - الصناعة: أدنون، إعمار، أبراج.

الاسم - النجوم: أسماء ممثلات: نورمان، سوزان، حليمة، يُمنى

الاسم - المكان: طرابلس، قندهار، بينونة، الشامية، كازابلانكا، سينا، صلالة، عذاري، العاصمة، زعبيل، جميرا، الظفرة، الغرّافة.

الاسم - الطبيعة: ندى، العشوة، المملودة، ميّاسة، ديمة، هماليل، سرابة، رمانة.

وأسماء أخرى...

صفات نُوُقِيّة:

في ما يلي صفات شهيرة في النوق ذات صلة بسلوكها وأحوالها الصحية وإدرارها الحليب، وما إلى ذلك من صفات مرتبطة بها وببيئتها (ص: 301 - 303):

{الناقة خوّارة: كثيرة الحليب. الناقة النفور: التي تهرب من حوارها. الناقة غطوط: أي إن رأسها قويّ ولا يستطيع راكبها التحكم فيها. الناقة ما خِض: على وشك الولادة. الناقة غارِز: لا يوجد في ضرعها حليب. الناقة مِرِيْ: يتم حلبها من دون مولودها. الناقة تَمْري: تُدرُّ الحليب. الناقة مِصغر: لم يبلغ مولودها شهراً ولبنها غير صالح للشرب. الناقة هِشوش: يدر لبنها بسرعة خلال الحَلب. الناقة مفرودة: التي في عمرها 6

أشهر فما فوق. الناقة عِزوف أو خِلفة: التي وُلدت منذ 40 يوماً فما فوق. الناقة رِحول أو ذِلول: التي تُستعمل للركوب والنقل. الناقة قِحور: التي مرت عليها سنة منذ ولادتها ولم تلقح. الناقة فاطر: التي بلغ عمرها 15 سنة فما فوق. الناقة صُعود: طرحت ابنها ميتاً وعمره أكثر من 6 أشهر. الناقة مُشوفْ: أصابها مرض الشافة في أحد أقدامها. الناقة نَشْلا: خفيفة اللحم في منطقة الفخذين، سريعة في ركضها. الناقة هارِم: أكلت نبات الهرم، وهو نبات بري فيه حبّات مائية تساعد الناقة على الهضم. الناقة قُصود: سمينة ولا تلقح. الناقة ريما: نزل اللحم في خلوفها وصعُب حلبها. الناقة عِسوس: التي تثور من مكانها للحلب، لكنها لا تدر الحليب وتظل تشم التراب وتبتعد عن الشخص الذي جاء لحلبها. الناقة بِسوط: الوحيدة مع ولدها وغير مضيّرة. الناقة رزا: عراقيبها أو أرجلها مستقيمة ومنتصبة. الناقة غزير: تُدِرُّ حليباً وافراً. الناقة لوفا: حين يفتر أنفها وأسبالها على جنب. الناقة صُورا: تقلب رأسها ورقبتها على جنب عندما تركز على شخص أو عشب أو بُوشْ. الناقة أرغلا: توجد رخاوة في أذنييها. الناقة عنْيا: رقبتها ثابتة إلى الخلف. الناقة عقلا: رِجْلاها منحنيتان إلى الداخل. الناقة ميريم: مُصاب ضرعها بورم ويصعب حلبها. الناقة العاذي: التي تأكل العشب فقط، ولا تأكل نبات الهرم. الناقة عُيول: التي تخرج عن نطاق سير المركاض. الناقة قموص: التي تمتنع عن إدرار اللبن وترفس صاحبها برجليها. الناقة روسا: التي يكون في رأسها «قحد»، وأنفها منكوس نحو الأسفل.. و«القحد» نتوء عظمي في مؤخرة رأس الناقة. الناقة ضيور: المضيّرة على ولد غيرها في حالة موت ولدها بسبب الاحتياج إلى لبنها. الناقة مخلّل: التي ترعى في النبات الرملي القصير كالقصيص وازهر}

جغرافيا الناقة:

«الناقة»؛ بكل صفاتها ومراحلها السنية، وبكل ما هي عليه من تطور عبر الزمن، وبما لديها من سجل تاريخي على مر العصور؛ منذ التعرف عليها من قبل الإنسان الذي استأنسها واستأنس العديد من الحيوانات، ليصبح بعضها أليفاً في الحياة البشرية. الناقة بما لديها من صفات وفوائد جمة، لم تعد مجرد أنثى للجمل.. بل هي كذلك ذات صلة وثيقة بالخريطة الجغرافية في شتى أنحاء المعمورة.. إذ لها في كل شبر من الأرض مكان باسمها.. يرمز إليها، ويشار إليها به.. يقول عياش يحياوي: (لم تغفل العبقرية الشعبية العربية تأثير الناقة في الحراك البدوي فربطت اسمها بأماكن صارت معالم يمكن دراستها ضمن الفضاء الإثنوغرافي المهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية العريقة ومن أمثلة ذلك ما يلي (ص: 8 - 9):

«مجد الناقة»، جامع عتيق بطرابلس ليبيا، بُني قبل بناء الجامع الأزهر في القاهرة.

«أولاد الناقة»، قرية تابعة لإقليم آسفي في المملكة المغربية

في الجزائر: «عين الناقة»، اسم بلدية في ولاية بسكرة

الصحراوية. «جبل الناقة»، «عرش الناقة»، «كاف الناقة»: أسماء أماكن في ولاية المسلية. «ضرع الناقة»، جبل بين قسنطينة والخروب. «حاسي الناقة»، وادٍ قريب من مدينة تيندوف الصحراوية.

«وادي الناقة»، مدينة تبعد عن نواكشوط نحو 50 كيلومتراً في موريتانيا.

في سوريا: «تل الناقة»، اسم مكان قريب من مدينة حمص. «مسجد مبرك الناقة» في مدينة بُصْرى.

«باب الناقة»، منطقة مشهورة في محافظة الحديدة غرب اليمن.

في مصر: «شرم الناقة»، منتجع سياحي بمدينة الغردقة. «الناقة»، اسم منطقة جنوب شرق مدينة القيلوبية.

في المملكة العربية السعودية: «شعيب الناقة»، مرعى قريب من حفر الباطن. «عين الناقة»، منطقة شرق مدينة الروضة. «الناقة»، من القرى التي تسكنها قبيلتا «الصنادلة» و«المُكاحلة». «الناقة»، منطقة في الطائف. «محلب الناقة»، منطقة شمال المدينة المنورة.

«رجم الناقة»، منطقة شرق الخليل في فلسطين المحتلة ■

أديب وإعلامي إماراتي

أول مدرسة لتعليم ركوب الإبل في دبي

المرأة الإماراتية تتفوق على الرجل في سباقات الهجن

أماني إبراهيم ياسين

الإبل رمز للتراث العربي الضارب في أعماق التاريخ، لذلك ارتبطت بالشخصية العربية منذ مئات السنين، ويرجع تاريخ الإبل في الإمارات إلى ما قبل خمسة آلاف سنة، وقد حظيت على عناية خاصة من حكام الدولة، لما تمثل من قيم أصيلة متوارثة، يجب الحفاظ عليها لتظل راسخة أمام الأجيال.

وفي إطار التوعية بالإبل والحفاظ عليها، ظهرت العديد من الأفكار التي تستلهم هذا الرمز التراثي الجميل، ظهر ذلك في الفعاليات التراثية التي تحيي تراث الأجداد، والديكورات التي تستلهم البيئة البدوية، والأزياء الحديثة التي تستلهم نقوش وزخارف الجدات، والهدايا والتذكارات التي استعارت البيئة البدوية. وأحدث فكرة لغرس ثقافة الإبل وتعليمها، كانت تأسيس مدرسة لتعليم ركوب الإبل، تقدم دروساً مختلفة حول أنواعها، وسلالاتها، وتنظم فعاليات ترفيهية متنوعة محورها الجمل

أول مدرسة لتعليم ركوب الإبل

مدرسة الصحراء العربية لركوب الجمال ADCRC هي أول مركز مرخص لركوب الهجن في دبي، وفي المنطقة، مخصص لتدريب الهواة على مهارات ركوب الهجن والتعامل معها، مع دمج جوانب عدة، مثل: الرفق بالحيوان، والتعليم، وبالطبع الضيافة العربية.

تأسست المدرسة في منطقة الليسيلي، في منطقة المرموم التراثية في إمارة دبي، في يناير 2021 بهدف وجود مكان رسمي لهواة الجمال، يسهل لهم التدرب على مهارة الركوب، وإعادة الشغف بثقافة الإبل، وإتاحة الفرصة لتجربة طريقة النقل التقليدية، والتعرف على جوانب من تراث الإمارات.

رحلات استكشافية

ينظم المركز أنشطة متنوعة، منها دروس لركوب الجمال، وجولات حرة بالإبل في الصحراء داخل الكثبان الرملية، تصل مداها إلى 50 كيلومتراً، والسباحة مع الجمال، ورحلات ليلية إلى الصحراء على ظهر الإبل، والتخييم تحت النجوم.

كما يقدم المركز دروساً حول جمال السباق وخطوات تدريبها، وينظم جولات إرشادية إلى سباق الهجن في المرموم، أهم مسارات السباق في دبي، مع حضور السباقات ومتابعتها بالسيارة، والاستمتاع بالتعليق الحي المباشر. وينظم المركز رحلات استكشافية إلى مناطق عدة، مثل: القدرة، والنخرة،

مجموعة من النساء يتأهبن لجولة صحراوية بالجمال

ورحلات من رمال لهباب البيضاء إلى قرية صحراوية، وإلى الكثبان الرملية حول المليحة. وتنظم المدرسة فعالية المشي مع الجمال أو الهرولة معها، لأولئك الذين لا يفضلون الركوب، وهي فرصة للتواصل مع الحيوانات على مستوى شخصي أكثر

الفريق النسائي في أحد سباقات الإبل في دبي

إقبال نسائي

رغم أن سباقات الهجن اقتصرت دائماً على الرجال، بدأت مجموعة من النساء ممارسة هذه الرياضة والاستمتاع بما تقدمه من تحدٍّ ومتعة وشغف. وتتلقى النساء تدريباتهن في المدرسة خلال الفترتين الصباحية والمسائية ضمن جدول حصص يومي، في مضمار تدريبات الهجن، وعبر صحراء المرموم أيضاً. ويشمل البرنامج التعليمي حصصاً نظرية لتركيب أجزاء «الشداد» ورعاية الإبل والمحافظة عليها، بالإضافة إلى عرض أفلام وثائقية لتاريخ سباقات الهجن، والماراثونات السنوية المقامة في الدولة وخارجها، والتعرف على أبطالها. وتنظم المدرسة دورات تدريبية لراكبات السباق، شريطة أن تكون المشتركة قد أكملت عشر جلسات، وأظهرت مهارات تحكم قوية في الهرولة.

فعاليات للأطفال

ويقدم المركز أنشطة خاصة بالأطفال من مختلف الأعمار، حيث تتاح لهم الفرصة للاقتراب من الجمال في بيئة خاضعة للإشراف، والتعرف على كيفية تعامل الحيوانات مع التفاعل البشري.

كما ينظم المركز برامج تعليمية للمدارس وفقاً للصف الدراسي، يتم من خلالها استقبال الرحلات المدرسية، لتعزيز مهارات الطلاب غير اللفظية، والحدس، وتعليمهم الصبر والمسؤولية، فضلاً عن تطوير معارفهم في مجال الإبل وبيئتها.

وتحرص المدرسة على رفاهية الإبل، وتولي اهتماماً خاصاً برعايتها، انطلاقاً من التعاليم الإسلامية التي تحضّ على الرفق بالحيوان، ولدورها في الاستدامة البيئية أيضاً، حيث تساعد

ليندا روكبيرجر المدربة والشريك المؤسس لأول مركز لتعليم ركوب الإبل

في تقليل البصمة الكربونية محلياً، لذلك تنظم المدرسة دورة لتعلم كيف تسهم الإبل في الحفاظ على النظم البيئية.

اهتمام الجاليات بالإبل

أوضح عبيد جمعة بن صبيح الفلاسي، مالك مركز الصحراء العربية لركوب الإبل، لمجلة «تراث» أن «الإبل عنصر مهم من عناصر تراثنا الذي نعتز به، لذلك تعمل حكومتنا على دعم

الفريق النسائي لسباق الإبل خلال فوزة بالكأس في سباق بالمملكة العربية السعودية

الفريق النسائي للمركز خلال تتويجه في أحد السباقات في الإمارات

التراث والحفاظ عليه والاهتمام به، ونظراً إلى أن الأمارات تحتضن أكثر من 200 جنسية، لاحظنا اهتمام الجاليات الأجنبية بهذا الحيوان، فأسسنا المركز لتعريفهم بركوب الجمال والسباقات الخاصة بها». وأضاف أن «الرياضة لها مكانتها لدينا كخليجيين وعرب، ومع أنها متاحة للجميع رجالاً ونساءً، لاحظنا أن العديد من النساء يفتقدن وجود مكان مناسب لركوب الجمال بخصوصية ودون مضايقات، فقررنا تكوين أول فريق نسائي على مستوى الخليج والشرق الأوسط لسباق الإبل، يضم أكثر من 12 راكبة هجن من دول عدة أوروبية وعربية، وهو ما يتماشى مع توجه الحكومة دائماً بالعمل والسعي دائماً للوصول إلى رقم 1»، مشيراً إلى أن سمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، حاكم دبي، رأى أنها فكرة غير مسبوقة، وحرص على دعمهم، حيث حصلوا على أول ترخيص من الدائرة الاقتصادية في دبي. وأبان الفلاسي أن بعض النساء تخوفن في البداية، ولكن التدريب المستمر والتعليم الصحيح وملازمة الجمل بشكل دائم ومتكرر ساعدهن على القيادة بأمان.

إنجازات وبطولات

وكشف الفلاسي أن الفريق النسائي التابع للمدرسة حقق العديد من الإنجازات، منها كأس الطائف عام 2023 وفازت فيه متسابقة أمريكية من طالبات المركز، وكأس مهرجان

ليندا روكبيرجر مع مجموعة من الإبل

الجنادرية في الرياض عام 2024 وفازت فيه متسابقة فرنسية من المركز أيضاً، مشيراً إلى أن المركز ينظم خمس مسابقات سنوية، بترخيص من نادي دبي للهجن. وأضاف أن المدرسة استضافت العديد من الفعاليات، منها نهائي بطولة سلسلة سباقات الهجن C1 للسيدات لموسم 2022-2023 على مضمار المرموم لسباق الهجن في دبي، وفازت بالمركز الأول جودي ريتشاردز من نيوزيلندا، وبالمركز الثاني جانا شميدل من ألمانيا، والمركز الثالث كورالي فيرولود من فرنسا.

الجمال الألمانية إماراتية

ذكرت الألمانية ليندا روكبيرجر، المدربة والشريك المؤسس لمركز الصحراء العربية لركوب الإبل، لمجلة «تراث» أن علاقتها بالإبل قديمة، فقد اكتشفت الجمال أثناء رحلاتها الصحراوية، وتلمست قدرتها المذهلة، لافتةً الانتباه إلى وجود جمال في ألمانيا، حتى إن بعضها من مواليد الجمال الإماراتية، التي تم إهداؤها لرجل ألماني في التسعينيات من القرن الماضي، ولكنها تستخدم بشكل رئيسي لإنتاج الحليب أو كحيوان أليف، ويقل استخدامها في الرياضة. وأضافت أنها في عام 2021، أدركت أنه لا توجد وسيلة تسمح لها بمعرفة المزيد عن الجمال. وشعرت أنها مخلوقات مميزة جداً تستحق المزيد من المعرفة والوعي، فقررت إنشاء المدرسة في دبي بالشراكة مع شريك إماراتي.

3300 متدرب

أوضحت ليندا أن المدرسة تشهد إقبالاً كبيراً، ففي الفترة ما بين عام 2022 إلى 2024، حضر فصولها أكثر من 3300 شخص، من جنسيات متنوعة، أوروبية، وآسيوية، وإماراتية، ودول عربية أخرى. وأبانت أن «المدرسة تقدم دروساً في ركوب الإبل من المبتدئين إلى المتقدمين، والتدريب على مهارات السباق لمسافة تصل إلى 2 كلم، والتحضير للحصول على رخصة الفارس الرسمية من نادي دبي لسباق الهجن، والمشاركة في السباقات المحلية (بطولة C1) وفي المملكة العربية السعودية». وعن قدرة المرأة في السيطرة على الجمل رغم رقّتها، قالت إن جمال الركوب ليس في القوة، بل في التفاهم والتعاون بين الجمل والراكب، فالجمل لا تسيطر عليه القوة والجبروت، بل تسيطر عليه القدرة على القيادة.

سباقات الهجن النسائية

ذكرت ليندا أن سباقات الهجن لها تاريخ في الخليج عامة والإمارات خاصة، وهناك سباقات للرجال في الإمارات، ودول

مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وتتميز بمسافة أطول من سباقات النساء. وأضافت أن أبوظبي شهدت سباقاً للهجن للسيدات عام 1997، وفي وقت لاحق من عام 2020، تحت رعاية الشيخ حمدان بن محمد بن راشد آل مكتوم، تم إطلاق سباق للنساء والرجال، ومنذ ذلك الحين يتم تنظيم سباقات إضافية من قِبل مركز الشيخ حمدان بن محمد لإحياء التراث، وفي عام 2021، نظمت بطولة C1 وهي دوري لسباق الهجن للسيدات فقط، وكانت المشاركة مفتوحة لجميع الفارسات فوق سن 18 عاماً اللائي لديهن رخصة سباق سارية المفعول. وترى روكبيرجر أن رياضة الهجن تحتاج إلى دعم الاتحادات وقواعد توجيهية جديدة وشفافية وسهولة الوصول، وألا تكون مجرد عرض للترفيه، بل يجب أن تحمل القيم الحقيقية للمنافسة والرياضة والشفافية والعدالة، مع وضع مصلحة الإبل في الاعتبار. وكشفت أن من متدربات المدرسة سيدات من الولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا وألمانيا، شاركن في بطولة (C1) التي أقيمت في المملكة العربية السعودية، ما يعكس اهتماماً متزايداً عالمياً بهذه الرياضة، متطلعةً إلى إنشاء المزيد من مرافق التدريب، وتنظيم المزيد من السباقات، واستحداث مسافات مختلفة لقدرات مختلفة، لتحقيق المزيد من الإنجازات.

الوعي والثقة

وعن المهارات التي يكتسبها الرجل أو المرأة من هذه الرياضة، أكدت مديرة مدرسة الصحراء العربية، أن ركوب الإبل يعلم الوعي الذاتي والثقة والصبر والقدرة على التحمل وفهم الطبيعة والحيوانات، ويعزز الصحة النفسية العامة واللياقة البدنية، مشيرة إلى أنه يفيد الأطفال أيضاً، فهو يقلل خوفهم، ويبني رابطاً مع الحيوانات الكبيرة، بالإضافة إلى القدرة البدنية.

وترى أن دبي نجحت في توظيف العناصر التقليدية، ما عزز الثقافة التراثية، ووسّع المشاركة في هذه الرياضة، وقد أدركت أن بعض العناصر المستوحاة من التراث تحتاج إلى تعديل طفيف لتناسب الأوقات الحالية، مثل الخوذات والملابس وما إلى ذلك التي قد لا تكون جزءاً من ركوب الجمال التقليدي وسباقاته، ولكنها لازمة للدخول في عصر جديد. وأكدت ليندا أن «من المهم الحفاظ على التراث، فهو أصل مجتمعنا وأساس أعرافه الاجتماعية والأساس القوي الذي يحمل مستقبلاً مشرقاً، ولكن يجب علينا أن ندرك أهمية التحسين والابتكار، مشيرة إلى سعي المدرسة إلى إنشاء موقع ثانٍ، وتوسيع عروضها لتشمل المزيد من المحتوى التعليمي، وزيادة سلسلة السباقات لتشمل مسافة ثانية» ■

كاتبة وصحفية مصرية

شعر الإبل الغرض السادس في الشعر العربي

الشعر النبطي يحيي تاريخ المعلقات في وصف الإبل

الأمير كمال فرج

منذ العصر الجاهلي والإبل ركيزة الحياة، والمحرك الأساسي في التاريخ العربي بمظاهره كلها من عادات وتقاليد وانتصارات وتطور اجتماعي، وأفرز ذلك أنواعاً مختلفة من الفنون والآداب التي كان لها دور أساسي في حفظ التراث عامة والتراث اللغوي والشعري خاصة.

واحتفى الشاعر العربي بالإبل، وكتب فيها أحلى القصائد، ويقال إنها هي أول من حرك قريحة البدوي فاخترع من أجلها القصيدة، حيث كان الحداء أول ما عرف العرب من فنون الشعر، حتى إن الإبل كانت تطرب لسماعه، فتنتظم في السير، ومن هنا جاء بحر الخبب[1].

ويُروى أن أول من سنَّ الحداء هو مضر بن نزار، الذي لمّا نزل عن بعيره كُسرت يده، فصاح متألماً بصوته الشجي: «وايداه.. وايداه»، فتجمعت الإبل حوله وطاب لها السير معه، ومن هنا بزغت فكرة استعمال الإنشاد لمخاطبة الإبل[2]. وشهد التاريخ الأدبي العديد من الشعراء الذين أبدعوا في وصف الإبل، ومن الشعراء الذين أجادوا في ذلك طرفة بن العبد في معلقته، التي يبدأ وصف الناقة فيها من البيت الـ (11) إلى البيت الـ (41)، أي إنه استغرق ثلاثين بيتاً، يصف فيها حزنه على فراق حبيبته «خولة»، وكيف أصبحت ناقته السريعة الضامرة تجوب به الصحاري فتنسيه الهموم. فيقول:

«وإنّي لأُمْضِي الهَـمَّ عنـد احْتِضـارِه
بعَوْجَـاءَ مِرْقَـالٍ تَرُوحُ وتَغْتَـدِي
أَمُـونٍ كأَلْـوَاحِ الإرانِ نَسأْتُهـا
على لاَحِـبٍ كأَنّـه ظَهْـرُ بُرْجُـدِ
نُبـارِي عِتَاقـاً ناجِيَـاتٍ وأَتْبَعَـتْ
وَظِيـفاً وَظِيـفاً فَـوق مَوْرٍ مُعَبَّـدِ»[3]

الإبل في الإمارات

احتفت المجتمعات العربية بالإبل، وظلت موضوعاً مهماً في الذاكرة العربية يستدعي الحنين للقيم العربية الضاربة في التاريخ، تعلم الأجيال القوة والصبر والقدرة على التحمّل. وحتى تظل هذه القيم حية كانت حاضرة في المهرجانات التراثية، والإصدارات الشعبية والفعاليات الوطنية، وكذلك حاضرة من خلال مسابقات الهجن والأنشطة الثقافية.

يقول الشاعر الشعبي:

«لـــو مـــا علّلهـــن والذهـــب
كـــان عادلوهـــن بالذهـــب»

وأولت دولة الإمارات العربية المتحدة اهتماماً خاصاً بالإبل، انطلاقاً من رؤية المغفور له - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - الذي قال (وفاءً منا للإبل بما أسدته لأسلافنا ولنا من بعدهم من خدمات وقت أن كنا نعتمد عليها في حياتنا وتنقلاتنا ورحلاتنا فإننا نهتم بها ونكرمها)، ووجّه بالاهتمام بالإبل ورعايتها، والتشجيع على اقتناء السلالات الأصيلة، ودعم رياضة سباقات الهجن ومزاينات الإبل التراثية. ويرجح العلماء أن «وجود الجمل في

بيئة الإمارات يعود إلى قبل 5000 سنة تقريباً، حيث عثروا على عظام وحفريات ورسوم ونقوش وتماثيل ومدافن للجمال في جزيرة أم النار الواقعة في إمارة أبوظبي، وموقع بينونة جنوب غرب أبوظبي، كما عثر على هياكل للإبل في مليحة والبحيص في إمارة الشارقة، وموقع الصفوح الأثري في دبي، وتل أبرق (الشارقة - أم القيوين)، وجزيرة غناضة ومنطقة هيلي في مدينة العين، ومنطقة الدور التابعة لأم القيوين، ومستوطنة الثقيبة بالقرب من منطقة المدام في الشارقة»[4].

مسابقات في وصف الإبل

وفي إطار الاهتمام العام بالإبل كقيمة تراثية، برزت مزاين الإبل التي تقام في الدولة كل عام، والتي تجمع هواة اقتناء السلالات الأصيلة، لتعزيز الموروث، والتنافس على جوائز في شعب عدة. وتطلق هذه المزاين عادة مسابقات شعرية في «وصف الإبل» لتشجيع الشعراء على الكتابة في هذا المجال، وتعزيزاً لعادة شعرية نهج عليها الأوائل. وتعزيزاً لشعر الإبل وما يمثله من قيم تراثية، نظمت لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية في أبوظبي مسابقة «وصف الإبل» للشعر النبطي، خلال فعاليات الدورة الـ (16) من مهرجان الظفرة التي أقيمت عام 2022، بهدف تعزيز الموروث في وصف جمال الإبل الأصيلة من المحليات والمجاهيم. واشترطت اللجنة أن يتضمن محتوى القصيدة وصف المطية «سواء محلية أو مجهم» وجمالها ودورها في الماضي ووجوب الاهتمام بها في الحاضر، مع مراعاة الجوانب الفنية والأدبية للقصيدة، وألا يخرج المشارك عن النص المطلوب منه، وألا يتطرق لذكر أسماء مطايا «منقيات» أو أشخاص في القصيدة.

الإبل في الشعر النبطي

عبّر الشاعر النبطي عن الإبل، وأبدع في وصفها وتجسيد العلاقة الروحية معها، ورغم انصراف الآداب العربية شعراً ونثراً مع التطور إلى موضوعات أخرى، ظل الشاعر النبطي وفياً لتراثه، وما يحمله من قيم. ويذخر الشعر النبطي الإماراتي بالعديد من القصائد التي تصف الإبل، والقيم الاجتماعية والجمالية التي تحملها، من هؤلاء الشاعرة موزة المهيري التي كانت تحمل حباً خاصاً لبيئتها المحلية بما تتضمن من أشجار وحيوانات. فقدت ناقة الشاعرة موزة المهيري المعروفة

بـ «سمحة» وليدها بالقرب من البيت، فأخذها الحنين إليه، فأصاب الشاعرة الحزن لحزن ناقتها، فكتبت قصيدة تقول فيها:

«آه يـــا قلـــب تولـــع بالونيـــــن
مـــن ونينـــه سهـــر النـــاس الرقـــود
اسهرتـــني لـــــي تهريـــع بالحنيـــن
تلتعـــي بالصـــوت وتشـم اليلـــــود
مرحباً باللي تـــدورلـــــي جنيـــن
تلتعـــي شـــروا تقصيـــف الرعـــــود
بينـــت عـــوق مغبـــا مـــن سنـــين
بينـــت عوقـــي عقـــب مانـــا يحـــود
لـــمس قلبي مثـل ضرب النحايطيـــن
لـــي ميابرهـم قويـــات الحـــــدود
دمـع عينـــي بـــروي اللـــي حايميـــن
لي سقـــوا بـــه يوم كضـــات الورود»[5]

إبل شهيرة

في إطار اهتمام الدولة بالرياضات التراثية، برزت سباقات الهجن، التي أصبحت مادة مشوقة للاستمتاع والتباري، وظهرت من خلالها إبل معينة حظيت بالشهرة بين المتابعين.

وتأثراً بذلك، ظهرت في قصائد الشعراء أسماء إبل معينة بالاسم، منها «يوده» و«محنة» و«الغزيل» و«مسناد»، و«المسك»، و«الرفيعة»، و«الشطّوطيّة»، و«الخوّارة»، و«الطيّارة»، و«بنت صوغان».. وغيرها. وها هو سالم الكاس قال قصيدة في ناقة اسمها «مسناد» بمناسبة فوزها في سباق للهجن عام 1983»، يصف فيها جموع الإبل المتبارية، مستعرضاً ناقته المفضلة،

متغزلاً في سماتها الشكلية والمهارية، مؤكداً استحقاقها الفوز، يقول:

«يـــابو سعيـــد لو شفـــت «مسنـــاد»
مـــا بيـــن حـــــول عيدهيـــات
يـــوم روحـــن والسيـــح منقـــــاد
مثـــل الدمـــن لـــي مستنيـــرات
علـــى خطـــر تظهـــر لعتـــــاد
اخطامهـــا مرضـــوف ليـــات
عندهـــا أصايـــل حـــول اتـــــلاد
ولـــي بعضهـــن بألـــوف لميـــات
طعامهـــن مـــن لـــب لفـــواد
البـــون وسمـــون صريحـــات
يبغونهـــن ليـــوم لـــو عـــاد
للسبـــق والطـــاري ولشـــارات
حســـب الأمـــر صفوهـــن أعـــداد
مـــن كـــل منقايـــه خيـــارات

الفايـــزه بالسبـــق «مسنـــاد»
قبضـــت خشـــوم الأوليـــــات»[6]

علاقة حميمية

كانت العلاقة بين الشاعر والناقة علاقة حميمية كلها رحمة ووفاء، لدرجة إحساس الشاعر بألم ناقته التي تعاني في صمت، ومن الشعراء الذين جسدوا هذا الشعور سعيد بن راشد بن عتيج الذي كتب قصيدة بعد أن شعر بألم ناقته «شقراء» بسبب مرض ألمّ بها، وظهر ذلك واضحاً على عظامها، وأصبحت لا تستطيع حمله، فقال:

«أصبحـــت يـــا شقرايـــه
عَيْـــل علـــى المســـراح
وايـــلاك هـــوب الغايـــه
مـــا مـــن عظـــام اصحـــاح
صابـــك وزا شروايـــه
مـــن بوهـــدب نشـــاح
لونـــا بعطـــي هوايـــه
مابـــا مقامـــه راح
ورايـــه امـــا ورايـــه
لـــو مـــا كسرلينـــاح
طلبـــت مـــن مولايـــه
لا يرينـــي قمـــاح
فيـــك أو فـــي منتوايـــه
كـــان البـــخت مـــا طـــاح
يـــا مستجيـــب ادعايـــه
أرجـــو منـــك السمـــاح

لا فرحـــــــــت ابغضـــايـــــــــه
واللـــــي علـــــى اشحـــــــــاح»[7]

وصف الناقة

أبدع الشعراء النبطيون في وصف الناقة، وقدموا صوراً إبداعية كثيرة، منهم علي بن رحمة الشامسي الذي قال إنها ذات خصر رشيق تشبه الظبي من بعيد، وعند الانطلاق تشبه الصقر من نوع الحر في انطلاقته وسرعته وانقضاضه على الفريسة. يقول:

«مهضومة الخصرين مملايـة الســاق
منسوبـة اليدّيـن ما فوقهـا فـــوق
شبه الظبـي م البعـد لي شاف تفّـاق
حامـت على روس العراجيـب من فـوق
تفرح بهـا في كـل شوطٍ ومطـــلاق
تمطي اليديـل بسيرهـا تلحق لُحـوق
بيـــن الذلايـل كنّهـا لمـع بـرّاق
لو شبـه طيـر الحرّ لي قصّ لسُبـوق
عمْليـةٍ من نـسل ظبيـان لي فـاق
ركّيبهـا سابـق ولا هـــوب مسبـوق
يبشر بسعـد الحـظ والحـظ توفـاق
والفايـزة دايم لها الحـظ مرفـوق»[8]

مزاين الإبل

أما عبيد بن معضد النعيمي، فيصف الإبل الأصيلة وهي تتهادى في إحدى مهرجانات سباقات الهجن الختامية، فينقلنا إلى قلب الحدث، حيث يتابع المشاهدون السباق المثير، ويعلو صوت المذيع ليؤكد تقدم الناقة «محنة». يقول الشاعر:

«دارت علـــى بالـــي مثايـــل
غزلـي وساديتـــه بالاهـــداب
ما قلـت أنـا مـن قـول قايـــل
ولا خـذت مـن ديـوان وكتـــاب
عـــادات للهيـــن الأصايـــل
تاريخهـــن مـن يـوم الأصحـــاب
لـــهن رســوم لهـــن دلايـــل
متورخـات بصفـــح لكتـــاب
يتحملـن حـــر القوايـــل
وعلـى الكلـف ما يشكيـن اتعـاب
لهـن علـى العـــاده يمايـــل
يشهـــد عليهـــن تلـــع الرقـاب
نـادى المذيـع وبالاســـم جـــاب
يوم انشـــرت «محنـــه» تخايـــل
ريـم يفـــل مـــن راس مرقـــاب
شمـت هـــواء وريـــح الفتايـــل
ريـم الخـلا لـي قايـد عـــزاب»[9]

في الاتجاه نفسه، يصف راشد بن فطيمة المنصوري ازدحام المزاين بالمتسابقين الذين يجرون نياقهم، واللجان التي تفحص وتقارن وتسجل الملاحظات، يقول:

«نهار المزاين وازدحامـه تجيـك أنـواع
بعضهـا علـم ناموسهـا فـوق غاربهـا
ولي عرّضت تأشـر عليها أغلب الأصبـاع
وحتى اللجـــان في البداية تراقبهـا»[10]

ومن الشعراء الذين أبدعوا في وصف الإبل، وجدّدوا في صوره الشعرية أحمد خليفة بن مترف الذي شبّه الناقة بالذهب علامة على لونها الأشقر، وعينها الحادّة بأعين الذئب، واستطرد في وصف جمالها فوصف الخدود والسنام والنحر، والرقبة الطويلة، وغيرها من السمات الجمالية في الإبل، يقول:

«شبيهة ذهـب في لونـــها نادره للـوان
عن اخـوك تخفيهـا من الزين لي يبهـــا
يلي عرضـت جـــدام لعيـــان بتبيـــان
وحشـود العـرب ترشيحها دوم صايبهـا
تراقص طرب شمقـــه وسط لمة العربان
تثيـــر العيـون اللي بلهفـــه تراقبهـا
لها عين ذيـب قاطع ديرتـــه شمقـان
ولها حرب تتذيـر من الصـوت يجذبهـا
لها خد صافـي زان وصفه علا لوجـــان
وتحـلا تباريـح الخـدود بشواربهـــا
طوال الرقاب فوصفهـــا دلة الرســلان
تزيد حلاهـــــا في معـــارف تميلبهـا
بدنهـا مديد وغـــارب مدتـــه شتـــان
عن السنـــام ومركـــب ما يقاربهـا
وسيعة نحـــر واليـــوه وسعه بزوره زان
مسافة شهر بيطانها عن مناكبها»[11]

- ولم يكتفِ الشاعر النبطي بالوصف الشكلي والحسي للناقة، وطريقتها في المشي وحركتها على الأرض، وأحوالها وأطورها، ولكنه عمد إلى وصف أجزائها كطبيب يعلّم تشريح الأعضاء. يقول بخيت بن خزينة المري واصفاً سنان الناقة:

«والسنـــام مركـــب فوق سرّتها عديـل
وذي وصوف الجيل الأول خذوه عيالها»[12]

ويمتدح ناصر بن خميس الغيلاني تقوس العرقوب في ناقته، ويقول:

«عسيمة أيادي والقوايم شرى العمدان
وعرقوبٍ مقوّس على ساق ممدودة»[13]

محفوضة التاريخ ميلاد وضراب
بنت القعود اللي يفك القراني

إحياء أمجاد القدماء

ويتبارى الشعراء النبطيون في وصف الإبل والتعبير عن مكانتها في القلوب، وينجحون في الإتيان بصور شعرية تحاكي إشراقات وصف الإبل التي أبدعها الشعراء القدماء. يقول سعد بن جدلان:

«الحب حب الوضح كب الخرابيط
لا قابلت مثل النصوب المصاليع
كنها تخطط بالمجكات تخطيط
بعيونها وخشومهن والمراضيع
يا زينهن تطرد نبات الشواخيط
زمّت دبق ريضان والا طواليع

- ويقول عايد رغيان الشراري:

ياراكباً من فوق بنت العماني
حول الرباع وتو ماشقّت النّاب
فيها من العيرات وقم الثماني
مرباه شط النيل مرتع ومشراب

- ويقول فراج ابن ريفه القرقاح:

يالله أنا طالبك حمرا هوى بالي
بموادع الجيش طفاح جنايبها
لاروّح الجيش حاديه اشهب الالي
لاهي تروح وسيعٍ صدر راكبها

- ويقول راكان النغيري:

«اتردد كل ما جيت اعشيها شعير
والله لو ما هيب ناقه لعشيها طلي»

وهكذا، نجح الشعراء الشعبيون في وصف الإبل كمظهر تراثي تقدره الأجيال، وفيما يندر الآن أن نجد قصيدة فصيحة تتحدث عن الإبل أو حتى توظيفها في صورة شعرية، أحيا الشعر النبطي تاريخ المعلقات في وصف الإبل بما تتضمن من مضامين مجتمعية وقدرات إبداعية أسسها الأجداد، وأبقى هذا الشعر حياً في نفوس الناس. وإذا كانت أغراض الشعر التقليدية هي: الغزل، والحكمة، والهجاء، والفخر، والمدح، آن الأوان لكي يصنف «شعر الإبل كغرض» مستقل، ليكون الغرض السادس في الشعر العربي، وأن يحظى بعناية نقدية، ليس تعظيماً للموروث وما يحوي من قيم جميلة فقط، ولكن لأن هذا النوع من الشعر بما يتضمن من أساليب إبداعية وصور فنية فريدة قادر على إلهام الشعراء، وتجديد الصورة الفنية في الشعر الحديث أيضاً ■

صحفي وباحث مصري

الهوامش والمراجع:

1. بحر الخبب من أشهرَ الأوزان العربية المستدركة على إيقاعات الشعر العربي وأعذبها. تفعيلته الأساسية «فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ فَاعِلُنْ» وهو ما يتناغم مع حركة الإبل المترحلة.
2. «الحداء» جمع وتدوين خالد العجيري، الدراسات الشعبية بالهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2020. ص 36.
3. ديوان طرفة بن العبد: www.aldiwan.net. استرجع بتاريخ 19 / 3 / 2024.
4. «الإبل في الإمارات» فاطمة مسعود نايع المنصوري، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي، الطبعة الثانية، 2018. ص 54 - 62.
5. ديوان الشاعرة موزة بنت جمعة المطيري، إعداد وإشراف شيخة الجابري، الطبعة الثانية، نادي تراث الإمارات، أبوظبي، 2022. ص 35.
6. ديوان الكاس «سالم بن خميس بن عبد الله الظاهري»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، أبوظبي، 2010م. ص 345.
7. ديوان ابن عتيج «سعيد بن راشد بن عتيج الهاملي»، جمع وتنقيح محمد بن يعروف بن مرشد المنصوري، نادي تراث الإمارات، أبوظبي، 2021، الطبعة الثانية، ص 85.

8. ديوان «نسيم الخليج» علي بن رحمة الشامسي، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، أبوظبي 2010، ص 126.
9. ديوان ابن معضد «عبيد بن معضد النعيمي»، د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي، 2008، ص 55.
10. «الإبل في الإمارات» فاطمة مسعود نايع المنصوري، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي، الطبعة الثانية، 2018. ص 259.
11. المصدر السابق نفسه، ص 288.
12. المصدر السابق نفسه، ص 281.
13. المصدر السابق نفسه، ص 284.

حضور الإبل في الموروث الثقافي والشعبي لسكان المنطقة الوسطى في إمارة الشارقة

علي تهامي

حظيت الإبل بحضور كبير في التقاليد والعادات الشعبية والموروث الثقافي لسكان المنطقة الوسطى في إمارة الشارقة. ويأتي ذلك الحضور في إطار الاهتمام الذي يوليه المجتمع الإماراتي للإبل باعتبارها جزءاً من تراثه وهويته وثقافته وتاريخه، حيث صار للإبل مفرداتها وأشعارها وأغانيها.

وفي كتابه «دراسات في التراث الشعبي الإماراتي»، جمع ووثّق لنا الدكتور سالم زايد الطنيجي، الكثير من العادات والتقاليد والموروثات المتعلقة بالإبل في المنطقة الوسطى في إمارة الشارقة، ودوّن لنا مفردات الإبل لدى بدو المنطقة، وسجّل لنا نصوصاً من الشعر الشعبي الذي قيل في الإبل، وحتى أمراض الإبل وما عرفه سكان تلك المنطقة من طرق شعبية لعلاجها وبحسب الكتاب، فإن الإبل قديماً كانت الوسيلة المفضلة لدى أهل البادية في المنطقة الوسطى في الإمارات في الغذاء والكساء والتنقل والارتحال، وقد اعتاد البدو الاعتماد عليها بشكل كلي، وتفاخروا بها. وأشركوها في السباقات ورافقتهم في حلهم وترحالهم، واستفادوا منها قديماً في حمل حاجاتهم أثناء حلهم وترحالهم وتنقلاتهم، وقالوا فيها أحلى القصائد، ولذلك نجد العلاقة بين البدو والإبل علاقة أزلية ومتأصلة منذ القدم، حتى وقتنا الحاضر، ورغم التطور والنقلة النوعية للمجتمع، فإن الإبل ظلت تحظى برعاية ومكانة في النفوس لدى البدو في الإمارات، ولذلك فإن اللهجة الإماراتية تزخر بكثير من المفردات المحلية الخاصة بالإبل.

مفردات محلية

ومن بين تلك المفردات التي استعرضها لنا الدكتور سالم زايد الطنيجي في كتابه «دراسات في التراث الشعبي الإماراتي»، والتي نجدها لدى سكان الإمارات والمنطقة الوسطى، والتي تُعنى بالإبل: «مطية» وجمعها مطايا وتُطلق على الذكور والإناث، و«ناقة» وجمعها نوق، وتُطلق على إناث الإبل، و «بعير» ويُقصد بها الجمل وجمعها جمال وهو الذكر، و«بكرة» وهي الأنثى التي تكون صغيرة، و«قعود» وهو الذكر الصغير، و«صوغان»، و«ضبيان»، و«مصيحان»، وهي أسماء لسلالات أصيلة ومعروفة لدى بدو الإمارات والمنطقة الوسطى، و«الخوّرة»، وهي من أكثر إناث الإبل إدراراً للبن، و«حوار» وهو الذكر المولود حديثاً، و«فطيم»، وهو الذكر الذي يبلغ عمره 6 أشهر وفطم من أمه، ويقال على الأنثى «فطيمة»، و«حج»، وهو الذكر الذي أكمل عامين بعد ولادته، وأما الأنثى فيقال لها «حجة»، و«لجي»، و«لجية»، للإبل التي بلغت سنها ثلاث سنوات، وهكذا تتوارد المفردات الخاصة بالإبل وهي كثيرة ومتعددة.

وإذا كانت اللهجة الإماراتية وثقافة سكان المنطقة الوسطى، قد عرفت الكثير من المفردات المتعلقة بالإبل، فقد عرفت

الكثير من القصائد التي تغنّى بها شعراء الإمارات والمنطقة الوسطى بالإبل أيضاً، حيث كُتبت الكثير من المؤلفات والدراسات التي اهتمت بتلك الأشعار وجُمع الكثير منها وتناولته بالشرح والتحليل.

ونقرأ في «دراسات في التراث الشعبي الإماراتي»، للدكتور سالم زايد الطنيجي، تلك الرزفة التي كتبها علي بن هويشل - رحمه الله - في الإبل (البكار) التي تغنّى بها كثيرون:

اتعنـــى لـــه فـــوق البكـــار وشلـــــه
واتخبره صافي العلـــــوم اش قـــــال
حبه سهـــــا بـــي عن صـــلاه ومونـــــه
والقلـــب مـــا رمتـــه عنه يحتـــال

وقد تعددت الدواوين والقصائد الشعرية التي أبدعها شعراء

الإمارات وسكان المنطقة الوسطى في القديم والحديث، وتغنوا فيها بالإبل، والتي تم جمعها من قِبل الكتّاب والباحثين والناشطين في جمع الموروث الثقافي الإماراتي وهم كثيرون.

أمراض الإبل لدى بدو المنطقة الوسطى

ولأن سكان المنطقة الوسطى، وبدو الصحراء يعتمدون اعتماداً كلياً على الإبل في ذهابهم وإيابهم عند عبور الصحراء، ولما كانت الإبل من الحيوانات التي لديها القدرة الكبيرة على الصبر وتحمّل العيش في هذه الأجواء الحارة، والتكيّف مع متغيرات الصحراء صيفاً وشتاء، فقد كانت تواجه كثيراً من الأمراض الفتاكة التي ورد ذكرها وتعرفنا على أسماء الكثير منها من خلال صفحات كتاب «دراسات في التراث الشعبي الإماراتي»، والذي توزعت فصوله على مئات الصفحات وصدر في أجزاء متتالية. وقد عرف سكان المنطقة الشرقية تلك الأمراض، من خلال معايشتهم للإبل، وتمكنوا من معرفة العلاج الشعبي المناسب لها، وعلى الرغم من التطور الذي شهده الطب البيطري، فإن الكثير من البدو في المنطقة الوسطى لايزالون يعتمدون على طريقة العلاج التقليدية في علاج الإبل، حتى وقتنا الحاضر، بل يؤمنون كلياً بأن العلاج القديم هو أنجع علاج للأمراض التي تصيب الإبل.

وفي هذا السياق، يقول الراوي سعود عبيد حامد: إن الأمراض التي تصيب الإبل عديدة ومتنوعة، ومنها: مرض «الغدد»، وهو مرض يصيب المطيّة بالأورام، وتظهر على جميع جسدها ومن آثاره حبس السوائل في جسمها، ولا تخرج منها هذه السوائل، وينتفخ الجسم. وهناك مرض «الشافّة»، وهي من الأمراض التي لا يوجد لها علاج، وبالتالي هي مرض عضال ويشبه مرض الغرغرينا الذي يصيب الإنسان. و«النخيّة»، وهي مرض يُصيب الإبل في فصل الشتاء نتيجة برودة الجو، وكان البدو يستخدمون صب الماء والملح في أنف المطية لعلاج هذا المرض قديماً. ومرض «بوطير» الذي يُصيب معدة المطية

ومن أعراضه المغص، وكان علاجه يتم من خلال كي المطية بالنار في البطن، وهناك مرض مشابه لـ «بوطير» وهو «صَقْعْ»، كان يُعالج بالكي بالنار أيضاً.

أمراض جلدية

وهناك أمراض جلدية تُصيب الإبل أيضاً، وقد نجح بدو المنطقة الوسطى في علاجها من خلال وصفات شعبية ربما تشاركوا في إعدادها مع بدو في أماكن ومناطق أخرى.

ومن تلك الأمراض مرض «الجرب» الذي كان يُصيب جلد المطية ويتسبب في تساقط وبرها، وكان الجرب من الأمراض المعدية التي يمكن أن تنتقل من الإبل المصابة إلى الإبل السليمة. وتتم معالجته قديماً من خلال دهن المطية بالزيت ومواد أخرى كانت معروفة لدى أهل المنطقة الوسطى من البدو. ومرض «القرع والرقط»، وهو مرض سريع العدوى، وعلاجه الكي بالنار في مناطق متفرقة من جسد المطية من ذيلها إلى رقبتها. وبحسب المصادر فإن بعض العلاجات التقليدية والوصفات الشعبية لعلاج الإبل لا تزال تستخدم في المنطقة الوسطى وبقية مناطق الإمارات حتى اليوم، وذلك بفضل نجاحها وقوّة تأثيرها على المطية المريضة، إلى جانب قدرتها على تحقيق العلاج السريع الذي يُقلل فترة علاج المطية من شهور إلى أسابيع وأيام ■

كاتب مصري

الإبل.. إرث أصيل وثروة مستدامة في دولة الإمارات

جمال مشاعل

للإبل مكانة خاصة لدى الإنسان العربي لارتباطه بها منذ أقدم العصور، فقد فرضت عليه ظروف الطبيعة الصحراوية القاسية بناء علاقة وثيقة ومتينة بالإبل لقوة تحمّلها الملائم لشدة حرارة الصحراء... ومع تحسّن الأوضاع الاقتصادية بعد اكتشاف النفط تضاءلت منزلة الإبل في النصف قرن الماضية، فأخذت علاقة العربي بالإبل شكلاً آخر؛ إذ خرجت من مجالات حياته لتدخل في ميادين أخرى كالسباقات في المهرجانات التراثية والمزاينات وسباقات المحالب، وبقيت للإبل منتجاتها ومنافعها مؤكدة استدامتها كثروة وإرث أصيل له ماضيه الحافل بالذكريات، كيف لا تكون الإبل ثروة مستدامة وقد أوصى بها المؤسس والباني - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - حين قال: «وفاءً منا للإبل بما أسدته لأسلافنا ولنا من بعدهم من خدمات وقت أن كنا نعتمد عليها في حياتنا وتنقلاتنا ورحلاتنا فإننا نهتم بها ونكرمها»، إنه قول مأثور بحقّ الإبل أكد أن لها ماضيها ودورها الكبير في مجتمعات الصحراء؛ إذ كانت تمثل عنصراً رئيسياً وأساسياً في حياة البدو، وعادة ما يقترن اسم الجمل بالبادية فيكنّى بسفينة الصحراء، ولا يستغني البدوي عنه، لأنه يستفيد من لحوم الإبل وحليبها الذي يعدّ من أهم المصادر الغذائية الأساسية، ويشفي من الكثير من الأمراض، ومن فوائدها أيضاً «اللبى» وهو حليب الناقة بعد ولادتها فهو أحسن علاج، وهو يكسب الجسم المناعة، ويقال إن لبولها أثره في علاج بعض الأمراض أيضاً. ومن جلودها تصنع أدوات كثيرة كالدلو والحقائب التي تستخدمها المرأة في حفظ أغراضها، ويستفيد من وبرها أيضاً.

ويؤكد قول الشيخ زايد أن الإبل ستظل لها منزلتها في حاضرنا وفاء منّا لها، وهذا ما يجعلها إرثاً مستداماً وثروة اقتصادية؛ ففي الماضي لم تكن هناك سيارات؛ فكان الناس يتنقلون على ظهور الإبل من مكان إلى آخر، وكانوا ينقلون الحطب والسخام (الفحم) بأجور معروفة يتقاضونها بالروبية، وكلما ازداد المتاع تزداد الأجرة، وكانت الإبل أحد أهم مصادر الغذاء، ولم يكن هناك شيء إلا البوش «الإبل»، ومن لا يملكها يقولون عنه فقير، أو حضري والحضري هو الجالس في البلاد يأكل ما قسم له الله.

كان الناس قديماً يعملون في الغوص، وبعضهم يسترزقون من العمل على ظهور الركاب «الجِمال» يأخذون الحطب ويبيعونه في أبوظبي وغيرها، أو يبيعون «الثمام» علفاً للبقر، أو ينقلون الناس من مكان إلى آخر؛ فالإبل كانت سبب راحة البدوي التي لا تتحقق إلا بوجودها؛ لأنها وسيلة حياة البادية، ويتذكر بعض رواة التاريخ الشفاهي أنها كانت وسيلة انتقالهم في فصل الصيف من أبوظبي إلى مدينة العين، وفي الشتاء يجوبون الصحراء على ظهور المطايا، وأن البدوي كان يحضر الحطب أو الفحم، أو يبيع من إبله.

يقول سالم محمد الشمطي الكتبي من الظفرة حين ظهرت السيارات وصارت وسيلة المواصلات والنقل بدل الإبل ذهب الناس إلى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيّب الله ثراه - يشكون ضعف السوق، فقال لهم: «اصبروا ولا تتركوا البوش واحتفظوا بها»، وبعد ذلك أمر - رحمه الله - بإقامة سباقات الهجن، وقدم لها الدعم السخي وازدهر سوق الإبل فأصبحت

تباع وتشترى بالملايين، وبدأ أصحاب السيارات بشراء الإبل للمشاركة في السباقات وللتجارة بها، وهذا بفضل حكمة المغفورله - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

ويتفق الرواة على أن للجمل حكاية يعرفها البدوي ومن عاش حياة البادية في الماضي فهناك تفاهم وتواصل بينه وبين الإنسان في سعيهما للعيش والبقاء في بيئة قاسية، وهذا يتطلب فرض السيطرة وترويض الجمال في صغرها، فيجري تعويد الناقة على أن تُحلَب، فالحليب عنصر أساسي في غذاء أبناء الصحراء، وغالباً ما يكون حلب الناقة في الصباح الباكر قبل أن يشرب وليدها لبنها، وهذا الحليب الطازج يقدم للضيوف والجيران ولأصحاب البيت وهذه من عادات البدو، ورغم التطور الحضاري والتقدم الذي شهدته البلاد، فإن الإبل لاقت اهتماماً كبيراً، وظلت صورة من صور التراث الشعبي العربي، وبقيت حية في الذاكرة.

الوسم.. علاج وصك ملكية

ونظراً لأهمية الإبل في حياة البدو فإن كل قبيلة جعلت وسماً خاصاً لإبل أبنائها، ويؤكد الرواة في مجلدات «ذاكرتهم تاريخنا» الصادرة عن الأرشيف والمكتبة الوطنية، أن للوسم فوائد منها: «أنه علامة يَعرِف بها الإنسان إبله، وهو طريقة تعالج الحيوان من الأمراض أيضاً التي لم يكن لها علاج في الماضي، وهناك أناس متخصصون بعلاج هذه الأمراض، وبما يناسب كل مرض، ولكن ومع التطور واستدامة الاهتمام بالإبل صارت لها مختبرات بيطرية ومراكز بحثية، وظل الوسم علامة فالإبل كل قبيلة وسم، وكل فرد لديه وسم يميز إبله عن إبل أفراد القبيلة، فالهدف من وسم الناقة أو البعير ألا يأخذهما شخص آخر، وأن نحافظ عليهما من الضياع، فالإبل بطبيعتها تختلط معاً، والمشكلة تحدث إذا دخلت مجموعة منها وليس عليها علامة، فمن الصعب أن يُعرف صاحبها؛ وأما في حال اختلاطها وعليها الوسم فيمكن الاحتفاظ بها حتى يأتي صاحبها ويتسلمها، ولو وسم كل فرد إبله بعلامة الآخرين نفسها أيضاً فإن الإبل سوف تضيع ويكون ذلك مفتاحاً للضغائن والشرور

الإبل الأغلى سعراً هي الأنقى سلالة

ويتفق مربو الإبل والمهتمون بها، والناس في الماضي والحاضر على أهمية نقاء سلالة الإبل؛ فمنها الأصيلة ومنها الضعيفة غير ذات الأهمية، وللأصيل منها مكانته العظيمة لدى البدوي، ولذا كان البدوي حريصاً على أن يلقّح ناقته الأصيلة من الذكر الأصيل، وقد ورد عن الشيخ زايد - رحمه الله تعالى - أنه قال: «البعير عندما تكون أمه جيدة، فإن والده جيد»، ويفوز في السباقات، والأصيل ينجب أصيلاً، ولا بد من اختيار الأساس الصحيح دائماً، وكان البدو يميزون بين الإبل بالنظر إليها، وكانوا يعرفون إذا كان البعير أو الناقة ينفع للسباق من صغره أم لا، لذا تكون تربيته والاهتمام به من البداية حتى يتعوّد السباق.

ويقول الراوي محمد سعيد الرقراقي المزروعي من منطقة الظفرة: إنه يهتم بالإبل، ويشاركها في السباقات وفي المزاينة، وأن أبناءه يهتمون بالحلال ويهتمون بالمزاينة والسباق، وهذا مما حرص عليه المهتمون بالإبل وتربيتها.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإبل التي تشارك في المزاينة تكون قد أُعدت لهذا الغرض، وانتشرت المزاينة في مهرجانات ثقافية وتراثية عديدة في دولة الإمارات العربية المتحدة مثل الظفرة، وبينونة... وغيرهما، وإلى جانب المزاينات وسباقات الإبل فهناك مسابقات المحالب وهي أول مسابقة في العالم للإبل الأكثر إنتاجاً للحليب، وتسمى مسابقة الحلاب، وقد اهتمت دولة الإمارات العربية المتحدة بها، واستقطبت المهرجانات التراثية هذه المسابقات، وصار الراغبون في هذه المسابقة يتنافسون على امتلاك الناقة الحلوب للفوز بالناموس.

الراوية فاطمة علي سلطان الهاملي من ليوا، التي عملت منذ صغرها في تربية الإبل، كانت أول امرأة شاركت في المزادات والسباقات وحصلت على جوائز، وهي تؤكد أن لديها خبرة في تربية الإبل وتضميرها وتهيئتها للسباق، وبناء على خبرتها فإنها تقول: إن تضمير الناقة يتطلب ألا نسقيها ماء كثيراً، ولا نطعمها كثيراً، وأن نخرجها في الصباح الباكر ساعتين أو ثلاث ساعات، ثم نعيدها لنطعمها قليلاً، ويجب أن نؤدبها إذا كانت صعبة، وخببها يكون ساعة ونصف الساعة صباحاً، ثم نعيدها ونربطها، وفي العصر يجب أن تخب أيضاً، وإلا لن تستطيع أن تسبق. ويوجد طعام خاص لإبل السباق هو السبوس مع الطحين والعسل والدهنة الطيبة، ونحن نسميها «اللقمة» نطعمها كل يوم لقمتين أو ثلاث لقم، ونسقيها حليب الإبل أو حليب البقر.

وإذا لم تشرب الحليب فلن تفوز في السباق؛ لأن الحليب يقوي عظمها. وقد علمني والدي - رحمه الله - ذلك حين كان عمري عشر سنوات.

وبالنسبة إلى سباقات الإبل فإن لها جذورها في دولة الإمارات العربية المتحدة، فالسباقات كانت جزءاً من منظومة حياتهم الاجتماعية، وارتبط تنظيمها بمناسبات الفرح، وبعض قصائد الشعر الشعبي توثق للسباقات وللإبل الفائزة.

الإبل رفيقة البدوي

يتحدث الراوي حمدان غانم حمدان الفلاحي من ليوا عن الأمراض التي تصيب الإبل وعلاجها قديماً؛ كتجبير الكسور... وغيرها، وينصح بأن يكون لدى من يشتري إبل المجاهيم أن ينتقيها بناء على شكلها، ثم نوعها وأصالتها، ويتحدث عن باقي المواصفات كالعمر وطول الرقبة، وكبر الخف والأعضاء، وطول البدن وطول السنام والوجه؛ فكل شيء في الناقة ينتقد حتى الخشم وطول الأذن حتى الذيل.

ويذكر الراوي أن لديه نحو 200 ناقة، منها 150 ناقة جيدة، وأنها تلفت أنظار المهتمين بالإبل، ويشير إلى أن الناقة تكتسب اسمها من شكلها، ومن معزّتها ومكانتها عند صاحبها، وهناك تسميات يطلقها الناس على إبلهم ■

إعلامي مقيم في الإمارات

المراجع:

1. (الإبل في الإمارات)، تأليف: فاطمة مسعود المنصوري، نادي تراث الإمارات. سلسلة (ذاكرتهم تاريخنا)، المجلدات الثلاثة الصادرة عن الأرشيف والمكتبة الوطنية.

2. (وين الطروش)، تأليف صبحة الخيلي، كتاب الاتحاد.

الإبل في الإمارات

بين تراثها التاريخي وحاضرها النّصي والحياتي

أحمد حسين حميدان

تتفق سائر الدراسات والأبحاث التي تناولت سيرة الإبل التي استوطنت جغرافيتنا بأن صحراء الجزيرة العربية هي موطنه الرئيسي، وهي أمه التي استمد منها لونه وورث عن جبالها سنامه المتموضع على ظهره وتحمّل العطش بجلد وصبر منقطع النظير مثلها، فكان ابنها الذي بانت عليه العديد من صفاتها، والإبل الذكر سمي بـ (الجمل) وسميت أنثاه بـ (الناقة)، أما البعير فيشمل الذكر والأنثى، وورد في قاموس «لسان العرب» أن الإبل ليس لها واحد في لفظ العدد[1]، ويطلق عليها اسم الْجِمال وهي نوعان، الأول منهما يسمى بالجمل العربي وهو وحيد السنام، والثاني الجمل ذو السنامين، وهذان النوعان متشابهان في معظم الصفات.

وتؤكد الكاتبة فاطمة المنصوري في الفصل الأول من كتابها «الإبل في الإمارات»[2]، على أن الإبل ذوات السنام الواحد وجدت في البداية في جنوب الجزيرة العربية في منطقة حضرموت وعاشت وتكاثرت على امتداد هذه المنطقة، وبما أن الإمارات من الناحية الجغرافية الطبيعية امتداد لها فقد كان للإبل وجود قديم لها، ويرجح العلماء أن وجود الإبل في بيئة الإمارات يعود إلى قبل 5000 سنة تقريباً، حيث عثروا على عظام وحفريات لها في منطقتي أم النار والهيلي.. وتمثل الإبل رمزاً رئيسياً من رموز التراث في دولة الإمارات العربية المتحدة على وجه الخصوص، والمنطقة العربية بشكل عام، ويرجع ذلك إلى عوامل عدة وأسباب لا تتعلق بالخدمات التي تقدمها الإبل وحسب، بل ثمة أسباب أخرى نذكر في مقدمتها على الصعيد النصي الإلهي ذكر الإبل بأسماء متعددة في القرآن الكريم[3]، فمرة وردت باسم الناقة كما في سور: «الأعراف» و«الشمس» و«القمر» و«الشعراء» و«الإسراء» و«هود» كما في قوله تعالى: (﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ - و﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ - و﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ - و﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ - و﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ﴾ - و﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ - و﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي..﴾) **وجاءت الإبل باسم العير ثلاث مرات في سورة «يوسف»، ووردت الإبل باسم الجمل مفرداً في سورة «الأعراف» التي قال الله فيها:** ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، **وجاءت الإبل بهذا الاسم ذاته**

في سورتي «الأنعام» و«الغاشية»: (﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ - و﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾) وهذه الآية الكريمة الأخيرة تستدعي الوقوف والتأمل لما تثير مقاصدها في الذهن من أسئلة حتى شاء الله سبحانه طلب التأمل من عباده التفكر في خَلق الإبل دون غيره من الحيوانات الأخرى للدلالة على ما فيها من إعجاز باعتبارها كانت الأقرب إلى حياتهم في جزيرة العرب إبّان الدعوة النبوية الكريمة، وكانت تؤدي لهم خدمات جليلة دون الانتباه إلى عظمة خلقها وتكوين قدراتها الداخلية غير الظاهرة التي بدأت تتكشف على مدار الأزمنة المتعاقبة. وعبر الدراسات والبحوث العلمية وخصوصاً الأكاديمية منها التي تسعى إلى اكتشاف ما فيها من أسرار كثيرة التي لم تكتشف كلها بعد؛ وإضافة إلى ماورد في القرآن الكريم من إشارة اهتمام لها، جاء في السيرة النبوية أن الإسلام اهتم بالإبل واعتبرها ثروة عظيمة، وجاء في الأثر النبوي أن الإبل عز لأهلها، وأوصى الرسول الكريم ﷺ برعايتها والمحافظة عليها بقوله: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في الجدب فأسرعوا عليها السير». وكان للنبي الكريم ناقة يقال لها «القصواء» وهي التي كانت مطيته خلال هجرته من مكة إلى المدينة المنورة؛ كل ذلك هو في مخزون الذاكرة الجمعية العربية وفي مخزون الذاكرة الإماراتية من ضمنها؛ لذلك كان منطلقها من خلاله إعطاء الإبل الحاضر في تراثها مكانة متميزة في الزمن المعاصر على نحوٍ متميز عن سواها في سائر الدول، وقبل أن نبين ذلك عبر إنجازات الإمارات في هذا الميدان فمن الضروري الإشارة إلى المكانة المهمة التي احتلتها الإبل بأسمائها المتعددة في متن النصوص الأدبية العربية والشعرية منها على وجه الخصوص باعتبار أن ذلك جزء أصيل من التراثين العربي والإماراتي أيضاً، وذلك منذ العصر الجاهلي زمن القصيدة العربية الأول التي انطلق من خلالها عديد الشعراء يتباهون بنوقهم، ويعتبر الشاعر امرؤ القيس من الأوائل في هذا المضمار الذي أشاد عبره بقوة ناقته من حيث بنيانها الجسدي قائلاً

ويـــوم عقـــرتُ للعـــــذارى مطيتـــي
فيـــا عَجَبـــاً من كـــورِها المُتَحَمَّـــلِ
فظـــلَّ العـــذارى يرتميـــنَ بلحمهـــا
وشحمٍ كهـــداب الدمقـــس المفتـــل
ويوم دخلـــتُ الخـــدرِ خدر عنيـــزة
فقالت لك الويـــلات إنـــكَ مُرجلـــي[4]

ومما أُشيع عن الشاعر طرفة بن العبد بأنه كثير التنقل وهو ما جعله كثير الصحبة للناقة التي وجد في سفره من خلالها الترويح عن نفسه فكانت مؤنسته في ترحاله إلى أمكنة متعددة في المناطق والأحياء العربية، وجاء في تعبيره عن ذلك في معلقته:

وإنّي لأمضـي الهـــمَّ عند احتضـــاره
بعوجـــــاءَ مرقـــالٍ تروح وتغتـــــدي

أمـــون كألـــــــواح الأران نصأتهـــا
علـــى لاحـــبٍ كأنه ظهـــر برجـــد
جماليـــة وجنـــــاء تـــــردي كأنهـــا
سفنجـــة تبـــرى لأزعـــر أربـــد[5]

والشاعرة الخنساء في رثاء أخيها صخر، شبهت نفسها بالناقة التي هي مثال في الصبر والتحمل والعطاء رغم كل ما يصيبها من صعب الحياة فيبقى عزمها حاضراً، وتصور نفسها هي كذلك رغم المأساة التي حلّت بها، فتقول:

ياصخـــــر ووارد مـــــاء قـــد تنـــاذره
أهـــــل المـــوارد ما في ورده عـــــار
مشى السَبَنتـي إلى هيجـــاء معضلـــة
لـــه سلاحـــــان أنيـــــابٌ وأظفـــــار
ومـــــا عجـــولٌ على بَوٍّ تُطيـــفُ بـــه
لهـــا حنينـــــان إعـــلان وأســـرار[6]

ويستعير الشاعر المتنبي الهمّة العالية للناقة ويصف بها

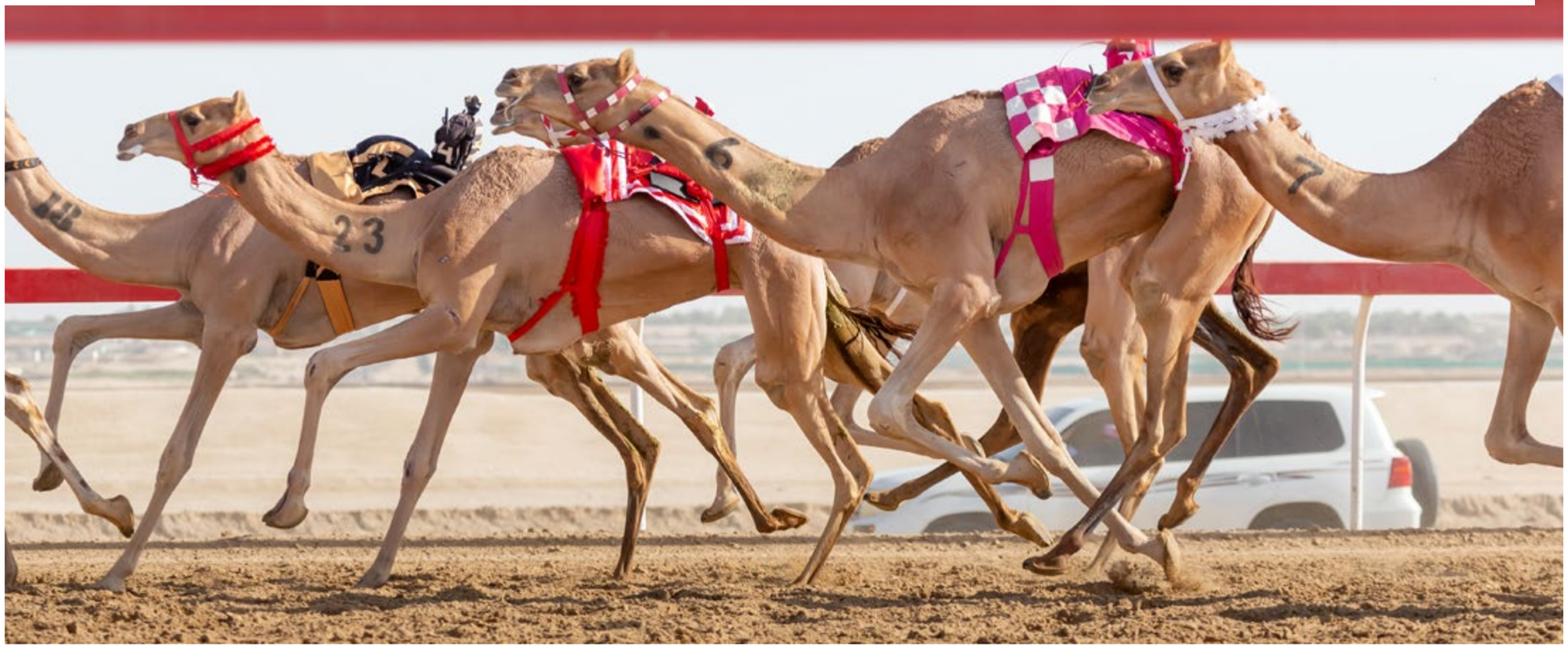

ناقته ليخبر من خلالها عدم ثباته في مكان جرياً وراء طموحه الكبير الذي لا حدود له وكأن عزيمة الناقة وصبرها وصمودها الذي لا يثنيه التعب قد تماهى جميعه مع اجتهاد المتنبي وعزمه لتحقيقه مراده دون فتور أو انتهاء كما يعبر في قوله:

أرأيت همة ناقتي في ناقة
نقلت يداً سرحاً وخفاً مجمرا
تركت دخان الرمث في أوطانها
طلبا لقوم يوقدون العنبرا
فأتتك دامية الأظل كأنما
حذيت قوائمها العقيق الحمرا[7]

ويرى الشاعر أبو العلاء المعري من عجائب الحياة في أن تهوى شيئاً ورغم قربه منك لا تستطيع بلوغه، ويشبه ذلك بالعيس أي الإبل البيضاء التي يقتلها العطش في الصحراء والماء فوق ظهرها لكنها لا تطوله، ويجسد ذلك قائلاً:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ
والماء فوق ظهورها محمول[8]

ضمن هذه الصورة للإبل التي اجتمعت فيها مجمل صفاته التي تشي بالصبر والقوة في طاقة التحمل، اهتمت دولة الإمارات العربية المتحدة بإبقائه حاضراً وجعلت وجوده ليس رهن التراث وحسب، بل بقي ضمن فضاء الحياة المعاصرة وبآفاقها

الراهنة الحديثة التي جعلتها لصالح هذا الحضور، فأنشأت في عام 1990 مركزاً بيطرياً للهجن في منطقة الحيلية بالقرب من مطار أبوظبي الدولي، على الطريق بين مدينة أبوظبي ومنطقة سويحان؛ وكان المركز في بادئ الأمر يتألف من قسمين: أحدهما لتوليد وتربية الجمال، والآخر للمختبرات البيطرية السريرية، وهما مزودان بكادر ميداني مسؤول عن علاج الإبل الموجودة لديه، وتقدم دوائر الزراعة والثروة الحيوانية

وبلدية أبوظبي الخدمات الصحية اللازمة من خلال مختبراتها وعياداتها المتنقلة، من أجل الخدمة اللازمة لسباقات الهجن، وبذلك يتم ضمان الرعاية الصحية للإبل داخل المراكز وخارجها أيضاً في ميادين السباق التي تعتبر دولة الإمارات السباقة في إنشائها والرائدة لها، فهي في التاريخ الحديث تعتبر أول دولة تقيم سباقات للهجن العربية الأصيلة، ورصدت لها جوائز مالية وعينية دفعت الناس إلى الاهتمام أكثر بالهجن. وتقام سباقات الهجن سنوياً في مختلف إمارات الدولة، بينما تقام المهرجانات الختامية السنوية لهذه السباقات في كل من مدينة أبوظبي في منطقتي (سويحان والوثبة) وفي مدينة دبي ورأس الخيمة، ويتم في نهايتها تقديم جوائز عينية كبرى تشجيعاً لمُلاّك ومضمري الهجن العربية الأصيلة. كما بدأت هذه الرياضة تحظى باهتمام كبير في عدد من الدول التي بدأت ترعى هذا النوع من الرياضة بإشراف اتحاد سباقات الهجن في دولة الإمارات العربية المتحدة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى اهتمت دولة الإمارات في سيرة الإبل الثقافية ورعت الإصدارات التي اهتمت بهذا الجانب، ويعتبر كتاب «الإبل في الإمارات، دراسة تاريخية توثيقية أدبية»[9]، الذي صدر عن نادي تراث الإمارات للكاتبة فاطمة مسعود المنصوري في مقدمة هذه الإصدارات، وفيه أضاءت الوجود الموغل في القدم للإبل بسنامه الواحد في الإمارات وذكرت نوعه الثاني، كما أشارت إلى تعدد أسمائه التي منها تُطلَق على الذكور مثل، الجمل والقعود والهرش.. ومنها يُطلق على الإناث مثل، الناقة والناقة الفاطر والبكرة.. وذكرت الكاتبة المنصوري في كتابها الألوان المتعددة للإبل أيضاً مستندة في ذلك على الثعالبي في كتابه «فقه اللغة»[10]، ووفق ذلك حددت الألوان الأصلية لها هي البياض والسواد والحمرة، وإذا لم تخالط حمرة البعير أي لون فهو «أحمر»، وإذا خالطها السواد فهو «أرمك»، وإذا خالط سواده البياض فهو «أورق»، وفي دولة الإمارات اللون الأبيض يسمى بـ «المغاتير»، واللون الأسود بـ «المجاهيم»، واللون «الأحمر» يعتبر أفضل ألوان الإبل..

من جملة هذه النشاطات التي تقوم فيها دولة الإمارات العربية المتحدة يتبين مقدار اهتمامها بالإبل التي تتشكل منها ملامح جذورها التراثية إضافة إلى ما تتمتع به من ثراء لثقافتها الرعوية الأصيلة التي تحرص الدولة على إبرازها والحفاظ عليها من الغياب والاندثار.. ■

كاتب وأديب من سوريا

هوامش وإحالات:

1. ابن منظور، لسان العرب «إبل» ج 13، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص 312.
2. الإبل في الإمارات دراسة تاريخية توثيقية أدبية، فاطمة مسعود المنصوري، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، ط 2، أبوظبي 2018م.
3. القرآن الكريم - السور الكريمة، «الأعراف»، و«الشمس»، و«القمر»، و«الشعراء»، و«الإسراء»، و«يوسف»، و«هود»..
4. ديوان امرؤ القيس، دار المعارف المصرية، القاهرة 2014م.
5. ديوان طرفة بن العبد، دار الكتب العلمية، بيروت 2002م.
6. ديوان الخنساء، حققته تماضر بنت عمرو السلمية، شرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، ط. 2، بيروت 2004م.
7. ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1983م.
8. شرح اللزوميات، أبو العلاء المعري، تحقيق عبد الله بن سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1992م.
9. الإبل في الإمارات دراسة تاريخية توثيقية أدبية، فاطمة مسعود المنصوري، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، ط 2، أبوظبي 2018م.
10. فقه اللغة: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، دار مكتبة الحياة، بيروت 1995م.

سباقات الهجن في ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات

ترسيخ لقيم الموروث الإماراتي وخلق لمحتوى إبداعي يعزز الفعاليات التراثية

أحمد عبد القادر الرفاعي

احتلت الإبل مكانة خاصة في المجتمع الإماراتي إذ إنها تشكل قلب التراث الشعبي في الإمارات وأساساً مهماً من أساسات الثقافة الشعبية والأدب الشعبي والاهتمام الرسمي على أرفع المستويات وبرهان ذلك قول المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيّب الله ثراه: «وفاء منّا للإبل بما أسدته لأسلافنا ولنا من بعدهم من خدمات وقت أن كنّا نعتمد عليها في حياتنا وتنقلاتنا ورحلاتنا فإننا نهتم بها ونكرمها». فالإبل كانت تشكل العمود الفقري لحياة البدوي في الصحراء، فعلى ظهورها يقطعون الفيافي، وعلى ألبانها ولحومها يتقوتون، ومن أوبارها يصنعون بيوتهم وأغطيتهم، كما كانت تعتبر رأس المال عندهم وهذا ما يؤكده المثل العربي الذي يقول: «اللقوح الربعية مال وطعام» من هذا كله لا نستغرب عندما نرى أدب أهل البادية وقد امتلأ بأخبار الإبل، فالرواة قد تناولوها في أشعارهم وأمثالهم وأقوالهم وحكاياتهم. وهكذا نجدها في كل عنصر من عناصر الأدب الشعبي الإماراتي، فموضوع الإبل قد استأثر بالكثير من الأمثال العربية، فالبدوي لم يترك شيئاً من الإبل أو مما يتصل بها أو بأخبارها إلا وتمثل به، فقد تمثل بأعمارها المختلفة، وبأعضاء جسمها، وطباعها، ولقاحها ونتاجها وحليبها وأمراضها وطرق علاجها وأصواتها وسيرها ورعيها وسقيها كما تمثل بالأدوات المتصلة بها، ومن الأمثال الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة قولهم: «الحوار ما تضره دوسة أمه» ويقصد بالمثل إن اللوم والتأنيب من الأب لابنه لا يضره بل ينفعه وكذلك بين الأصدقاء، كما يضرب مبالغة في حنان الأم، والحث على تربية الأبناء حتى لو اضطر الأب إلى معاقبتهم بدنياً. وفي هذا المعنى يقول الشاعر سالم بن سعيد الدهماني:

لحـــوار لـو يرقـص نكـس في مبركـه ومـــن وطيـــه أمـــه ما يصيبه سقامي

وأمثلة ذلك كثيرة وهذا يدل على مدى أهمية الإبل في حياة الإماراتيين قديماً وحديثاً كعنصر من عناصر التراث والتاريخ الإماراتي. ومكانة الإبل في الشعر هي امتداد لعصري الجاهلية والإسلام وما بعدهما، فالشاعر العربي منذ القدم ارتبط بالناقة ارتباطاً شديداً فقد كانت محط تركيز وعناية من قِبل فحول الشعر العربي ومنهم: امرؤ القيس والخنساء التي اتخذت من الناقة مناة لها للتعبير عن حزنها على فقدها لشقيقها صخر فرثته بقولها:

يـــا صخـــر وراد مـــاء قـــد تنـــاذره
أهـــل المـــوارد مـــا فـــي ورده عـــار
فمـــا عجـــول على بـوّ تطيـــف بـــه
لهـــا حنينـــان: إعـــلان وإســـرار

وكذلك تضمنت الألغاز الشعبية الكثير من الموضوعات المتعلقة بالإبل ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أربع سوابق وأربع لبق، وأربع بالخد يبارنه
الجواب (الناقة وأرجلها وضرعها وولدها).

وكذلك كان للإبل نصيب لا بأس به في الحكاية الشعبية في دولة الإمارات العربية المتحدة، ومعظم الحكايات الشعبية التي حكت عن الإبل ركزت على موضوع وفاء الإبل لأصحابها.

أما في مجال الشعر النبطي في دولة الإمارات العربية المتحدة فقد ظهرت الإبل بوصفها علامة تراثية ثقافية وشكّلت رمزاً أصيلاً تدل على معانٍ مختلفة، فهي ليست مجرد وسيلة نقل فحسب، وإنما هي علامة على الغنى، والقوة، والكرم، والمروءة، وهي علامة أصيلة ذات أبعاد ثقافية وتراثية في حياة أبناء دولة الإمارات العربية المتحدة، لذلك نجدها في الكثير من القصائد النبطية كقصيدة للشاعر سعيد بن عتيج الهاملي معنونة بـ «كوس مهبه بدي» يقول فيها:

عـــــن وصلهـــم لا بـــدّي
فـــي اسعـــود امـــن الليـــال
علـــى ابكـــرات ضـــدي
ومـــن الربـــخ ذبّـــال
نيـــط الغـــوارب مـــدّي
حـــول مهـــب اهـــزال

ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري

في قصيدة بعنوان «سمحة» حيث فقدت ناقة الشاعرة وليدها بالقرب من البيت فأخذها الحنين إليه، الأمر الذي أثار شجن الشاعرة فأصابها الحزن لحزن ناقتها سمحة فقالت في ديوانها المنشور عنها:

آه يـــا قلـــب تولـــــع بالونيـــــن
من ونينـــه سهـــر النـــاس الرقـــود
اسهرتنـي لـــــي تهريـــع بالحنيـــن
تلتعـــي بالصـــوت وتشْـــم اليلـــود
مرحبـــا باللـــي تـــدوّر لـــي جنيـــن
تلتعـــي شـــروا تقصّيـــف الرعـــود
بينـــت عـــوق مغـــبّا مـــن سنيـــن
بيّنت عوقـــي عقـــب مانـــا يحـــود
لمـس قلبـي مثـل ضرب الخايطيـــن
لـــي ميابرهـــم قويـــات الحـــدود
دمـــع عينـــي يـــروي الـــي حايميـــن
لـــي سقـــوا به يوم كضّـــات الـــورود
طالبنّـــك يا إلهـــــي يا عويـــن
انت تعطينـــا ومن فضـــلك نجـــود

وحفاظاً على الهجن باعتبارها جزءاً مهماً من التراث الأصيل وأحد روافد هوية دولة الإمارات التراثية، اهتم المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بإقامة سباقات الهجن وقدّم لها الدعم السخي هو وإخوانه حكام الإمارات، حتى أصبحت دولة الإمارات من الدول الرائدة على مستوى المنطقة في تنظيم السباقات السنوية المهمة لرياضة السباقات، فأسست الإمارات من أجل هذه الرياضة اتحاد سباقات الهجن عام 1992، لتنظيم هذه الرياضة على مستوى الدولة وأصبح الاتحاد يرعى السباقات الرئيسية المميزة كسباق ختامي الوثبة، وسباق الحصن، وجائزة الشيخ محمد بن زايد وغيرها، كما جاء تأسيس نادي دبي لسباقات الهجن عام 2008، وتأسيس نادي أبوظبي لسباقات الهجن عام 2015، ليضيف إلى رصيد العمل المؤسسي للحفاظ على رياضة سباقات الهجن بُعداً جديداً مميزاً، وأصبح هذا النادي يشرف على سباق المرموم، كما أصبح لهذه الرياضة المضامير المنظمة والمعدة إعداداً جيداً لهذا الغرض في معظم إمارات الدولة، وتعد سباقات الهجن رياضة تراثية أصيلة ورثها الخليجيون عن آبائهم وأجدادهم تحولت بمرور السنين من

منافسة بسيطة إلى رياضة قوية، واشتهرت دولة الإمارات العربية المتحدة بتنظيم سباقات الهجن منذ فترة طويلة، وقد نالت شهرة كبيرة في هذا المجال سواء على المستوى المحلي أو الخليجي أو العربي، بل على المستوى العالمي، وقد ازدان الشعر النبطي في الإمارات بقصائد وافرة عن الهجن حيث دبّج الشعراء جلّ قصائدهم للتهاني والفرح بفوز الهجن بجوائز سباقاتها العديدة التي تنطلق في شهر نوفمبر من كل عام، وقد حظيت الهجن بتغني الشعراء الإماراتيين بها فأطربوا سامعيهم وقرّائهم بأعذب القوافي التي قيلت في النوق والهجن المشاركة في السباقات وهناك العديد من الألحان الشعرية التي تمثل أساليب الترديد والتطريب والأهازيج والغناء التي غالباً ما تكون مادتها القصائد والأشعار النبطية، ومن أمثلة ذلك قول الشاعر أحمد بن دري الفلاحي واصفاً الفرحة والسرور في سباقات الهجن وما يقدمه حكام دولة الإمارات من دعم وسخاء للحفاظ على هذا التراث المهم:

السبـــق له فرحـــة وبهجـــة ونامـــوس
واللي حظـــاه الحـــــظ نال المـــرادي
يكسب جوايـــــز قيّمـــــة مالها قيـــاس
مـــــن فـــضل حكّـــــام كـــرام الأيادي

ومن أمثلة ذلك أيضاً قول الشاعرة موزة بنت جمعة المهيري تصف فيه سباقاً مشهوراً أقيم في العين عام 1955 وقد فازت فيه ناقة المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ هزاع بن سلطان آل نهيان وتسمى «منحاف»، فقالت الشاعرة قصيدة تصف فيها السباق وناقة الشيخ هزاع:

تيـــامعـــت لملـــــوك الأشـــراف
وتيامعـــت مـــن كـــل قبيلـــــه
يوم خطّفـــت م السيـــح الانصـــاف
لان السعـــه عندهـــــا طويلـــه
قامـــــت تغرْيـــف بالتغريـــاف
وتفاختـــــت عنهـــا الدبيلـــه
كـــــم حايـــل مطعومـــــه آلاف
فـــي السيـــح سقّتهـــا مليلـــه
ركيبهـــــا لا اصْلـــف ولا راف
ومن الوطـــن عنـــده دليلـــه
وركيبهـــا مـــن الكيـــف مـــا شـــاف
ولا بدتـــــه منهـــا عضيلـــه
ناقـــة إمـــام زيْـــن مـــن خـــاف
يحرزهـــــا اللـــــه بالفضيلـــه

حـــظ بو خليفـــة م العـــرب طـــاف
عـــادات والعـــادات جميلـــــه
يـــا مـــن يبشّـــر زيـــــن الأزلاف
الغـــرّ لـــي ينســـــع يديلـــه
يـــا مرحبـــا يا حـــي «منحـــــاف»
وإن صبّحـــت مـــا هُـــب مليلـــه
يـــا شـــفّ حر شـــرّف وشـــاف
وإن صبّـــحت تمطـــــي اليديلـــه
خطامهـــا للقـــــود مســـــعاف
عـــــنّ مـــا تيهـــا العميلـــــه
«بو فاخـــرة» يا زيـــن مـــن خـــاف
ذخـــرى «ف» لوْقـــوت الطويلـــه
أضفـــوا علـــى الركّيـــب بلحـــــاف
شـــالات وبشـــــوت جميلـــــه

ومن أمثلة ذلك قصيدة للشاعر علي بن مصبح بالقيزي بمناسبة فوز ناقة تسمى «بنت الصعب» لشخص يدعى «ابن أحمد» في سباق للهجن أقيم في أواخر الأربعينيات في جميرا في دبي، وقد وردت القصيدة على لسان الوالد خميس بن زعل الرميثي رحمه الله:

يـــنك يهـــدّن مثـــل هـــدّ الشواهيـــن
يزّاغمـــــن يزّارقـــن شبـــــه لحـــرار
يتمايلـــن يســـرى ومـــرّ علـــى يميـــن
مثل النعـــام اللي من الصبـــح نشّـــــار

إلى أن يقول:

«بنت الصعـــب» مقصـــوده بالتماثيـــل
خصّيتهـــا واشخصتهـــا بين الأشعـــار
فيهـــــا دلايـــل للسبـــق يا مضانيـــن
شوفـــوا وبـــرها واستعيـــدوا بالانظـــار

ومما تنقله الذاكرة التاريخية عن سباقات الهجن قديماً، بأن صاحب الجمل أو الناقة كان هو الذي يركب جمله أو ناقته بنفسه ويتسابق به أو بها، إلى أن تطور الحال وأصبح أهل الركاب يبحثون عن ركّيب خفيف كي لا يثقل على الجمل ويؤثر على سرعته، فتسارع الناس في تلك الفترة في البحث عن الركّيب الصغير، ومما تناقلته الرواية الشفهية حول هذا الموضوع، رواية المرحوم مصبح بن الكندي وذلك عندما تسارع الناس في البحث عن ركّيب صغير، وكان أحدهم السيد عتيج بالعطشان الهاملي حيث وجد ركّيباً، فقلت بعض الأبيات الشعرية تعليقاً على ذلك وممازحاً صديقي عتيج فقلت:

يـــا ربعنـــا هـــذا الزمـــان مصيبـــه
لـــي ربعـــنا مـــا حصلـــوا ركّيبـــه
وعتيـــج ضـــوّى مـــن بديـــه شيبـــه
بيـــــن اليـــوا والطـــف ويخاجيبـــه
ونهـــار ركضـــه ويـــش بســـوي بـــه

وقد أهدى الشاعر خليفة بن محمد بن مترف الجابري قصيدة بعنوان «قم يا قلم واكتب تهاني» من ديوانه «النبع العميق» للمضمر خلفان علي الرفيسا بمناسبة فوز الساعي في ميدان الوثبة في جائزة المرحوم الشيخ زايد الكبرى وهي خنجر ذهب قائلاً:

قم يا قلم واكتب تهاني لمضمّرين الهيـــن
كرام عـــزاز وضيفهـــم مـــا يملّونـــه
يثنون بالترحيـــب م الخاطر وهم فرحـــين
عســـاه يســـقي حيّهـــم لي يسكنونـــه
أحشام تورثوه الكـرم والطيـب من يديّـن
وســـاروا على مجرى الاهل ما ظْن ينْسونـه
سلامي على خير النشامى وعلم الطيبين ايْبين
ايْبين في وقت اللقا يوم اللقا حق مضمونه
يا بوعلي مبروك بسبق المسمى على الشاهيـن
شـاهين بيتـــه وبســـم الساعي ينادونـه
سعـاهن وجاوزهن بمرباع منه تشيب العين
اوقّـع ورا خـــط النهايـــة وجمهوره يحيونـه
حيوه شيخان تربّوا على نامـوس فوز الهين
نعمين بـو هـــزاع راعـــي الحفل من بونـه
وحيـــاه مزيون وهلّت دموع الفرح م العيـن
عيـــون مثلّاتٍ من ورا الشيـــل يربونـــه
وقادوه ع الثيّـــل ويا محلا نظرة الشاهين
ويـــا محـلا شـــدّه على شكلـــه ولونـــه
ونادوا المضمّر واستلم الـجايزه في الحين
خنجر ذهب مصقولـــة الحـــد مسنونـه
هذي عوايد راعي السبق ما يخلّي له مطالب دين
يلحق طليبه لو غدا مبعدٍ ما يردّ من دونـه
والختـم نطلب السمحان كانّا بالمثل مخطين
ندوّر السمحان من هل السمحان والعونـه

ويقول الشاعر محمد بن ثاني بن زنيد في قصيدة بعنوان «الطيارة» كتبها بمناسبة فوز ناقة محمد بن أحمد بن دلموك:

البارحـــــة يوم اعتكـــار العساعـــيس
والناس غرقـــى في كرى النوم واذهـــال
من زود فكـــري يا مـــلا والهواجيـــــس
طرفـــي ابلذّات الكرى بـــات مـــا ذال
مشدوه قلبـــي من جـــدا صفوة العيس
هجنٍ امطاهـــن من شحمهـــن لهن طـــال
ساهـــرت حتى بان للصبـــح تنفيـــــس
نوره وقضّـــت جملـــة الخلـــق عيّـــال
جـــدّوا مدى غربالهـــن في التقاييـــس
دربٍ ابيّـــح بالسريـــرات لغتـــــال
سرنـــا وفينـــا من جداهـن وساويـــس
كل من جلسنـــا شامـــل القلـب ولـــوال
خذنـــا انتهـــازر وانتـــماري لها نفـــيس
ساعـــه وجـــد بانن على خـــط لزوال
والفـــن يجولـــن كالنعـــام المطاسيس
لي صابهـــن رعبٍ من الرمـــى واجفـــال
يتهاوين شبـــه الذيـــاب العماليـــس
لي ضجضجـــن وانـــون على زود زرفال

وهكذا نجد أن ذاكرة الشعر النبطي في الإمارات قد حملت في صفحاتها سباقات الهجن بوصف الكثير من تفاصيلها ومناسباتها وميادينها وجولاتها ونتائجها وجوائزها والفائزين بها بصور إبداعية واضحة، وقد كان ذلك بسبب الاهتمام المنقطع النظير الذي حظيت به هذه السباقات من الدولة والشعب على حد سواء، وقد ساعد ذلك على ترسيخ الموروث الإماراتي عبر توثيق الممارسات التراثية إبداعياً وعلى خلق محتوى تراثي يعزز الأجندة والفعاليات التراثية وعلى إبراز التراث الشعبي وما يتميز به من خصوصية وطنية أصيلة خاصة في المكانة التي تحتلها الإبل في نفوس الإماراتيين ■

كاتب وباحث من سوريا

المصادر والمراجع:

1. الإبل في الإمارات، دراسة تاريخية، تراثية، أدبية، فاطمة مسعود نايع المنصوري، نادي تراث الإمارات، مركز زايد للدراسات والبحوث، أبوظبي، الطبعة الثانية 2018.
2 . ديوان موزة بنت جمعة المهيري، تحقيق: د. فايز القيسي، أ. شيخة الجابري، أ. عذيجة الخيلي، أ. فاطمة الظاهري، مركز زايد للتراث والتاريخ، الطبعة الأولى 2004.
3 . سعيد بن عتيج الهاملي، فروسية الحب والشعر، مؤيد الشيباني، مؤسسة سلطان بن عويس الثقافية، ط 1، 2020.
4. النبع العميق، ديوان الشاعر خليفة بن محمد بن مترف الجابري، إعداد وإشراف: د. راشد أحمد المزروعي، نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى، أبوظبي 2008.
5 . ديوان بن زنيد، محمد بن ثاني بن زنيد، إشراف: الكندي مصبح الكندي، نادي تراث الإمارات، الطبعة الأولى 2003.

الإبل... إرث متجدد واستدامة للمستقبل

مريم سلطان المزروعي

خلق الله سبحانه وتعالى الإبل وأمرنا أن نُمعن النظر إليها لنتفكر بعظيم قدرته الجليلة، قال تعالى: (أفلا ينظُرُونَ إلى الإبِلِ كيفَ خُلِقَتْ)[1]، وهذه دعوة من الله سبحانه وتعالى للتأمل في خلق الإبل لما فيها من أسرار عجيبة، تنبئ عن عظمة الخالق - عزّ وجل - وفائق قدرته، ويذكرنا بمنافعها من ركب لظهورها وأكل للحومها والتدفئة بجلودها وأوبارها، ومن شرب لألبانها، والتداوي بما ينتج عنها من موادّ، ولبن الإبل أعجوبة من الأعاجيب التي خصّها الله سبحانه وتعالى بها[2]، ولعل أجمل أبيات فيها عندما وصف الشاعر عايد رغيان الشراري الذلول قائلاً:

يـــا راكبـاً مـن فـوق بنـت العمانـــي
حول الربـــاع وتو ماشقّـــت النـــاب
فيهـــا من العيرات وقـــم الثمانـــي
محفوظـــة التاريـــخ ميلاد واضـــراب

بنت القعـود اللي يفك القراني مرباه شط النيل مرتع ومشراب

نالت الإبل عند العرب مكانة مرموقة في نفوسهم، وكانت قوتهم تقاس بعدد الإبل وما يملكونه منها، وقد ارتبطت الإبل بالصحراء التي علّمت الإنسان كيف يعيش فيها بحكمة واستدامة، فكان البدوي يعيش مكافحاً مع إبله، فهو يعتمد عليها اعتماداً كلياً لما تتميز به صبر وجلد وتحمّلها وهي تجوب الصحراء الجوع والعطش وبقدرتها وقوة حاستها للانجذاب نحو الماء، وتتبع أثره، فالناقة صديقة البدوي في السفر والحل والترحال، ورفيقته في مواسم الحج إلى الديار المقدسة، فأصبح بينهما انسجام وتناغم مع الطبيعة، كما وقد لعبت دوراً اقتصادياً مهماً في حياة البدوي لما لها من قيمة وفوائد متعددة الجوانب، وهي قديمة قدم التاريخ وهذا ما تم اكتشافه في حفريات أم النار أي إنها عُرفت منذ ستة آلاف سنة. ووجدت في الإمارات سلالات عريقة من الإبل العربية الأصيلة، امتازت بجمال الشكل والمنظر والقدرة على الجريّ والرشاقة إضافة إلى تحمّلها للظروف البيئية، ومن أشهر هذه السلالات: ظبيان، وصوغان، والوري، ومصيحان، وهملول، والأصيفر،.. وغيرها الكثير التي لا تزال موجودة إلى اليوم، وقد حظيت هذه السلالات الأصيلة بمكانة عظيمة ارتبطت بميادين سباقات الهجن على مدار العام، لذلك تم رصد البرامج لتحسين إكثارها واستدامتها وتطوير سلالتها، فالاستدامة في جوهرها لا تقتصر على جانب دون جانب آخر، بل تمتد لتشمل الحفاظ عليها بحكم أنها مجال استثماري واعد للمستقبل، لذلك أقُيمت سباقات الهجن التي لها طعم ونكهة خاصة وخصوصية متفردة، وهذه السباقات يتم التنسيق والاستعداد لها قبل موعدها بفترة كبيرة تستغرق شهوراً. وللذاكرة المروية حديث وشجون، يقول الوالد سلطان سعيد المزروعي: (أذكر أول سباق رسمي أقيم في الدولة كان في فترات الخمسينيات، وبعدها بدأت السباقات تتتابع مع استلام المغفور له - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - مقاليد الحكم، وكانت الجوائز في الماضي بسيطة، لكنها اليوم أصبحت متنوعة تقدر بالملايين، وأصبح للناقة مكانة وقيمة عالية، وتغيرت ميادين السباقات فهي اليوم مفخرة وعلى درجة عالية من النظافة والهندسة وشاشات العرض، ولا يمكن أن أنسى عندما كان يقول الشيخ زايد لنا: «اصبروا ولا تتركوا البوش، واحتفظوا بها وحافظوا عليها»، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حكمة هذا الرجل القائد). وللنساء رواية، تقول السيدة فاطمة علي بالركيز الهاملي، أول مالكة إبل في الإمارات وكذلك مروضة لها: «الإبل بالنسبة لي هي رمز تراثي إماراتي خالص، وأيقونة البيئة الصحراوية، فقد ارتبطت بتاريخ هذه الأرض منذ القدم، حصلنا منها على الحليب الذي يغنينا عن الماء لفترات طويلة، ولحمها كنا نقتات منه، وهي وسيلة لنقلنا من مكان إلى آخر، وسباقات الهجن أقيمت مع الأعياد والأفراح والمناسبات، وعشقتُ الإبل منذ طفولتي فهي الصديقة المؤنسة والقريبة لقلبي، كما أنني عام 2011 فزتُ في مزاد الوثبة وانتزعت المركز الأول وبجدارة، وبعدها فزت في سباقات مدينة زايد وسويحان من خلال بكرتي «الطيارة»، و«زعفرانة»، يقول الشاعر أحمد علي الكندي - رحمه الله -:

أنا لـي مـــن نويـــت أقصـــد مـــزاره
نصيتـــه فـــوق موميـــة الحبالـــي
علـــى حمـــرا مذارعـــها دقيقـــة
خفيفـــة لحم زاغبـــها الحيالـــي[2]

وعند لقائي بالسيد بخيت بن حريجر المزروعي قال: «أنا امتلك إبل مجاهيم، وهي من السلالات النادرة، فالإبل رفيقتنا منذ قديم الزمان ومتوارثة من أجدادنا، وجاءت علينا فترة قام العرب ببيع الإبل التي يمتلكونها بسبب انتشار السيارات، ولأهميتها اهتم المغفور له - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بها وقدم الدعم الكامل لها ولملاكها، وأمر بصرف رواتب عن كل رأس 300 درهم، فزرع ملاكها المزارع وحفروا الآبار، كما وتم صرف راتب للعامل 800 درهم، وكنا نستلم هذه الرواتب من ديوان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بعد أن أسسوا لجنة من مهام عملها أن تذهب إلى المزارع لتحسب عدد «الحلال» سنوياً، كما أُسست العيادات البيطرية، وكان الأطباء يزورون هذه المزارع لعلاج أي ناقة مريضة، ولولا هذا الدعم الذي كنا نستلمه، لما بقيت الإبل إلى اليوم، لكن الشيخ زايد حثنا على المحافظة عليها، ونحن كنا بحاجة إلى المال بسبب الفقر، فوقف معنا وساعدنا ولله الحمد نقلنا هذا الحب إلى أبنائنا، وستبقى هذه الناقة صامدة، لما لها من أهمية على المستويين التاريخي والتراثي، ويقول الشاعر محمد بن حاضر بن خزام المنصوري المشهور باسم «غصّاب» عندما وصف ناقته:

يا راكب اللي صدرها مثل سور البـاب
وسيعة زغـون مثلما فرخة البابـــي
جسـام مناكبها بها الشيب فيها شاب
زواها الحيال وموكر الكـــور قد شابي

لذلك سعى المغفور له الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بكل جهده على تطوير سلالات الهجن العربية الأصيلة، ومنحها عناية خاصة، كما أمر بإنشاء مختبر علمي متطور مزوّد بأحدث التقنيات والوسائل العلمية في الهندسة الوراثية في مدينة العين، وعقد المهرجانات والفعاليات التي يكون فيها الحضور واضحاً للإبل فالغرض هو المحافظة على تراث الإمارات والسعي للتقدم نحو تحقيق مبادىء الاستدامة، وإبراز قيمتها لضمان استدامتها من خلال عقد المبادرات والبرامج المتنوعة وربطها بالهوية الوطنية، وزرعها وصونها

ونقلها إلى الأجيال المقبلة. وأُقيمت مسابقات المزاين وأنشئت المراكز البحثية والدراسات التي اهتمت بالإبل وسلالاتها لما لها من منافع اقتصادية مرجوة عملاً بوصية المغفور له الشيخ زايد في مقولته: «وفاء منا للإبل بما أسدته لأسلافنا ولنا من بعدهم من خدمات وقت أن كنا نعتمد عليها في حياتنا وتنقلاتنا ورحلاتنا فإننا نهتم بها ونكرمها». لقد تكاتفت الجهود ما بين دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية وسلطنة عُمان في إدراج «حداء الإبل» كتراث ثقافي في «اليونسكو» باعتباره موروثاً شعبياً يستخدم بين الإبل وملاكها عبر لغة خاصة. واليوم نلاحظ بأن استضافة دولة الإمارات العربية المتحدة لـ(COP 28)، فرصة عالمية يطّلع فيها العالم على مبادرات الإمارات في حماية الطبيعة والبصمات الكبيرة، وقد عبّرت مقولة المغفور له الشيخ زايد بن سلطان عن ذلك: «نأخذ من بيئتنا قدر حاجتنا، ونترك فيها ما تجد فيه الأجيال القادمة مصدراً للخير ونبعاً للعطاء» ■

باحثة من الإمارات

الهوامش:

1. سورة الغاشية، الآية 17.
2. الإبل.. ذاكرة الصحراء، محمد رجب السامرائي ومحمود إسماعيل بدر، نادي تراث الإمارات، 2001، ص 19 - 35.

المصادر والمراجع:

3. «فاطمة الهاملي، سفيرة الأصالة، محمد الهاملي، أبوظبي، دار نبطي، 2018، طبعة أولى. (بتصرف).
4. الإبل في الإمارات، دراسة تاريخية، تراثية، أدبية، فاطمة مسعود نايع المنصوري، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، 2018، الطبعة الثانية. (بتصرف).

الإبل

ركيزة مستدامة لفكرة وهوية

محمد نجيب قدورة

مفاتيح

كان الشاعر رائعاً وهو يؤصل الفكرة أن البداوة لها قواعدها وأصولها الراسخة في القيم العربية والسلوك الحميد، أجل إنه الشاعر علي بن بخيت العميمي القائل[1]:

ياعد أنـــا بانشـــدك عن بدوٍ سكـــون
أصـــل الشهامـــه والكـــرم والعوايـــد

قالت نفسي في غبطة الفرح والسعادة: لقد أمسكت مفاتيح بحثك، فالبادية ومتعلقاتها من قفار وصحار وبرار كلها بحاجة إلى الإبل.. يا عزيز الروح هذا اسم جنس من مخلوقات الله هو آية من آيات النظر والتأمل. قلت: لاحظي يا نفسي القراءة في الآية الكريمة (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)[2]، أولاً نحن أمام استفهام عجيب مقترن بما هو أعجب كرفع السماوات بلا عمد ونصب الجبال وتسطيح الأرض.. ثم نحن في أسلوب استنكاري ممن يغفل عن رؤية المخلوق الصحراوي المسخر لهم في الحمل والصبر والخير.. ثم التشكيل في الرسم الهندسي وطرائق حياته للنفع العام التي لم تأتِ مصادفة، الإبل تقضم أوراق الأشجار المرتفعة فتمشطها وتلتهم النباتات المنخفضة فتكنسها.. أجل أجل كل شيء في الإبل مثار إعجاز إلهي، في ناقة صالح ومدار تشريع سماوي بذكر الإبل (البحيرة والسائبة) وتسمية يوم النحر كشعيرة من شعائر الحج.

فائدة لغوية

الإبل اسم جمع ليس له مفرد والعرب فصَّلوا في هذا فقالوا: الإبل عطايا الرحمن وحمر النعم. الجمل: هو الذكر الكبير ذو الهيبة والجمال. الناقة: الأنثى من الإبل وهي الحلوب المطيعة المخاض. وإذا حملت الإبل أثقالاً سميت الفحول بعيراً، وقد تشبه الإبل بالسحاب للخير.. ومن ألقاب الإبل عند العرب سفينة الصحراء، بل إن في الإبل صفة المزايا الرائعة في الصبر فهي لا تتعرق، وتخزن الماء في دمها للطوارئ. والإبل عند العرب أوعى من يعرف مواطن الماء بل من الغرابة أن العشار توصيف للناقة من شهرها العاشر في الحمل.. ولعل ذكرها في علامات قيام الساعة دلالة كبرى على رمزية الإبل في قوله تعالى (وإذا العشار عطلت)[3]، والتعطيل التوقف عن الإنجاب من شدّة الهول. قالت نفسي: أعرف أن الإبل أنفس الأموال عند العرب، بل هي المال ذاته كمقياس للثروة عند العرب كقول المتنبي:

لا خيـــل عنـــديَ أهديهـــا ولا مـــال
فليسعد النطـق إن لم تسعـد الحـــال

قد تبدأ حكايتنا عن نوق كثيرة وجمال مثيرة لكن مسمى الإبل هو اسم أكثر المؤلفات عن هذا المخلوق المعجز العجيب في الذاكرة العربية الخالدة والنقوش البائدة.. من مثل: (كتاب الإبل للأصمعي)، و(الإبل ودورها في الموروث الشعبي الليبي)، و(الإبل في الإمارات لفاطمة المنصوري). قلت: تأكدت أن معظم الأسفار كانت على ظهور الإبل وأن لقب (الركاب) جاء من مهنة ومهارة، بل إن (المطايا) دخلت في القاموس اللغوي في قول الشاعر جرير مفاخراً:

ألستـــم خيـــر من ركـــب المطايـا
وأنـــدى العالميـــن بطـــون راح

سعد المطايا وحامي الإبل

صحيح أن جمالنا لم تجرّ عربة في المدن لكن السواقي والمعاصر للجمال كغيرها من الحيوانات فتدير الرحى، والإبل يا عزيزتي محركة اقتصاد وميسرة علاقات ومراسيل في قطع الفيافي والقفار والمفازات كعادة البدو على مر التاريخ، وكسلوك مستحدث من المستكشفين من أمثال (مبارك بن لندن) في رحلته عبر الربع الخالي، وحيث رجال الصحراء مثل إبلهم (فمن بدا جفا) في تتبع مساقط الغيث والمراعي وهذه الرحلات (الإبلية) متبعة في كل صحراوات العالم سواء بجمال من ذوات السنام الواحد أو السنامين. أجل يا نفسي في الظعن والنجعة مطايا العرب لا يعجزها السفر ولا العيش في بلد أقفر.. وكأن البدو عندما ينشدون لهذا الكائن الرائع يريدون تحسين صورة الصحراء في عيون الجمال لتراها حديقة فاتنة متسعة لمسراح المراعي والدروب. قالت نفسي: أين أنت يا (أصمعي)؟ أنا أعرف أن أحب الحيوانات إليك الإبل، أنت فنان

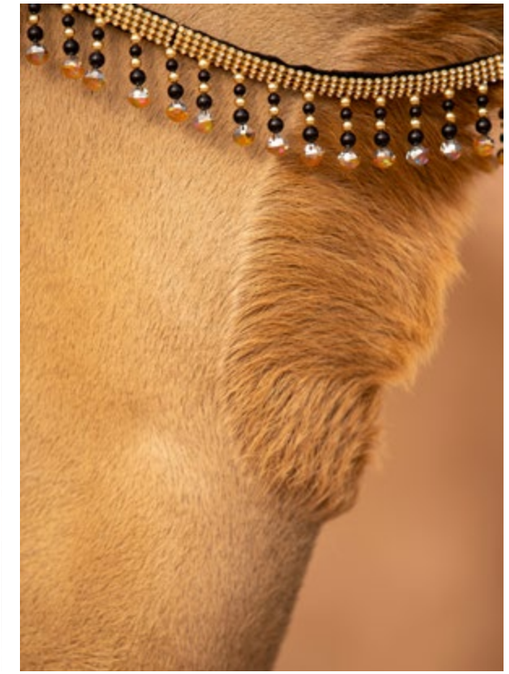

في مقارنة السلوك واستنتاج الطباع.. لعلك تشبه (الجاحظ) في جريه وراء الدهشة في تحسّس الأفكار والملامح، بل إنك يا صاحبي لتعرف أن العرب (دوزنوا) نغماتهم على تراقيص سير الإبل. قالت نفسي: أرشيفك محفوظ قل ما يحلو لك، قلت: يا لروعتك في وعي التغرودة وإنشادها في صباح ربيعي بديع يستأنس به حامي الإبل في سعد المطايا.

وقفة تأملية

مما لا شك فيه إذا ذكرت الصحراء قالوا: الإبل رمزها والبدويّ راعيها، ولكل مكان خامات يعتمد عليها في سدّ احتياجات الحياة الأساسية من مأكل ومشرب وملبس وزينة، وفي الإمارات منذ الأزل كان للإبل مكانة متميزة وعلاقة حميمة يؤكدها بيت شعر عربي قديم يتحدث عن طبع الإنسان في أنسنة الكائن الحي.

وأحبهـــــــــــا وتحبنـــــــــي
ويحـــــــــبّ ناقتهـــا بعيـــــري

ومثلما تكيّف الإنسان مع الإبل فقد تكيّفت الإبل مع الطبيعة المالحة والمرة فرسخ في الضمير العربي أن الإبل رمز خير مستدام، بل الروعة بالاستئناس أنها تنقاد للطفل الضعيف في المسير والإناخة، والإنشاد بجملة (يا حادي العيس) والعيس اسم من أسماء الإبل في ليل السرى.

كالعيـــــس في البيـــداء يقتلها الظمـــا
والمـــــاء فوق ظهورهـــــا محمـــــول

والإبل عندنا قد تكون جمالاً ونوقاً وبعيراً وهجناً وركاباً وظعائن ناهيك عن أوصاف للناقة فيقال: أم الخبائب وأم حوار ومن أشهر النوق العربية (القصواء) و(ناقة صالح) و(ناقة البسوس) ومن أسماء أبنائها (القعود الابن البكر) (الحق صغيرها).

وأكبر منه (الجذع أو الحوار) فهو المولود إلى فطامه ليأخذ اسم (الفصيل) ولأن اسم الناقة محبب فقد أطلق لفظ الناقة على أماكن لها سيرة مكانية تثبت ارتباط العرب بالناقة.

سلوكيات متفردة

والملاحظ أن اسم النوق عند أهل الهجن مهم أكثر من سواه والوسم علامة مسجلة للمالك والاسم لا يعار كبنات ظبيون - والهماليل ويكون من هذا المنطلق أهمية في المزاينات التي تستعد لها الأصايل كما هي السلوكات حتى في حالات موت الرضيع (وهي عادة عربية متوارثة منذ الجاهلية بحشو ما يشبه الجمل ويسمى (البوّ) لأن الناقة تشم رائحة وليدها فلا تدرّ حليباً إلا في وجود رضيعها أو ما يدل عليه. وبالطبع مع عملية الحلب يشرب الضيف قبل صاحب البيت، حتى وإن كان راعي الحلال في المراعي فهو يمارس الإكرام خاصة إذا كانت نوقه (خزمية) وهي نوع من الإبل تتميز بوفرة الحليب واللحم والوبر، ومن أهميتها وقيمتها أنها تدخل ضمن (مزاينة) الإبل ولا تصلح للركض وعند العرب هي الإبل (المجاهيم)، وهنا لا نتحدث عن (عقيد الهجن وطروشه في المراسيل من الجمال حاملة الأخبار من ديرة إلى ديرة على (ذلول) والذلول من أسماء الناقة المدربة المروضة). قالت نفسي: أنت هنا تضعنا بين رفاهية ومغامرة، قلت: هو المثل (بعير حمدان خب وإلا برك) قالت نفسي: اللهم أبعد عنا (حفا المطايا في أخفافها) قلت: هذا الحديث عن الإبل الأصائل في مرابيها ومراعيها، فلا بأس أن نسوق سردية الإبل في سياق سلوكيات الإبل المتفردة ومارثونياتها. قالت نفسي: لكن (خلّ على الشقرا جلالها) لتظل المطية مستعدة لتلبية راعيها بحمل الهودج والظعن وهنا تذكرت حكاية حامي الظعينة العربي الموثق في سجلات الحضارة البدوية أجل إنه ربيعة بن مكدم الفراسي الكناني الذي ضرب المثل فقيل (أحمى من مجير الظعن) والهودج محمل النساء فوق الناقة وحماية الظعائن شرف الأماجد.

الإبل في مسرح الصحراء

كانت الإبل تجري على أرض ما فيها قرقرة ولا حفورة، تنام النساء والأطفال وهنّ على (الحمرا) المحملة بالقناطير والسلام على الأحباب في رحلة القيظ، أجل السنام حصن وسند يمكّن الجمال من التغرودة والسالفة وهو يؤنس القافلة.. قالت نفسي: أعرفك ما كنت لاهياً بجلب المعلومة. لا هنت أينما كنت، قلت: ومن عادات العرب القدماء أن يتخذوا للإبل مقابر جاهزة لأن الناقة كانت تعقل عند قبر صاحبها الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت. قالت نفسي: وما ذنب الناقة؟ قلت: المشاعر النبيلة متبادلة فكم من رجل مات قهراً على فراق بعيره الذي

قضى معه شطراً من عمره ما بين كروفر و(بلوسفر).. أجل يا نفسي.. شقاء السفر وداء الإبل أشياء تعكر مزاج العلاقة بين الطرفين.. ربما تذكرين كيف كان العرب يفردون البعير إذا ما أصيب بأمراض طفيلية من (القمل) المزيل للوبر بعد إرهاق الإبل بالحكة وشراسة السلوك، بل إن (الذباب) القارص يسبب إزعاجاً للإبل، بالإضافة إلى امتصاصه الدم وهنا ينصح بعدم الرعي في المناطق الرطبة.. وأمراض الإبل كثيرة منها: (الجدري)، و(داء السعار)، و(الجمرة)، وداء آخر هو (البروسيلا)، ناهيك يا نفسي عن لدغات الحشرات. فكم يقلق رعاة الإبل توقف الناقة عن الطعام فجأة أو ظهور حبيبات على الشفتين وبين الأرجل الخلفية والرقبة والبطن.. التقيحات ليست سهلة.. المهم.. التدخل العلاجي لا يقل أهمية عن العمل الوقائي.. قالت نفسي: سمعت عن داء السعار الشبيه بداء الكلب، صحيح أنه قليل الحدوث لكن عضة الإبل المسعورة مرفقة بفيروسات تحتاج إلى تطعيمات... والبدو بخبرتهم يعرفون أن حالات من الحك والعض والخمول والاستلقاء الجانبي للناقة أو الجمل قد تزهق الأرواح في غضون أيّام معدودات مع إمكانية استمرار بعض أمراض الإبل لسنوات بسبب ميكروبات تجهض أجنة وتلوث حليباً ولحماً وأدوات. قالت نفسي: تعني أن تربية الإبل ليست عشوائية.. قلت، نظراً لهذه الهيئات المخيفة الناتجة عن أمراض الإبل.. كان لابدّ أن نجد في موروثنا الشعري أبياتاً تدل على ذلك: قال زهير بن أبي سُلمى:

رأيت المنايا (خبط عشــواء) من تـصب
تمتــه ومن تخطــئ يعمر فيهــرم

والعشواء هي الناقة التي تعمى لمرضها في الجدري فتشكل خطراً على البشر إذا كانت سائبة. أما شاعرنا طرفة بن العبد فقد شبه حالته في قومه بحال البعير الأجرب المدهون بالقطران لمنع العدوى خاصة إذا بلغ الجرب (السنام) يقول الشاعر:

إلى أن تحامتنــي العشيــرة كلهــا
وأفــردت إفــراد البعــير المعبّــدِ

قالت نفسي.. ما أصعب أن يعيش ابن الصحراء في وحدة وضياع فتصبح حياته بلا معنى.. لكن لا يأس مع الحياة، أنت كناقد في الشعر قادر على توضيح هذا البيت الرائع الذي يتحدث عن عبور الصحراء بأعناق المطي، قلت: القول الجميل يسلط الضوء على حالة السفر للحج على متون الإبل بل لاستعادة حكاية خالد بن الوليد وهو يعبر الصحراء من العراق إلى الشام فيقوم بنحر بعض الجمال لتكون لهم زاداً في وعر المسالك.

قال الشاعر يصف المطايا والأشواق إلى الأهل:

ولمــــا قضينــــا من منى كل حاجــة
ومــسح بالأركــــان مــن هــو ماســـح
أخذنــــا بأطراف الأحــــاديث بيننــــا
وسالت بأعنــــاق المطــــيّ الأباطــــح

ألاحظت يا نفسي هذه الاستعارة اللطيفة في سيل الكلمات والأباطح وأعناق المطي.. قالت نفسي: وما العجب فالإبل رمزية هوية خالدة.

قلت: أراد الشاعر أن يبين حب المطي لبلادها فسارت القافلة مسرعة متلهفة في امتداد الأعناق بالأشواق هذه الصورة الشعرية استشهد بها (أسامة بن منقذ في كتابه البديع في نقد الشعر) حيث اللفظ أوسع من معناه في قول الشاعر (كثير عزة) في طريقه عودته إلى وادي القرى ليحط رحاله متناسياً وعثاء السفر. قالت نفسي: ولأيقونة الشعر النبطي في الإمارات الماجدي بن ظاهر قصائد ملحمية في توصيف الإبل في مشاهد مسرحية رائعة حيث يقول:

حســين التهــادي بالاظعــان شــادي
والى ســمــع حادي تعــدى المجيــل
مديــح براســه صلــيل اليراســه
ولا فــي باســه لمــت الجديــل
وحــي الجــمل والذي يــا عليــه
ولو كــان مــا نالنــي منه نيــل[5]

وللحكاية مضامينها في التراث الإماراتي

ثم يا نفسي قبل أن تفوتنا ارتباطات الجمل بالأساطير وولادة القوليات الخرافية، تذكرين يا نفسي خرافة (رأس الجمل) المقطوع ثم يبقى الجمل يركض ويضيف التراث الشعبي حطاباً يسمع صوتاً يناديه من تحت السدرة وإذا به رأس جمل فحمله عائداً إلى بيته ليطلب الرأس أن يبقيه أهل البيت في الدار ليجدوا في فمه جوهرة، يطلب منه الرأس أخذها، ويسومها في السوق فإذا بها تشكل ثروة وتستمر الجواهر على الحطاب ليصير الحطاب ساكن سرايا، ليطلب الرأس من الحطاب أنه يريد عروساً هي بنت السلطان ويقدم مهرها جواهر مضاعفة، وكل ذلك من دون علم الأميرة ابنة السلطان هنا طلبت الأميرة رؤية العريس (رأس الجمل) ليتحول الرأس إلى شاب وسيم

فيقول لها أنا الأمير (حسن) وقد مسختني جنية إلى رأس جمل لأني رفضت الزواج منها.. فرحت الأميرة ليفاجأ الحطاب والأمير بالغاية والنهاية النبيلة وكان الخلاص من الخطر بسبب (رأس الجمل) ورمزيته العربية[6]. قالت نفسي: القصة خيالية، قلت: لِمَ تستغربين، فالحكايات عن جمل عاشق أغرب ربما أسهم في صنعها ذلك الهدير وكيس الخريطة الخارج من فمه، الجمل في موسم عشقه. وهناك خرافة الأمير شمس الدين مع الأميرة الشهباء.. والحديث يطول.

أقول: صحيح أن مهر العروس كان معياره عدد الجمال، وصحيح أن قطارات أيّام زمان كانت قوافل تجارية، وصحيح أن الجمال أحياناً كانت في مراعٍ سائبة.. ليس لها حدود إلا وسم صاحبها.. لكن نحن اليوم نسينا قلق السير ليلاً في البراري، فالمراعي مسيجة والزرائب مكيفة والتنافس في مهرجانات سباق الهجن ومزايين الإبل على قدم وساق وعشاق. لقد عادت الإبل إلى سياقها الاجتماعي ولا أحد منا يبالي بالمعتقدات المضحكة.. أجل يا نفسي: نحن في عصرنا كل شيء قابل لأن يكون نقطة صفر لمشروع اقتصادي، فلا شيء يفقد قيمته، وهذا هو وعي ماهية الموروث الإنساني المستدام، فليت ما حملت رجلاك يا جمل مجرد أغنية، لقد تغيرّنا لنقف على دكة حول مضامير.. هكذا تتضح الصورة من خلال كون الإبل قيمة مضافة لركائز التراث المستدام في مجتمع الإمارات العصري القائم على التلاحم والانسجام بين ما هو أصيل الهوية وما هو مستحدث في التنمية الثقافية والاجتماعية، نعني الربط والتأصيل والأيقونة لما هو في الجذور والفروع لتظل خيمة الوطن شاملة للجميع، وليبقى سنام الإبل ذخيرة في الوعي والرؤية والعمران في فهم محلي وإقليمي ودولي، حيث الجمل العربي أيقونة للتراث الإنساني في هجنه ومزاييه ■

أديب وباحث فلسطيني

الهوامش والمراجع:

1- للشاعر علي بن بخيت النعيمي - الجزء الثاني (المساجلات).
2- سورة الغاشية الآية 17.
3- سورة التكوير الآية 4.
4- المعجم الوسيط (الفائدة اللغوية).
5- ديوان ابن ظاهر (القصيدة اللامية).
6- حكاية «رأس الجمل» بتصرف من حكايات. عن التراث الإماراتي.

الإبل في الإمارات.. تراث الآباء يُحييه الأبناء

قتيبة أحمد المقطرن

مكانة الإبل عند العرب قديماً وعلاقتهم بها

الصحراء بوعورة مسالكها وخشونتها فرضت على العربي حياة قاسية تتطلّب الترحال المتواصل؛ بحثاً عن مواطن الماء والكلأ، وفي هذه البيئة القاسية كان لا بد له من الاستعانة بالإبل في تنقلاته وترحاله، ومن هنا جاء اهتمامه بها والحرص عليها، وأصبحت عنده بمنزلة الأرض والوطن. وعَبْر العصور تطورت علاقته بها، ففي العصر الجاهلي كانت الناقة رمزاً للصحراء، وعموداً من أعمدتها، ووجودها جزء لا يتجزّأ من حياة البدو. وتعود علاقة الإنسان بالناقة إلى ما يقرب من 1800 سنة، فهي من أقدم الحيوانات التي استأنسها واستطاع أن يسخِّرها لخدمته[1]. ولم تكن الناقة مجرد حيوان في العصر الجاهلي، فقد أعلَوا من شأنها، وكانت كل شيء في حياة أجدادنا العرب، فمنها غذاؤهم وكساؤهم، وعلى ظهورها كانوا يحملون أمتعتهم ويجوبون الصحراء، وتعدُّ من أنفس أموالهم؛ ولهذا كانت تُقدَّم مَهْراً للنساء. وبعض من عظّم شأن الإبل قال: إن الله تعالى لم يخلق نعماً خيراً من الإبل، إن حَمَلت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حُلبت أروت، وإن نُحرت أشبعت[2]. وقد تطورت علاقة العربي قديماً بالإبل عند مجيء الإسلام، وبَدء ألويته في فتح الثغور؛ حيث فتح المسلمون على ظهورها بلاداً وأقاليمَ كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها، فيما عرف بالفتوحات الإسلامية. واتخذ الشاعر الجاهلي منها رفيقاً وصاحباً، حَمَته من مخاطر الصحراء، وخففت عنه آلامه وأحزانه. ونظراً لارتباطها بصاحبها يرى الشاعر الجاهلي المنخّل اليشكري يساوي بينه وبين بعيره في مشاعر الحب، فَحُبُّه لمحبوبته يأتي بمرتبة حُبِّ بعيرِه لناقتها:

وأُحِبُّهـــــــــا وتُحِبُّنـــــــــي
ويحـــــــبُّ ناقتهـــــا بَعِيـــــري[3]

ثقافة الإبل

لقد شكّلت الناقة في حياة العرب قديماً ثقافة مرتكزة على ثقافة الصحراء التي تتبلور في قيم العزة والأنفة والكبرياء والكرم والتكافل الاجتماعي، فهي ليست مجرد آلة يستخدمها البدوي لطعامه وشرابه ونقل أمتعته، بل أصبحت متجذرة في عمق تفكيره البدوي الضارب في عمق الصحراء، حتى باتت جزءاً من كيانه وامتداداً طبيعيّاً لوجوده في الصحراء. ونظراً لمكانتها فقد جاء القرآن على ذكرها في سور عدة: آل عمران، والنساء، والمائدة وغيرها، في آيات تدعو إلى التفكر بقدرة

الله، قال تعالى «أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» الغاشية (17)، وفي هذه الآية خصّ الله تعالى الإبل من بين مخلوقاته الحية بأن جعل النظر إلى كيفية خلقها أسبقَ من التأمل في كيفية رفع السماوات ونَصبِ الجبال وتسطيح الأرض.

علاقة أبناء الإمارات بالإبل ومكانتها في حياتهم

قديماً في دولة الإمارات ودول الخليج العربية عموماً، كانت الإبل جزءاً من معطيات الصحراء، عايشها البدوي في حله وترحاله، وظلت كسابق عهدها رفيقته، وشكّل معها ثنائية الحياة الصحراوية، والصراع مع الطبيعة القاسية، وبالتالي تجذّرت العلاقة بينها وبين البدوي. والإبل رمز تراثي أساسي في الدولة ومكانتها في الإمارات عريقة كما في معظم دول الخليج العربية. وقد أثبتت الحفريات والاكتشافات في بعض مناطق الإمارات أن وجود الإبل يعود إلى 5000 سنة تقريباً؛ حيث عُثر على عظام للجِمال في منطقتَي أم النار وهيلي[4].

وبرغم الطفرة النفطية وانعكاساتها على حياة المواطنين في الإمارات وما أنتجته من معطيات حديثة، فإن ابن الصحراء بقي متمسكاً بعاداته وتقاليده، ويحكي أحد المواطنين قصته مع تربية الإبل والاهتمام بها قائلاً: منذ أن فتحنا أعيننا على الدنيا كانت الإبل ملازمة لنا، ولم تفرقنا متغيرات الزمن عنها، فالإنسان لا يتجرد من هويته لأنه أصبح مُنعَماً بعد فقر، وقد ارتبطت الإبل ارتباطاً وثيقاً بحياة أبناء الإمارات. وقد أولت دولة الإمارات العربية المتحدة اهتماماً بالإبل العربية الأصيلة وسعت جاهدة للإكثار من سلالاتها الأصيلة المعروفة[5]. ومن هنا ندرك اهتمام المغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - بالإبل؛ حيث يقول: «وفاء منّا للإبل وما أسدته لأسلافنا ولنا من بعدهم من خدمات وقت أن كنا نعتمد عليها في كل حياتنا وتنقلاتنا ورحلاتنا، فإننا نهتم بها ونكرمها لسابق أفضالها علينا وعلى أجدادنا»[6]، هذه الكلمات المعبرة تدلّ على صلة البدوي بإبله، وتعاطفه معها وتقديره لها، فالبدوي الأصيل يتعاطف مع إبله كما تتعاطف معه، ويحزن لفقدها كما تحزن لفقده. ويقول مواطن آخر: برغم تراجع دور الإبل كوسيلة نقل في حياة سكان الإمارات، فإن الاهتمام بها ما زال مستمراً، بوصفها جزءاً من التراث، وأصبح الاهتمام بها مصدرَ دَخلٍ لكثير من الشباب من خلال البيع والشراء، والاهتمام بسلالاتها[7]. واليوم أصبحت أحد مظاهر التباهي، فأغلب المشاركين بالمهرجانات والسباقات يتفننون في بيعها؛ حيث يصل سعر بعضها إلى 15 مليوناً. ويضيف: عالم الإبل

شاسع، والاهتمام بها يختلف، فإبل المزاينة يتم التركيز فيها على مقومات الجمال والسلالة الجيدة، وإبل الريس للرشاقة واللياقة. وتجلّى الاهتمام بالإبل في مجتمع الإمارات من خلال الندوة الدولية الأولى لرعاية الجِمال التي عُقدت عام 1992، وكذلك من خلال إنشاء «مركز الأبحاث البيطري» في منطقة الحيلية قرب سويحان؛ حيث يركز قسم التوليد في المركز على تهجين إبل جيدة من نسل محلي أصيل لأغراض السباق، وحتى عام 2013 أنتج المركز أكثر من 5 آلاف بعير، وهذه عمليات غير مسبوقة في العالم.

سباق الهجن.. أهميته ومظاهره في الإمارات

يشكّل سباق الهجن ثقافة مهمة في حياة البدو، ونظراً لمكانة الإبل الكبيرة في نفوسهم فقد غدت جزءاً أساسياً من اهتماماتهم الحياتية، وحاضرة في كل مناسباتهم، يقول أحد الباحثين: الفرح عند البدو دون سباق الهجن لا يُعدّ فرحاً، فالأعياد والزواج والختان وعودة الغائب، مظاهر لا تكتمل إذا لم تصاحبها عروض الإبل؛ حيث يصل أصحاب الجِمال إلى المركاض، أو موقع الاحتفال ويستعرضون نُوقَهم حول دائرة المركاض على غناء التَّغرود[8]، وتنطلق أصوات الغناء المرتفعة وقرع الطبول وصليل السيوف وخشخشة حِلْي النساء، والأطفال بملابسهم الزاهية، وينطلق السباق، يشاركه تحضير الطعام، ورائحة العطور الممتزجة مع الهواء.. حدث رائع له عبق لا يزول من الذاكرة[9].

فلسفة سباق الهجن

نظراً للأهمية التي كان يوليها أبناء الإمارات قديماً للإبل، فقد كانوا يُظهرون قدراتهم وخبراتهم في معرفة دروب الصحراء ومجاهلها من خلال تنظيم سباقات من حين إلى آخر في صحرائهم الممتدة، وترى بعض الدراسات: أن تقليد الغزو على الإبل لدى بدو شمال الجزيرة العربية هو بالأساس آلية للتكيّف الأيكولوجي[10]، وأن الجماعات البدوية غزت بعضها بعضاً عندما مسّها الجوع ودفعتها الحاجة، والتكيف في بيئتها الصحراوية بهدف الحصول على الغنيمة من الجماعات البدوية الأخرى[11]، وبهذا نفهم عادة الغزو عند البدو على أنها استراتيجية أو تدبير ملائم لمعطيات البيئة الصحراوية المتغيرة باستمرار، فأنت كبدوي إما غازٍ أو مَغزوّ، وهذا بدوره يفسر إحياء ظاهرة (سباق الهجن) التي تجري اليوم في أغلب دول الخليج العربية.

تنظيم سباقات الهجن

تُنظَّم سباقات الهجن في الإمارات بمشاركة الهجن العربية الأصيلة، وقد اهتمت الإمارات بهذه السباقات ودعم هذا التراث الأصيل باعتباره رياضة محبوبة عند مختلف أبناء المجتمع؛ حيث أصبحت وسيلة للاستجمام والاستمتاع والإثارة؛ ولهذا حرصت الدولة على دعم مُحبّي الإبل بالجوائز القيِّمة والمعونات المادية، وعملت على تعزيز هذه الرياضة فأدخلت التقنيات العلمية على عملية تحسين نسل الإبل المخصصة للسباقات، وقد زاد الاهتمام العالمي بسباقات الهجن، وأصبحت تربية الإبل وإعدادها للسباقات مصدراً يدعم الاقتصاد بالملايين نتيجة ارتفاع ثمن الإبل الأصيلة. وأصبحت سباقات الهجن من السباقات الدورية السنوية ومعلماً تراثياً وثقافياً مهمّاً للدولة، فاحتلت مكاناً مرموقاً بين الرياضات التراثية، وتعمل الإمارات على توفير الدعم المادي لشراء الهجن وتدريبها. وتم إنشاء ميادين السباقات على أعلى المستويات وتشييد مرافق تدريبها وإنشاء المستشفيات البيطرية، إضافة إلى مدرَّجات تتسع لآلاف المتفرجين، وتم الاهتمام بتحسين نسل الهجن وسلالاتها[12].

الإمارات رائدة في سباقات الهجن

الإمارات أول دولة في وقتنا الحاضر أَوْلَت رياضة سباق الهجن اهتمامها، فقد أنشأت أكثر من خمسة عشر ميداناً لسباقات الهجن، مجهزة بأحدث وسائل التقنية، ومرافق لتدريب الإبل ورعايتها طبياً، ومن هذه الميادين: الوثبة، وسويحان، ومدينة زايد، وأبو سمرة، وغيرها الكثير، وبتوجيه من المغفور له - رحمه الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - قامت دولة الإمارات العربية المتحدة بتأسيس اتحاد سباقات الهجن في 25 أكتوبر 1992 الذي تولى رئاسته حينها سمو الشيخ حمدان بن زايد. وتولى الاتحاد وضع معايير أساسية للحفاظ على سلالات الهجن الأصيلة، وتنظيم عملية تربيتها وتدريبها وإشراكها في السباقات المحلية والدولية، كما قام الاتحاد بنشر ثقافة سباقات الهجن في جميع أنحاء العالم؛ لجذب السُّياح والمهتمين للتعرف على هذه الرياضة التراثية العريقة. ويُعدُّ مهرجان الوثبة لسباق الهجن، الذي يُعقد في شهر إبريل، بحضور حكام دولة الإمارات، حدثاً مهمّاً، ويهدف هذا الحدث السنوي إلى إحياء التراث الثقافي لدولة الإمارات العربية المتحدة؛ ويحصل الفائزون على كأس ومليون ونصف المليون درهم لأشواط الأبكار، وكأس ومليون درهم لأشواط الجعدان، ويحصل الفائزون في اليوم الختامي المخصص للحول والزمول، على سيف وخمسة ملايين درهم لشوط الحول الرئيسي إلى جانب خِنجَر ومليونَي درهم لشوط الحول المحليات[13]. وبرعاية صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد، تم تأسيس نادي دبي لسباقات الهجن، بهدف الحفاظ على تراث وثقافة سباقات الهجن، ويسعى لأن تكون دبي - كوجهة سياحية - محوراً لهذه الرياضة. في الختام، إن الحفاظ على التراث هو وفاء الأبناء لتراث الآباء والأجداد؛ ولهذا حرصت دولة الإمارات العربية المتحدة على تربية الإبل والاهتمام بها، ولا يخفى أن للإبل فوائد اقتصادية تسهم في ازدهار البلاد ونهضتها. وبرغم التقدم التكنولوجي واختلاف أوجه استخدامها بين الماضي والحاضر، فإن مكانة الإبل ستظل كبيرة في نفوس قادة دولة الإمارات وشعبها ■

أكاديمي سوري

الهوامش والمراجع:

1. إيناس محيسن، «سفينة الصحراء.. رفيق الإنسان منذ فجر التاريخ»، أبوظبي 23 أغسطس 2015، انظر الرابط:
https://www.emaratalyoum.com/life/four-sides/2015-08-23-1.814008
2. ناجي محمد العتريس، انظر الرابط:
https://www.arabicmagazine.net/arabic/articleDetails.aspx?Id=4080 بتاريخ 2015/1/21.
3. الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ج 1، ص 393.
4. انظر الرابط:
https://www.emaratalyoum.com/life/four-sides/2015-08-30-1.816206.
5. جريدة الاتحاد، تربية الإبل بين الماضي والحاضر.. مواريث متجددة، 25 أغسطس 2007.
6. فارس خلف المزروعي .. الشيخ زايد أرسى قواعد الاهتمام بالإبل، شبكة بيئة أبوظبي: الإمارات العربية المتحدة، 23 يونيو 2021.
7. جريدة الخليج، ملحق.. سفينة الصحراء تنقل الشباب إلى الماضي، 17 سبتمبر 2013.
8. التغرود، لون من الأغاني الشعبية في الإمارات.
9. محمد عيد العريمي (الشعلة التي أضاءت الصحراء)، مجلة نزوى، العدد 24، ص 290.
10. التكيف الأيكولوجي: هو قدرة الكائنات الحية على التكيف مع الظروف المحيطة بها.
11. سليمان نجم خلف، (ثقافة سباق الهجن في الخليج العربي)، مجلة البحرين الثقافية، العدد 20، السنة 5، إبريل 1999، ص 50 - 51.
12. سباق الهجن تراث متجدد يميز هوية الإمارات. جريدة العرب. انظر الرابط:
https://alarab.co.uk
13. انظر الرابط:
https://www.dubairacing.ae/content/dubairacing/ar-ae/programs/12/16897.html

الإبل في الإمارات وأماكن أخرى: دراسة تاريخية

صديق جوهر

كانت الإبل هي سفائن الصحراء التي ركبها أبناء قبيلة قريش في رحلة الشتاء إلى اليمن وبلاد حِميَر وفي رحلة الصيف إلى الشام. علاوة على الأهمية التجارية والاستراتيجية للإبل فقد عشقها العرب منذ فجر التاريخ ونظموا فيها الأشعار والقصائد. وقد ورد ذكر الإبل في القرآن بطرق مختلفة وفي سياقات متعددة: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)، و(حتى يلج الجمل في سَم الخياط)، و(من الإبل اثنين)، و(آتينا ثمود الناقة مبصرة)، و(هذه ناقة الله لكم آية) و(ناقة الله وسقياها)، و(إنا مرسلو الناقة فتنة لهم)، و(نزداد كيل بعير)، و(لمن جاء به حِمل بعير). وتاريخياً اهتم سكان الإمارات منذ الأزل بتربية الإبل لأن الجمل حيوان قوي وسهل الانقياد ويستطيع تحمل زمهرير الصحراء في الشتاء وقيظها في الصيف، ويمكن للجمل العربي السير لأكثر من مئة كيلومتر في اليوم دون شربٍ للماء وبطعام أقل مرتين من طعام الحصان. علاوة على ذلك يستطيع الجمل السفر بسهولة في الطرق الوعرة بسرعة تصل إلى أربعين كيلومتراً في الساعة ويمكن ركوب الجمل وتحميله للبضائع في آنٍ معاً.

وفق الدراسات الأثرية كانت الإبل المستأنسة منتشرة في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية خلال العصر البرونزي المتأخر، غير أنها كانت أقل انتشاراً في منطقة الشرق الأدنى وكانت نادرة الوجود في الشرق الأوسط. لكن الإبل أصبحت معروفة بالفعل نحو عام 1600 قبل الميلاد كما يشهد على ذلك نص سومري من الفترة البابلية القديمة أشار إلى حليب الإبل. ومما لا ريب فيه أن الإبل أصبحت موجودة بكثافة في بداية الألفية الأولى قبل الميلاد وفقاً للبحوث الأثرية والحفريات التي أثبتت وجود قطعان كبيرة منها، آنذاك، في تل أبرق في الإمارات.

في السياق ذاته تشير الحفريات الأثرية التي تمت في منطقة أم النار في إمارة أبوظبي إلى وجود عظام مئتي جمل في هذه المنطقة ترجع للألفية الثالثة قبل الميلاد. وقد تم تعزيز هذا الاكتشاف من خلال تحليلات الحمض النووي للعينات المأخوذة من بقايا الإبل في العصور القديمة وفي الوقت الراهن والتي تشير إلى تدجين الإبل بالقرب من الساحل الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية خلال الفترة نفسها. من ناحية أخرى تم العثور في موقع أثري في منطقة البحيص في إمارة الشارقة على عظام إبل عربية يعود تاريخها إلى ما بين خمسة آلاف وأربعة آلاف سنة قبل الميلاد. وتعتبر البقايا البيولوجية للإبل المكتشفة في طبقات الأرض في مواقع متعددة شاهداً مباشراً على وجود الإبل في هذه المنطقة، ليس بسبب الصيد ولكن لأسباب تتعلق بالاستئناس والتدجين؛ لأن ما عُثر عليه عبارة عن روث وحبال مصنوعة من صوف وجلود الإبل وما شابه ذلك، مما يدل على الاستخدام المنتظم لمنتجات جسم

الجمل أو على الأقل فإن الحفريات تشير إلى أن الجمل العربي سواء تم اصطياده أو استئناسه كان موجوداً في هذه المواقع ويستخدم كمصدر للغذاء. والأكثر أهمية هي النتائج الأخرى التي تشير إلى وجود الجمال المستأنسة منذ نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد في المناطق الساحلية في جنوب شرق الجزيرة العربية لأغراض تتعلق بإنتاج الألبان.

لقد دُجن الجمل العربي بعدما انقرض سلفه البري خلال الألفية الأولى قبل الميلاد، وتم استئناس الإبل بعد مرور خمسة آلاف عام على تدجين الثيران ومرور ألفي عام على تدجين الحمير. في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد دُجنت الإبل في جنوب شرق الجزيرة العربية بشكل متزامن تقريباً مع استئناس الإبل ذات السنامين في جنوب غرب آسيا الوسطى، وتمت عمليات التدجين في بيئاتها الطبيعية. لقد دُجنت الإبل للاستفادة من لحومها وجلودها وصوفها وألبانها علاوة على استخدامها في النقل وفي الحروب. ومع بداية الألفية الأولى قبل الميلاد أدى إدخال أنواع جديدة من السروج وتقنيات التهجين إلى تعزيز التفوق المتزايد للإبل كوسيلة نقل في جميع المناطق القاحلة في أفريقيا وأوراسيا واستخدمت الإبل بدلاً من الجياد في سلاح الفرسان. لقد حدث التدجين في موائل الإبل الأصلية بين القبائل الرعوية على الحدود القاحلة للحضارات القديمة وفي المناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية وفي جنوب غرب آسيا الوسطى. كان تدجين الإبل مفضلاً بسبب قدرات الجمال على الحياة في الصحاري. وعلى عكس الأنواع المستأنسة الأخرى من الحيوانات في المناطق القاحلة استفاد الإنسان من حليب

الإبل وصوفها، كما استخدمها في تسيير القوافل مما عزز من أهمية الإبل بشكل تدريجي كوسيلة نقل ومواصلات، حيث وصلت إلى مراكز الحضارة خلال الألفية الثانية قبل الميلاد ثم انتشرت في جميع المناطق القاحلة في أفريقيا وأوراسيا. ومع بداية انتشار المسيحية منحت هذه العوامل لمربي الإبل من البدو احتكار وسائل النقل البرية الأفرو-أوراسية والسيطرة العسكرية على المناطق القاحلة والصحراوية بأكملها. وإذا كان الجمل ذا السنامين في المناطق الشمالية في آسيا، آنذاك، لا يزال يواجه منافسة الحصان في النواحي العسكرية فقد أصبح الجمل العربي في الجنوب هو سيد القوافل التجارية والحروب، مما زاد من قوة المجتمعات العربية منذ ذلك الحين حتى انتشار الإسلام وتأسيس دولة الخلافة الإسلامية. في هذا السياق بدأ "عصر الإبل" الذي استمر لبضعة قرون في بلدان شرق أوسطية شتى، حيث انتهى زمن العربات التي تجرها الدواب بعد ظهور الجمل (سفينة الصحراء) على الساحة، لأنه استخدم في القوافل وفي ساحات الوغى.

في مطلع الألفية الأولى قبل الميلاد وقع اختراق حاسم في العلاقة بين الإنسان والجمل عندما أدى تصنيع سروج حديثة وتطوير طرق التهجين للأنواع الأقوى من الإبل إلى تعزيز أهمية الجمال على مستويات متعددة. مثلاً أدت هذه التطورات إلى تفوق الجمل في نقل الأحمال على جميع أنواع النقل ذات الجر بالعجلات، خاصة في المناطق القاحلة المحرومة من البنية التحتية للطرق، مما أدى إلى نشر استخدام الجمل كوسيلة نقل أساسية في الشرق الأوسط بأكمله وفي الشبكات القارية من طرق القوافل.

عسكرياً فُضلت الإبل على الجياد في سلاح الفرسان لقدرتها على السير في الرمال والسيطرة على مساحات شاسعة في الصحراء. وعند مقارنتها بالخيول فإن الإبل أقل عدوانية، وقد استخدمت في الحروب منذ العصر البرونزي المتأخر بعد تطوير صناعة السروج التي أدت إلى زيادة قدرتها على المناورة في ميادين المعارك. عندئذ بدأت الجيوش تستخدم الإبل لحمل الرماة والرماح علاوة على حمل المؤن بدلاً من الخيول والبغال لأنها أقل عصبية ولديها القدرة على العمل لفترة طويلة في المناطق القاحلة من دون ماء. في العصور اللاحقة تم استخدام الإبل على نطاق واسع في الحروب في جميع أنحاء أفريقيا والشرق الأوسط، كما تشهد بذلك الروايات التاريخية والدلائل الأثرية. وفي سفر إشعياء بالكتاب المقدس وردت إشارات لاستخدام الإبل في الأعمال العسكرية، وتشير النقوش الآشورية إلى استخدام الجمال في الحروب قبل الميلاد بنحو ألف عام. وتُبين الحفريات القديمة أن عدداً كبيراً من العرب من راكبي الجمال كانوا يحاربون مع جيوش الملك الآشوري (تغلث فلاسر) في القرن العاشر قبل الميلاد. وفي عام 190 قبل الميلاد واجه الرومان في سوريا رماة سهام عرباً يمتطون الجمال، وإبان العصور الوسطى كان راكبو الجمال المدرعة يشكلون القاعدة العسكرية الأساسية في جيوش الفتوحات الإسلامية.

من ناحية أخرى ازدادت أهمية الإبل عندما أصبحت طرق التجارة البرية آمنة نسبياً مقارنة بالملاحة البحرية الأكثر خطورة، وارتبطت الإبل المستأنسة بظهور (طريق البخور) على طول الحافة الغربية للجزيرة العربية الذي يربط ساحل سبأ بمصر والدول المجاورة. كان (طريق البخور) ممراً تجارياً مهماً ومعبراً دولياً بين الشرق والغرب، امتد من بلاد اليمن جنوباً وأخذ مسارات في اتجاهات مختلفة، وقد نشأت على طوله مراكز تجارية مهمة كان لها الدور الكبير في انتعاش الحياة الاقتصادية في بلاد اليمن وفي مواطن القبائل العربية الواقعة على طرقاته. وكانت القوافل العابرة لطريق البخور محملة بالبخور والتوابل ومنتجات الشرق التي تصدّر في النهاية إلى دول أوروبا ■

أكاديمي وناقد ، خبير الترجمة في الأرشيف والمكتبة الوطنية

سرديات ومرويات تراثية وحكائية عن الإبل

(الحيوان للجاحظ، وفقه اللغة للثعالبي، والمخصص لابن سيده، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء للراغب الأصبهاني، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني)

د محمد فاتح صالح زغل

إن تلك المصنَّفات التي خصّصت للحيوان في التاريخ العربي الإسلامي، أو أفردت أقساماً وأبواباً له، ومن زوايا مختلفة، تمثّل غواية بحثية لنا حول الإبل تضاعف من غواية التحرّي في أصولها، في التعدد الأسمائي، أعني في الفصل والوصل بين الجمل والناقة، البعير والأنعام، أعني كذلك الكمّ الهائل من الأسماء وتلك الألقاب التي تترجم ثراء في المواقع والأنساب بالذات، حيث إن لغتنا لما تزل تحتفظ بالكثير مما هو إبليٌّ.

يعد (كتاب الحيوان) للجاحظ «ت 255هـ»

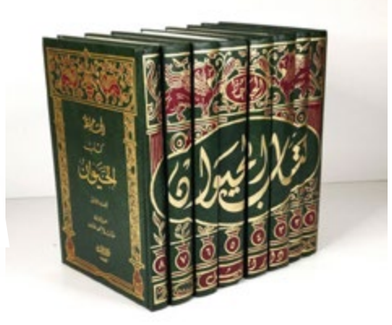

أهم كتاب موسوعي ومعجمي بأجزائه السبعة متصدراً الكتب التي أحاطت بالحيوان، وقد خصص للإبل بحثاً وافياً عنها، والكتاب شيق باعتباره يقدم معلومات لم تعدم قيمتها حتى اللحظة، ويتوزع الحديث عن أي حيوان بين أجزاء الكتاب السبعة، سواء من خلال عناوين فرعية، أو ضمن عناوين أخرى تتعلق ببقية الحيوانات، وهذا يتطلب جهداً وصبراً وقدرة على الربط والانتظام للمعلومات.

الجاحظ سعى، كما يبدو من خلال هذا الجهد البحثي الذي غطى سنوات طويلة من عمره، إلى أن يودعه خبرة حياة، حيث لا يعود الكتاب «كتاب الحيوان»، إنما ما يلقي الضوء على حياة الإنسان والطبيعة واختلاف الأذواق والشعوب والأمم تبعاً لديناميكية أحداث عصره ومجتمعه، وفي

حال الإبل، لا تكون الإبل هي المحور الرئيسي، إنما ذاك الذي رعاها وامتلكها واستفاد منها أو سخرها في خدمة حاجاته وتأملاته كذلك. كما لو أن الإبل بما تميزت به من أوصاف وهيئات، تقرّبنا من حالات نفسية وعقلية ووجدانية وسواها لدى الإنسان نفسه، إنها حقل استقطاب لقيم ومشاعر، مثلما أنها شكّلت قنوات لتمرير مؤثرات اجتماعية وذوقية ونفسية ونقدية وحِجاجية. ففي خانة «الإبل» نقرأ مثلاً: تأويلها بمعنى السحاب، أو زعم قرابتها للجن أو هي الإبل الوحشية أما في خانة «البعير» فنقرأ، مثلاً: تسميته بالأعلم، أو شبه النعامة به وذكر مخالفة دمه لدم سائر الحيوان وقبح سباحته وتغلب الذباب على جلده، وغرز الريش والخرق في سنامه كما ذكر أنه من مراكب الأنبياء.

وفي خانة «الجمل» تحدث عن لين أرساغه وطول عنقه وشبه خطم الزرافة بخطمه، ولا يدع جملاً ولا إنساناً يدنو من هجمته زمن الهيج، أما في باب «الناقة»، فنقرأ: علاقة الناقة بالوحشية بالزرافة، وسقب ناقة صالح، وكبرها بعد اللقاح، والعجب من خروج ولدها من بطنها، وخوفها من الغراب، ذخيرة من المعارف التي تكوّن مجتمع الإبل والذين عايشوا الإبل.

ويأتي الثعالبي «ت429هـ» في كتابه الأثير (فقه اللغة وسر العربية)

حيث إن البحث عن الإبل وما يتفرع عنها من أسماء وصفات

وألقاب، يأتي من خلال عناوين فرعية أو قائمة بذاتها، أو بالتداخل مع حيوانات أخرى كما في (ترتيب سن الناقة، وفي سمات الإبل، وفي ترتيب سن البعير، وفي فحول الإبل وأوصافها، وفي تفصيل سير الإبل إلى الماء)، وغيره.

ويلفت انتباهنا في كتابه حالة التقابل بين أسماء ذات صفة نوعية لكل من الإبل والإنسان، سواء من جهة التداخل، أو من ناحية الاستعارة، كما ورد: (فالبِكر بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، والجمل بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والبعير بمنزلة الإنسان)، وهذا التقابل لم يأتِ صدفة فالمجتمع إبلي بحت إن جاز التعبير.

ولنتوقف قليلاً أيضاً عند فصل(فيما يُركب ويحمل عليه منها): فالمطيَّة اسم جامع لكل ما يمتطى من الإبل، فإذا اختارها الرجل لمركبه على النجابة وتمام الخلْق وحسن المنظر فهي راحلة، وفي الحديث: «الناس كإبل لا تكاد تجد فيها راحلة»، فإذا استظهر بها صاحبها وحمل عليها أحماله فهي زاملة، فإذا وجَّهها مع قوم ليمتاروا معهم عليها فهي عِلِيقة..)، بينما نجد في كتاب آخر له، وهو (ثمار القلوب) في المضاف والمنسوب على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة إلى أشياء مختلفة يُتَمثَّل بها، ويكثر في النظم والنثر وعلى ألسنة الخاصة والعامة استعمالها. كقولهم: غُراب نوح، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وناقة صالح، وهنا يلتقي السرد التاريخي الديني والأدبي، ويقدم صورة حية عن الناقة الاستثنائية، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ وكيف أنها ترسخت في أذهان المعنيين وأدبهم، كوصف ابن الرومي لرجل أكول:

شِبــه عصــا موســى ولكنــه
لم يخلــق اللــه لهــا فاهــا
رفقــاً بزاد القــوم لا تُفنــه
يــا (ناقة اللــه وسقياهــا)

كما يقدم الثعالبي طائفة من الأمثال وهي حكم، عما يصلنا معه بالإبل أو البعير أو الجمل أو الناقة، وهي كلمات لا أظنها فقدت صلاحية استخدامها حتى اللحظة كثيراً مثل: (كلكل الدهر: يستعار كالكل البعير للدهر إذا أخنى على الإنسان)، و(حُمرة النَّعم: وهي كرائم الإبل، يضرب بها المثل في الرغائب والنفائس)، و(حنين الإبل)، و(غرائب الإبل كمثل للرجل يُظلَم)، و(يوم الجمل، إشارة إلى موقعة الجمل)، و(سفن البر: يقال للجَمال).

وفي (رسالة الغفران) لأبي العلاء المعري «ت449هـ»

ثمة مجال للنظر في بنية بعض الإحالات المرجعية على الإبل، أو ما يجعل الإبل مادة متنقلة بين النصوص، ومن خلال سارد المعري في الجنة، بلسان خياله، إن جاز التعبير، كما في لقائه مع أحدهم، وهو يتحدث عن روحه: (يا بني، إن روحي قد نُقلتْ

إلى جمل أعور في قطار فلان، وإني قد اشتهيت بطيخة. قال: فأخذت بطيخة وسألت عن ذلك القطار فوجدت فيه جملاً أعور، فدنوت منه بالبطيخة، فأخذها أخْذ مريد مشتهٍ).

ثمة الاعتقاد من خلال العلاقة مع الجمل عن تداخلات مع عوالم مفارقة له ومتشابكة: عالم الجن، عالم الشياطين، عالم الخفاء، ..إلخ، وحيث يلاحَظ من خلال عبارة (القطار) التي لها معنى مختلف، ولكنها تشدنا إلى عالم البادية أو عالم تتابع الإبل في خط واحد، كما هو الحديث عن الإبل السيَّارة وغيرها.

وما تطرَّق إليه اللغوي الحصيف ابن سيده «ت 458هـ»، في (المخصَّص)

يمثِّل إنجازاً لغوياً: موسوعياً ومعجمياً في هذا المضمار، حيث إن قراءة المتعلِّق بالإبل، في مجمل ما تُعرَف به، يلقي ضوءاً ساطعاً على مدى العناية بالموضوع، وذلك في المجلد الثاني، السفر السابع، وعلى امتداد أكثر من مئة وسبعين صفحة، ومما أورده في كتابه عن الإبل: (إذا أرادت الناقة الفحل قيل ضبعت ضبَعة، وهاج الفحل يهيج هياجاً، الهيج: الفحل الهائج، تنوَّخ الجمل الناقة: أبركها ليضربها، عرَّستْ البعير: إذا شددت يديه جميعاً مع عنقه وهو بارك، لقحت الناقة لقحاً ولقاحاً وألقحها الفحل والناقة لاقح، ومن صفات الإبل في كيفية حملها، ونعوتها في نتاجها، وفطام الإبل، ونعوت الإبل في الوله واشتداد الحنين، ونعوتها في كثرة ألبانها، وألوان الإبل، ونعوتها في حسنها وتمام خلقها، ونعوتها في قصرها ودمامتها، ونعوتها في قلة لحومها، ونعوتها في رعيها وبروكها، وأبوالها، وعقلها وشدها، ونحرها.

ويظهر أن الراغب الأصبهاني «ت1108م»، في كتابه (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء)

قد خصص مساحة معتبرة للأنعام، وضمناً الإبل، في كتابه، استجابة لحاجات عصره، يقول: (قيل لابنة الحسين: ما تقولين في مئة من المعز؟ قالت: قنى. قيل: فمئة من الغنم؟ قالت: غنى. قيل: فمئة من الإبل؟ قالت: منى)، ومن مرويات الأصفهاني في كتابه يتحدث عن أوصاف الإبل الحسية، وبلاغة الكشف عن خاصية الإبل: (وصف أعرابي ناقة فقال: تقطع الأرض عرضاً، وترض الحجارة رضاً، وتنهض في الزمام نهضاً، سريعة الوثوب بطيئة النكوب، مروح شروب). وقيل لآخر: (كيف ناقتك؟ فقال: عقاب إذا هوت، وحية إذا التوت، طوت الفلاة وما انطوت..)

وفي كتاب (عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات) للقزويني «ت 682هـ»

ثمة ما يتكرر في الوصف والفائدة الطبية، مثلاً: إن شحمه ما أن يوضع في موضع حتى تهرب الحيات منه، وبعره يقطع الرعاف بتوصيفة من ابن سينا، وثمة قسم مخصص للحيوانات المركَّبة، ومن ذلك، ما يخص ما هو متولد من اثنين (من الإبل الفالج والعراب وتسمى البختي وهو أحسن أنواع الإبل صورة والفالج هو الذي له سنامان. هذه الأضمومة من المصادر التي توقفنا عندها، ربما تكون غيضاً من فيض، إن راعينا جملة أدبيات لم تصل إلينا، أو لم تُسمَّ هنا، أو لأن الغرض من هذا البحث ليس إحصائياً، إنما الوصول إلى فكرة أكثر تكاملية حول الإبل ■

أكاديمي وباحث في التراث

عين الباب السرية

عبد الفتاح صبري
روائي وناقد مصري

لكل شيء في الحياة عيون.. العيون أداة التواصل مع المحيط وكاميرا للتعرف على تضاريس المكان وخريطته والدروب ومسارب الحركة ومن يدب في الحول والزمان حتى الباب المصمت الأصم أصبح له عين يرى بها عين يقال لها «عين سرية» تأمل في التسمية كي تكتشف فداحة ما وراء ذلك من عمق القيم والسلوك التي باتت محيطة بنا وحولنا.. بالتأكيد الباب أصم ولن يرى ولكنه بهذه العين سيوفر الرؤية رغم أنه مغلق للآخر صاحبه أو الذي يقبع خلفه أو يتخفى في حمايته.. عين سرية غير مكشوفة للآخر الطارق أو على الأقل غير عالم إن كان من في الداخل يرصده أم لا .. يتلصص عليه ويكشف هيئته ومعلومه دون أن يكون الباب مفتوحاً، أي إن العين السرية تقوم نيابة عن الباب بالانفتاح على الآخر القادم ورؤيته من قبل الداخل دون أن يقوم الباب بوظيفة الفتح والانفتاح والكشف وتسهيل الرؤية حين ينزلق على مفصلاته ويدور مسافة معلومة لتتم في هذه المساحة مطلق الرؤية.. ولكن العين المبثوثة في الباب تنوب عن وظيفة الباب وينكشف ستر القادم لأهل الداخل دون حدوث وظيفة للباب أو تحرك يكشف عن وجود الداخل أساساً في المكان خلف الباب أم لا.. أي إن وظيفة العين السرية تتحول إلى أداة تكشف عمن في الخارج وهويته دون وعيه بأن هناك أحداً بالداخل هذا أولاً، وثانياً وهذا الأهم أن هذا المتخفي في الداخل سينكر نفسه عن الظهور والبروز ويمارس فضيلة التخفي وعدم الإعلام أو الإعلان عن وجوده لأنه لا يرغب في التواصل مع القادم وهذا عين الفداحة في القيم الجديدة أحياناً. وإمعاناً في الكشف تكون العين السرية أكثر وقاحة في الكشف حين تكون مزودة بكاميرا تفضح من في الخارج وتوضحه وضوحاً كاملاً وحركاته وسكناته من خلال شاشة تكشف أبعاد المكان الأوسع وتفضح مشاعر الخارج أكثر.

إذاً بهذه العين السرية وتلك الكاميرات الكاشفة يتحول الباب إلى فاضح لسلوكيات الإنسان المعاصر، الذي بدأت سلوكياته وقيمه وقيم الجماعة في التحول من قيم كانت تشجع التواصل والتعاضد وتثمن قيم الكرم والقبول والترحيب بأي قادم سواء كان من الأهل والمعارف أو من الأغراب.. فربما كان القادم مرحباً به ويقدم له كرم الضيافة والقبول ما دام وطأ المكان وقصد أهله سواء كانوا سكان خيمة أو دار كبيرة أو صغيرة أو حتى قصر منيف .. كان للقادم شرف الاستقبال وطقوس الضيافة وتقديم كل غالٍ ورخيص لضيافته وفق أصول مرعية يحافظ عليها الجميع في ظل تقاليد حميمة تنمي هذه الشعيرة وتثمنها.. القيم التي أثرت فيها حضارة البلاستيك والاستهلاك وقيم المادة والنفعية تبدلت بعض الشيء نحو نكران ما كان واستبدال هذه السلوكيات وتلك القيم الحميدة بأخرى تعظّم العزلة والوحدة والنفور من الضيف أو القادم، هذه العين السرية أو الكاميرا الفاضحة جعلتنا نقسم الناس إلى فئات أو في هذا السياق إلى فئتين إحداهما غير مرغوب فيها ولا في لقائها وأخرى مرغوب فيها ومرحب بها وسيتم فتح الباب لها رغم أنف الجميع سواء في نظر القيم التي تعني التواصل والكرم وحسن الضيافة وجميل الاستقبال أو في ظل القيم الجديدة. في الزمن القديم والجميل كان الباب يعبّر عن سلوك الناس وقيمهم وأحوالهم وينبئ عن أخبارهم، يدلك على محتواهم وكرمهم وقيمهم وما يملكون من قيم وسلوك كبيرهم وصغيرهم لأنها قيم جامعة فكان الباب لا يوصد ولا يغلق في وجه قريب أو غريب بل كان الباب المفتوح يمثل طاقة التواصل بسلاسة وانسجام بين الداخل والخارج، وكان الباب المفتوح على مصراعيه - أو حتى الموارب - دليلاً على كرم أهل الدار أو الأهل القاطنين في هذه الدار، وأن القادم مرحب به، والباب المفتوح عنوان على تلك النية المستدامة بالكرم وحسن القبول وبغض النظر عن الحالة الاجتماعية أو الاقتصادية لأهل الدار وأصحاب هذا الباب المفتوح.

أما الآن فإغلاق الباب يعني تحلل هذه القيمة الاجتماعية وهذه الوشيجة على الأقل في الظاهر بإغلاق الباب أولاً والذي أصبح يغلق خوفاً من عدم الأمان ربما وهي أحدى السمات التي أصبحت موجودة في مجتمعات لا تطمئن على أمانها في ظل وجود أغراب أو عدم تعاون وتعارف وتعاضد وفي ظل انعزال فرضته المدينة الحديثة وقيم السلوك والتوحد الذي بات يؤمن به الإنسان المعاصر بعد أن تخلى عن قيم القبيلة والجماعة والناس الطيبين. ولذا فتحوّط هذا الإنسان بالعين السرية كي يكشف مَنْ في الخارج ولا يسمح له بالدخول لأنه من حزب غير مرغوب فيه أو لانعدام قيمة الترحاب والكرم وحسن الضيافة.

العين السرية: أداة من أدوات الحداثة تتماشى وتتماهى مع هذه القيم المادية التي قدمت مع التكنولوجيا ومع الآخر الذي اقتحم حياتنا بموروثات لا تتسق وعاداتنا، وسلوكيات لا تتفق وقيمنا: قيم الشهامة وكرم الضيافة واستقبال الآخرين والغرباء، والأساس هو الترحاب بهم واستيعابهم والانشغال بهم، أما الحداثة وآلياتها فقد قدمت لنا قيماً مادية تتوافق ومنطلق الربح والخسارة والقيمة وماذا عن الكسب النهائي. هذه البراجماتية وواقعية التطرق في التعامل بين البشر.. الإنسان والإنسان يجب أن يخرج من سباق هذه الحسابات الضيقة التي تبحث عن المادة وتغفل قيمة الروح والتعامل الإنساني والفائدة الإنسانية الكبيرة التي تتوافق ومتطلبات النفس والشعور بالذات، وتعلية قيمة الإنسان وقيمة السلوك العالي الرفيع المستوى الذي يجب أن يتحلى به الإنسان كي يتعامل به مع ذاته ونفسه والآخرين. أما عين الباب السرية فإنها تدخل في نطاق سلوكيات الربح والخسارة في المادة وفي الوقت.. سأنظر منها إلى القادم وأسأل نفسي وفق قيم الاستهلاك والمادة ماذا سأستفيد من فتح الباب للطارق القادم (الزائر)؟ ربما سأضيع معه وقتي حتى لو كان غير ثمين.

هذا القياس الفاسد لعلاقات البشر خرجت عن نطاق علاقات الروح والإنسانيات التي أولاً تعمر الوجدان وتثري النفس وتؤكد على بشريتنا وعلى أننا بشر بيننا علاقات إنسانية وعلاقات نسب ودم ومصاهرة وجوار وأبناء عشيرة وحي ومدينة ووطن، بيننا مشتركات وبيننا خير يقاربنا من بعضنا، ومقاربات دينية ودنيوية وجماعية ووطنية وروح تجمع شتاتنا لتكون لحمة ودم وعشيرة ويد واحد متعاضدة في الملمات وفي الثوابت والشدائد، وفي ساعة الرخاء واللين والهدوء أيضاً، أما «عين الباب السرية» فإنها حدث مضاد لوعينا الجمعي ولقيمنا الدينية والعربية والاجتماعية.. إنها أحد رموز الزمن الذي هطل علينا معلوماً بقيم تحاول طمسنا وقتل كل ما هو جميل فينا وكل ما هو دافئ في علاقتنا الإنسانية فيما بيننا. إنها بعض أفكار وافدة تشيطن الأشياء وتجعلها في خدمة سلوكيات وافدة تنظر بعين غير راضية للآخر فتفرزه في خانات مرغوب أو غير مرغوب.. مطلوب أم غير مطلوب.. وقيمنا الإنسانية والجماعية تؤمن بأن الجميع واحد وأهل الديرة وأهل الحي أو الفريج أو المدينة أو الوطن واحد. فلا باب يغلق في وجه أي من كان. الباب المفتوح كان علامة من علامات الأمان ودليلاً قوياً على أن الجميع يحب الجميع ولا غريب إلا الشيطان..

أما الآن فالأبواب التي كانت في عزيمتها الترحيب والتهليل للجميع حولتها الحداثة إلى الإغلاق في وجه الجميع وجعلت من العين السرية عين شريرة للفرز والإنكار والتخفي عن الآخر القادم بحسن نية ربما للمؤانسة ولإثراء الوقت بسعادة ولقاء وود ومحبة ■

البحيرة المسحورة (الفيوم)

ضياء الدين الحفناوي

الفيوم مدينة تضرب بجذورها في أعماق التاريخ المصري والبشري والتي اشتهرت قديماً باسم واحة الفيوم، وكانت المنطقة في مصر القديمة معروفة بخصوبتها ووفرة الحياة النباتية والحيوانية فيها، وتقع الفيوم على بُعد 62 ميلًا (100 كيلومتر) جنوب ممفيس (القاهرة الحديثة) وكانت ذات يوم حوضاً صحراوياً قاحلاً ثم أصبحت واحة خضراء عندما غمر أحد فروع نهر النيل بالمياه أراضيها وتحوّل مجراه إليها وامتلأ الحوض مما جذب الحياة البرية ونمت النباتات ولاحقاً انجذب البشر إلى المنطقة في وقت ما قبل القرن الميلادي السابع 7200 ق.م.

السكن المبكر

يعود تاريخ الأدلة على السكن البشري في منطقة الصحراء الكبرى إلى عام 8000 قبل الميلاد وهاجر هؤلاء الناس نحو وادي نهر النيل ووفقاً لعلماء مصريين تم اكتشاف آثار لأقدم مجتمع زراعي بلا منازع في مصر في (مريمدة بني سلامة) وهو موقع على الحافة الغربية للدلتا يعود تاريخه إلى عام 4750 قبل الميلاد، وقد تم قبول هذا التاريخ من قِبل المجتمع العلمي لعقود من الزمن حتى عام 2007م، وتم اكتشاف أنقاض مجتمع زراعي قديم في الفيوم يرجع تاريخه إلى عام 1800م. كما تم العثور على فخار يعود تاريخه إلى 5200 قبل الميلاد.

في الوقت الحاضر تشير الفيوم إلى مدينة الفيوم الحديثة ولكنها في العصور القديمة كانت تشير إلى المنطقة بأكملها التي تدعم عدداً من القرى والمدن الكبيرة والمزدهرة، مثل: شديت المعروفة باسم كروكوديلوبوليس قديماً، وكرانيس، وهوارة، وكاهون، وفي الواقع الاسم مشتق من الكلمة المصرية القديمة تعني البحيرة أو البحر (باي ييوم) وتشير إلى بحيرة موريس التي أنشأها أمنمحات الأول نحو 1991-1962 قبل الميلاد من الأسرة الثانية عشرة في العصر الأوسط شرق المملكة حيث أولى لها ملوك الأسرة الثانية عشرة على وجه الخصوص اهتماماً خاصاً.

ذروة الرخاء

في عصر الأُسر المبكرة (نحو 3150 - 2613 قبل الميلاد) يبدو أن المنطقة قد أهملت إلى حدٍّ كبير من قِبل هذه المستوطنات، على الرغم من أنّها كانت لا تزال مأهولة بالسكان، ولكن في فترة المملكة القديمة (نحو 2613 - 2181 قبل الميلاد) تم إهمال المنطقة من جديد، وكانت الفيوم مرة أخرى جنة برية

خصبة وأصبحت المكان المفضل لصيد الحيوانات البرية من قِبل النبلاء المصريين وفي هذا الوقت، كانت الفيوم تُعرف باسم (تا - شي) أو أرض البحيرات الجنوبية من قِبل ملوك ممفيس الذين سجّلوا رحلاتهم هناك، وكانت منطقة مأهولة بالحياة البرية في المقام الأول على الرغم من وجود قرى متفرقة هناك وفي أوائل الدولة الوسطى، أمر أمنمحات الأول ببناء أعمال القناة على طول بحر يوسف التي غمرت الفيوم وأنشئت بحيرة موريس الكبرى ويمكن أن تكون هذه البحيرة هي المشار إليها في العمل الأدبي للمملكة الحديثة المعروف باسم (ستنا الثانية)، حيث هزم حكيم مصري عظيم ساحراً نوبياً كما تقول الأسطورة وقد يبدو أن خليفة أمنمحات الأول (سنوسرت الأول) نحو 1971- 1926 قبل الميلاد شعر بأن البحيرة كانت ترفاً كبيراً للغاية، فحاول استصلاح الأراضي الزراعية الرئيسية في المكان ولذلك أمر ببناء سلسلة من القنوات لتصريف المياه وسقاية المزروعات.

كان نظام قناة (سنوسرت الأول) يعمل بسلسلة من المكونات الهيدروليكية التي نقلت المياه من حوض الفيوم إلى أماكن أخرى مع الحفاظ على المسطحات المائية هناك، وكانت النتيجة استصلاح الأراضي الخصبة وقد خلف سنوسرت الثاني ابنه سنوسرت الثالث (نحو 1878-1860 قبل الميلاد)، الذي يعتبر أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة المثيرة للإعجاب بالفعل. وقد اشتهر سنوسرت الثالث بانتصاراته المتتالية على النوبيين وإعادة تقسيم مصر لقطع سلطة حكام المناطق، ولكن هذه الإنجازات لم تكن سوى جانب صغير من عهد لخص القيمة الثقافية المصرية والانسجام والتوازن ورفع الدولة الوسطى إلى أعلى مستوياتها. وكان عهد سنوسرت الثالث بمثابة ذروة الازدهار للمملكة الوسطى بشكل عام والفيوم بشكل خاص وكان خليفة سنوسرت الثالث هو أمنمحات الثالث (نحو 1860-1815 قبل الميلاد).

التراجع

في بداية الأسرة الثالثة عشرة من الدولة الوسطى افتقرت

الأسرة الثالثة عشرة إلى القوة والتركيز التي كانت تتمتع بها الأسرة الثانية عشرة وتدهورت الدولة ببطء مع كل حاكم متعاقب وفي النهاية ركز النبلاء على متعتهم ودراماتهم الشخصية أكثر بكثير من التركيز على مصلحة البلاد. وشهدت الفترة الانتقالية الثالثة (نحو 1069 - 525 قبل الميلاد) التي أعقبت المملكة الحديثة تقسيم حكم مصر بين تانيس وطيبة وهما حُكّام من ليبيا والنوبة وجاء في نهايتها الغزو الفارسي وكانت الفترة المتأخرة (525 - 332 قبل الميلاد) وهي حقبة تم تداول البلاد فيها بين الفرس والمصريين حتى غزا الفرس البلاد، واستولى الإسكندر الأكبر على مصر من الفرس عام 332 قبل الميلاد، وبعد وفاته استولى عليها أحد جنرالاته، بطليموس الأول سوتر (323 - 285 قبل الميلاد) مؤسس الأسرة البطلمية وكرّس بطليموس الأول وخليفته المباشر بطليموس الثاني فيلادلفوس (285 - 246 قبل الميلاد) اهتماماً كبيراً بالفيوم، حيث قاما بإصلاح وتجديد الآثار والمعابد والقنوات والمباني الإدارية التي كانت قد تدهورت، وقام بطليموس الأول بتجفيف بحيرة موريس للحصول على المزيد من الأراضي الصالحة للزراعة، وخصص بطليموس الثاني الكثير من هذه المنطقة الخصبة للمحاربين القدامى اليونانيين والمقدونيين الذين قاموا بتحسينها. وبعد سنوات من الإهمال في أواخر عهد الأسرة البطلمية أمر الملك أغسطس بإجراء إصلاحات واسعة النطاق للمنطقة على المستويات كلها وأعاد الفيوم إلى الحياة، على الرغم من أن الفيوم بقيت موجودة طوال الفترة الرومانية حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وكانت

بمثابة مركز المقاومة المصرية للعرب، إلا أنها لن تعود أبداً إلى عظمتها وازدهارها السابق كما في ظل الحكم العربي، وستشهد بالتأكيد فترات من المحاصيل الوفيرة والتجارة المزدهرة وزيادة عدد السكان مرة أخرى. وفي يومنا هذا، أصبحت المنطقة، مرة أخرى، منطقة زراعية غنية بسبب جهود الحفاظ على البيئة والتحسينات في زراعة الأراضي كما تم الحفاظ على عدد من الآثار المصرية القديمة المثيرة للإعجاب في جميع أنحاء المنطقة، ورغم من أن المنطقة قريبة نسبياً من القاهرة إلا أنها لا تستقبل الكثير من السياح، فالفيوم قليلة السياح والزوار في الواقع مع أنها مملوءة بالعجائب التاريخية التي لا تعد ولا تحصى، وليس ذلك فحسب بل فيها العديد من المفاجآت الطبيعية أيضاً.

وادي الريان

وادي الريان هي محمية طبيعية تقع على بُعد 75 كيلومتراً من مدينة الفيوم. تبلغ مساحة هذه المحمية 1759 كيلومتراً مربعاً. تم الإعلان عنها كمنطقة محمية في عام 1989م، ووادي الريان زاخر بالمناظر الطبيعية المذهلة والواحات والجبال والتكوينات الصخرية. وتحظى منطقة وادي الريان باهتمام علماء الآثار والجيولوجيين، فهي مملوءة بالحفريات البحرية والبقايا الأثرية. يتكون وادي الريان من سبعة أجزاء: البحيرات العليا، والسفلى، وينابيع الريان، وشلالات الريان، وجبل المدورة، وجبل الريان، بالإضافة إلى وادي الحيتان وكل جزء له جماله وتفرده وتعد هذه المحمية التي تبلغ مساحتها 1759 كيلومتراً مربعاً موطناً لأنواع مختلفة من الحياة البرية وتشمل: الغزال الأبيض، والغزال المصري، والثعالب الرملية، وثعالب الفنك، بالإضافة إلى العديد من الطيور المقيمة والمهاجرة، وأنواع مختلفة من النسور والصقور وفي الواقع أن سحر وادي الريان لا يفشل في إثارة إعجابنا أبداً.

بحيرة قارون

بحيرة قارون من أهم البحيرات الطبيعية القديمة، وتقع على بعد 20 كيلومتراً من الفيوم ويبلغ طولها 1155 كيلومتراً. ويتراوح عمق البحيرة من خمسة أمتار شرقاً إلى ثلاثة عشر متراً غرباً. البحيرة في الواقع هي الجزء المتبقي من بحيرة قديمة تسمى موريس. كما تُعرف بحيرة قارون عالمياً بأنها «منطقة مهمة للطيور»، حيث تستريح آلاف الطيور المهاجرة أثناء هجرتها الشتوية جنوباً وهذه الصفات الفريدة للبحيرة تجعلها مكاناً مثالياً لممارسة العديد من الألعاب الرياضية.

معبد قصر قارون

قصر قارون هو معبد بطلمي تم بناؤه عام 4 قبل الميلاد وتم

تخصيص هذا المعبد (لسوبك) إله الفيوم ويتكون المعبد من 3 طوابق (نحو 13 متراً) وقطعة أرض مساحتها 180 متراً مربعاً تقع على بعد 65 كيلومتراً من مدينة الفيوم عند الطرف الغربي لبحيرة قارون شرق قرية قصر قارون، ويظل قصر قارون طوال العام في ظلام دامس باستثناء يوم 21 ديسمبر وفي هذا اليوم الذي يوافق الانقلاب الشتوي تصطف الشمس على قدس الأقداس في المعبد حيث توضع تماثيل سوبك وتعبد قديماً.

هرم هوارة

تقع قرية حوارة كما كانت تسمى قديماً حيث يقع هرم حوارة على بعد 9 كيلومترات من مدينة الفيوم وقد عرفت القرية منذ القدم، وكانت تسمى هات وارت أي (الخطى). وتم صنع هرم هوارة لأمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة في مصر القديمة وتقع على بعد نحو 9 كيلومترات شرق واحة الفيوم وتم بناء هذا الهرم من حجارة الطوب ثم تمت تغطيته بالحجر الجيري الأبيض ولسوء الحظ لم يبقَ في الوقت الحاضر سوى قلب الهرم المبني من الطوب ولهذا السبب يطلق عليه أحياناً الهرم الأسود ويتمتع هرم هوارة ببنية مختلفة عن الأهرامات الأخرى التي بنيت في عصره ويعتقد أنه تأثر بتصميم هرم سقارة المدرج كما أن مدخل الهرم يقع في القسم الجنوبي على عكس الأهرامات الأخرى التي تكون مداخلها في قسمها الشمالي.

هرم ميدوم

ويُنسب هرم ميدوم عادةً إلى (هوني) آخر ملوك الأسرة الثالثة عشرة على الرغم من أن اسمه لا يظهر في أي مكان في الهرم وقد دفع هذا بعضهم إلى الاعتقاد بأنها ربما كانت مملوكة لابنه سنفرو الذي يظهر اسمه على الجدران في معبد صغير في الموقع، ويُعتقد أيضاً أن هوني ربما بدأ البناء ولكن سنفرو أكمله نظراً لأن سنفرو لديه بالفعل مجمعين هرميين في دهشور، وبدأ هرم ميدوم كهرم متدرج ثم تم تحويله إلى هرم حقيقي، ويقع هذا الهرم على بعد 30 كيلومتراً من مدينة الفيوم ويمثل فترة الانتقال من عصر الأُسر المبكرة إلى عصر الدولة القديمة نظراً لكونه أول محاولة حقيقية للمصريين القدماء لبناء الهرم.

هرم اللاهون

تم إنشاء هرم اللاهون منذ 4000 عام على يد فرعون الأسرة الثانية عشرة سنسرت الثاني، تماماً مثل هرم ميدوم ويقع مدخل هذا الهرم في الجانب الجنوبي وهذا ما يجعله فريداً من نوعه، حيث إن أهرامات مصر الأخرى عادةً ما يكون لها مداخل على جانبها الشمالي ويقع هرم اللاهون على تلة ارتفاعها 12 متراً وتبعد عن محافظة الفيوم مسافة 22 كيلومتراً وتم اكتشافه عام 1889م من قِبل عالم الآثار البريطاني ويليام بيتري وجرى ترميم الهرم مؤخراً من قبل الحكومة المصرية في عام 2019.

نواعير الفيوم

ويوجد في مدينة الفيوم أكثر من 200 ناعورة منتشرة في جميع أنحاء منخفضها، هذه النواعير مصنوعة من الخشب الأبيض المسمى «عزيزي»، وقد حافظت على ري أراضي الفيوم المزروعة جيداً منذ العصر الروماني، فالعجلات لا تتوقف حيث تتحرك بقوة تيار النهر عبر المجاذيف العريضة وتمتلئ الصناديق الموجودة على الحافة بالماء، ثم تلتقطه وتسكبه من الفتحات الموجودة على جوانبها عندما تصل إلى الأعلى في أنبوب ينقل الماء إلى الحقول، وتحظى المدينة بشعبية كبيرة بسبب وجود هذه النواعير التي لا تتوقف إلى حد أن

رمز المدينة هو سبع نواعير سوداء. وتقع أكبر هذه العجلات في قرية بسيونية على بعد 14 كيلومتراً شرق الفيوم. توفر هذه الساقية المياه العذبة لمساحة 37 هكتاراً من الأراضي المزروعة.

وادي الحيتان

يقع وادي الحيتان في الصحراء الغربية في مصر، وكما يوحي اسمه فإن الوادي له علاقة كبيرة بالحيتان. إنه المكان الوحيد في العالم كله حيث يمكن للمرء مشاهدة الهياكل العظمية لعائلات الحيتان القديمة في بيئتها الأصلية. ويتميز وادي الحيتان باحتوائه على نسبة غنية من حفريات الفقاريات واللافقاريات.

تساعد حفريات الحيتان الموجودة في الوادي في الإجابة على أسئلة مهمة حول التطور، ومع ذلك فإن الوادي لديه المزيد ليقدمه فقد أصبحت مؤخراً وجهة شهيرة لمراقبي النجوم الذين يبحثون عن سماء صافية ليتمكنوا من رؤية النجوم الرائعة، لذا إذا كنت تبحث عن رحلة للاسترخاء والراحة فهذه هي وجهتك. (البحيرة السحرية) هي بحيرة مخفية رائعة تقع في وادي الحيتان في الفيوم سميت البحيرة بهذا الاسم لأن ألوانها تتغير حسب الوقت من اليوم وكمية شروق الشمس التي تتسرب من خلالها.

مدينة ماضي

يقع الموقع الأثري لمدينة ماضي في موقع استراتيجي يحرس المدينة ويبعد الموقع عن مدينة الفيوم مسافة 35 كيلومتراً، ولقد تغير اسم المدينة مرات عدة، ويعتقد أن اسمها الحالي مأخوذ من كلمة «ماضي» العربية وتعني الماضي إذن فهي مدينة الماضي.

قرية تونس

تقع قرية تونس في واحة الفيوم على الطريق المؤدي إلى وادي الريان على بعد ساعتين فقط بالسيارة من وسط مدينة القاهرة، وتطل القرية على بحيرة مالحة، وتعتبر من أجمل قرى مصر، وحتى وقت قريب كانت قرية تونس مجتمعاً غير معروف لصيد الأسماك، لكن تونس لها سحرها الخاص فهي صغيرة ومذهلة وسلمية بشكل لا يصدق، وشهرة القرية تأتي من إنتاجها الفخاري الرائع أيضاً، فقد بدأ كل شيء في الثمانينيات من القرن الماضي عندما قامت (إيفلين بوريت) وهي صانعة فخار سويسرية بزيارة القرية مع صديقاتها المصريات، ولم يمضِ وقت طويل حتى قررت بناء منزلها الريفي في تونس والانتقال إلى هناك إلى الأبد، ثم افتتحت محلاً لصناعة الفخار في منزلها حيث قامت بتعليم الحرفة للعديد من السكان.

إن الجولة في مدينة الفيوم لأيام عدة تعد حقاً راحة ممتعة في التاريخ الإنساني والمصري على وجه الخصوص، فهي دليل على أن الانسان يصنع المستحيل على مر العصور رغم كل الظروف، ويطوع البيئة المحيطة لصالحه بذكاء شديد دائماً ■

كاتب مصري

المخايل

إعداد: نايلة الأحبابي

الشاعر حمد حارب راشد العميمي

طالـــــب زيـــن الفضايـــــل
مـــــده مالـــــه عـــــدد
لـــــي ينشـــي بالمخايـــــل
فيهـــــن صـــــوت الرعـــــد
البـــــرق فيهـــــن يايـــــل
بيـــــن مزونـــــه ورد
مـــــن كـــل هـــــم ظايـــــل
أقصانـــــي فـــــي اليـــــسد
مطنوفـــــك والزمايـــــل
واللـــــي منهـــــن رغـــــد
شممهـــــن لـــــه دبايـــــل
يـــــن بـــــروس الحـــــدد
والنبـــــت يـــــازم طايـــــل
عـــــوده زاف وفـــــند
مـــــاهـــــو بقولـــــه قايـــــل
بمشافـــــي فـــــي الـــــردد

القصيدة للشاعر حمد حارب راشد العميمي، وهو من مواليد منطقة «بدع المغنّي» الواقعة شمال منطقة ناهل، عام 1910م، وتوفي في مدينة العين عام 2005م. والقصيدة استغاثة وابتهال كتبها الشاعر على لحن الونة القصير، وقد بدأ فيها بالدعاء والطلب من الله - سبحانه وتعالى - أن يرسل غيثاً مغدقاً يسمع رعده ويرى برقه شاعلاً بنوره مبشراً بالحيا... فتطيب به النفس ويشفى منه الجسد وتفرح الإبل بهطوله لترفع شممها عالياً، فتغدو كالحراب المسننة ويغدو العشب طويلاً ويخضّر عوده مرتوياً بماء المطر. وتتسم الألفاظ بأصالة المفردة ووضوح المعنى في مجمل القصيدة، كما وردت مفردات مميزة للبدوي الأصيل الذي يعيش في بيئته ويأمل أن يرى الغيث والحيا فترتوي الأرض ويظهر الزرع والكلأ، ويسعد به البشر والشجر والمواشي التي تغاث بالمطر وبالنبات وترعى في عشب نما وسما طويلاً وارفاً ظليلاً. كما احتوت القصيدة على تشبيهات بلاغية في قوله تشبيه الإبل حينما ترفع رؤوسها بالجن وبالحراب المسننة الحادة. واكتمل النسيج الإبداعي الشعري بسلاسة المعنى وتلقائية الشاعر الإيمانية، وتوجهه بالدعاء والاستغاثة ووضوح الفكرة ببحر خفيف يمثل البيئة الشعرية المفعمة بالعروبة والأصالة.

معاني المفردات: مَدَّه: عطاؤه وفضله. المخايل: السحب المنذرة بهطول المطر. يايل: يجول البرق بين المزون. قصاني في اليسد: أتعب الجسد. مطنوفك: الإبل يطنفون أي يردون. الزمايل: الإبل. رغد: الإبل التي ترعى في العشب. عوده زاف وفند: ارتفع وتعدى حده. شممهن له دبايل: أنوف الإبل ارتفعت فرحة مستبشرة بالمطر.

ارتياد الآفاق

رحلة استيبانكو الأزموري إلى أمريكا الشمالية

أول مغربي يطأ أرض الهنود الحمر عام 1539م

محمد عبد العزيز السقا

رحلة استيبانكو الأزموري إلى أمريكا الشمالية

أول مغربي يطأ أرض الهنود الحمر عام 1539م

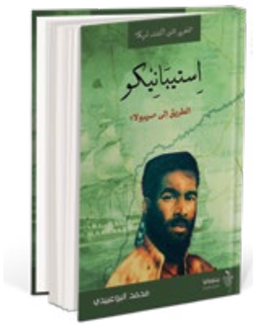

محمد عبد العزيز السقا

مطلع القرن السادس عشر ميلادي، في مدينة أزمور على ضفاف نهر أم الربيع[1] عام 1503م، ولد الفتى المغربي سعيد بن حدو المعروف باسم مصطفى الأزموري، وعقب الاحتلال البرتغالي للمدينة بعشر سنوات بيع في سوق الرقيق ضمن الكثير من المغاربة الذين وقعوا في الأسر، ثم بِيع في أشهر أسواق الرقيق في إشبيلية لأحد النبلاء الإسبان، وبعد أن اشتراه عمّده باسم نصراني هو «استيبانكو» Estevanico أو استيفان الصغير، ليصير عبده ووصيفه وخادمه الشخصي.

سيلعب «استيبانكو» دوراً محورياً في استكشاف جنوب أمريكا، الولايات المتحدة الأمريكية الحالية، إذ يعتبر أول أجنبي أسمر اللون من بلاد المغرب يصل إلى الأرض التي أصبحت فيما بعد أكثر من قرنين واحدة من كبريات الدول في العالم الحديث، وهناك مات الأزموري في مدينة سيبولا[2] الأسطورية إحدى مدن الذهب السبع لدى الهنود الحمر.

في خريف عام 1527م انطلقت الرحلة الاستكشافية التي ضمت ثلاثمئة رجل داخل فلوريدا، يقودهم «دي نارفاييز»[3] ومعه (40) حصاناً لم يضع في حسبانه أن مغامرته هذه قد تدوم طويلاً، وقد تكون هي المغامرة الأخيرة له، ومن معه، لم يكن أحد منهم يتصور أنه لن ينجو من تلك المغامرة إلا أربعة أشخاص، على رأسهم «استيبانكو» الذي حاز الشهرة واعتقت رقبته.

مرّت ثلاثة أشهر وسط الأدغال والمستنقعات والمواجهات مع الهنود. توفي خلالها أربعون فرداً من أعضاء الحملة، إما بسهام قبيلة (البويبلوس) الهندية وإما من جراء الأمراض والجوع والغرق. لم يعثر الفاتحون على الذهب الذي كانوا يسعون إليه، وتبخّر حلمهم. وقرر القائد العودة إلى خليج بامبا والعودة من حيث أتوا، لكن المفاجأة الكبرى أنه لم يجد مراكبه ولا رجاله الذين تركهم على الساحل. لم يبق أمام القائد من خيار إلا إنقاذ نفسه ومن معه من خلال صنع قوارب بديلة للرحيل، وعملوا طوال ستة أسابيع حتى لم يبق لديهم سوى حصان يتيم لأنهم كانوا يقتاتون لحوم جيادهم واستخدموا ملابسهم لتصبح أشرعة وأبحروا، لكن بعد يوم أو يومين تعفن الماء المخزون

في قرب مصنوعة من جلود الجياد ولم يعودوا يمتلكون سوى قليل من الشعير. ظلت مياه المسيسيبي تتلاعب بهم وتهددهم بالموت وهم يعانون الجوع والعطش وحرارة الشمس، لكن حظهم كان أفضل من حظ الآخرين الذين غرقت قواربهم باستثناء واحد كان يقوده دي فاكا[4].

التقى الناجون من ركاب القاربين وعددهم ثمانون فرداً من ضمنهم قائد الحملة بانفيلو دي نارفاييز على شاطئ جزيرة أطلقوا عليها اسم (مالهادوا) أي التعاسة، تمكّن المركبان من السير على سواحل لويزيانا طوال أربعة أيام لكن زوبعة عنيفة فرقتهما وانتهى أمر مركب استيبانكو إلى جزيرة «كاليفستون» وكان ذلك في عام 1528م، أما الباقون فذهبوا ضحية الجوع والعطش أو قتلوا على يد الهنود.

أخذ الهنود الأزموري ورفاقه الثلاثة وعامل السكان الأصليون الأربعة بطيبة فتبخر هلعهم وظل الأربعة في الأسر مدة خمس سنوات، وفي إبريل عام 1534، أثناء غياب أهل القرية التي كانوا فيها، قرر الأربعة (استيبانكو - ودورانتيس - وكاستيو - وكابيزادي فاكا) الفرار في اتجاه المكسيك وهكذا انطلقت رحلة الأربعة من جديد من الشرق إلى الغرب.

في عام 1535م توجه الأربعة نحو المكسيك وعبروا النهر الكبير، واستخدموا بعض معرفتهم بالأمور العلاجية، فعالجوا بعض السكان الأصليين، وشاع خبر معجزات الأسود والبيض الثلاثة في إنقاذ الناس من الموت مرضاً فبدأت قوافل الهنود الحمر ترافقهم من قرية إلى أخرى وتهديهم الأكل والشراب وجلود الغزلان وأغطية القطن والأحجار الكريمة ومنحوتات نحاسية. وبقدر ما ذاع صيت الرجال الأربعة أصبحت الحكايات حول قدراتهم الخارقة تسبقهم ما أكسبهم هيبة بين القبائل. وأطلقوا عليهم لقب (أبناء الشمس). التحق استيبانكو بالحامية العسكرية الإسبانية الموجودة في مرسيسان - ميغل دي كوليكان التي ستنطلق منه للوصول إلى العاصمة المكسيكية في عام 1536م.

في يوليو 1536م سيصل الأزموري والناجون الثلاثة إلى المكسيك من أول حملة استكشافية لفلوريدا والذين رددوا على مسامع وكيل الملك الإسباني هناك أونطونيو مندوزا، أن هناك مدناً ذهبية أهمها مدينة سيبولا الأسطورية بل إن استيبانكو أكد رؤيتها بعينه زاعماً بوجودها الفعلي، مما أدى بنائب الملك الإسباني في المنطقة إلى تعيينه ضمن حملة أخرى (الرحلة الثانية)، وفي فبراير 1539م يتخلى عنه رفاقه الثلاثة عائدين إلى إسبانيا ويبقى وحده قبل البدء بأهم مغامرة في تاريخ الاستكشافات الأمريكية.

انطلقت في عام 1539م تحت قيادة المبشر الراهب الفرنسيسكاني فراي ماركوس دي نيزا لاكتشاف مدن الذهب، التي كان مرشدها هو استيبانكو، للذهاب إلى سيبولا أو البحث عن مدن الذهب. تحركت الحملة في شهر فبراير وانقسم أفرادها كالسابق إلى قسمين إلا أن هذه المرة تقدم فريق يقوده استيبانكو وبقي القسم الثاني يقتفي أثر القسم الأول وكان يتزعمه الراهب فراي ماركوس دي نيزا، وكان استيبانكو يرسل إلى رئيسه باكتشافاته عن طريق رسل يحملون صليباً يدل حجمه على اقترابه من مدن الذهب الأسطورية. ونظراً

إلى شهرة استيبانكو التي اكتسبها في رحلته الأولى التي جعلته ابن الشمس القادر على علاج المرضى. فقد رافقه المئات من الهنود ليرشدوه إلى أكبر وأشهر مدن الذهب السبع الأسطورية وهي مدينة سيبولا.

تقول وثيقة تاريخية تعود إلى عام 1540م، مترجمة من الإسبانية إلى الفرنسية وذلك بعد أن انفصل استيبانكو عن الراهب إذ ظن أنه باستطاعته الاستحواذ على شرف اكتشاف مدن الذهب بمفرده وأن ذلك سيجعل منه رجلاً شجاعاً ومقداماً في نظر الآخرين. وهكذا ترك مسافة كبيرة بينه وبين باقي أفراد البعثة. وحل في سيبولا هو ومرافقوه الهنود. وصل استيبانكو إلى سيبولا محملاً بكمية من أحجار الفيروز الكريمة التي أهداها له البويبلوس. مرفقاً بعدد هائل من النساء الجميلات التي وهبها الهنود المرافقون له. وقد كان هؤلاء يلتحقون بركبه كلما عبر قبيلة معتقدين أنه سيحميهم من الأخطار ومرافقتهم لهم كفيلة باكتشاف العالم. لكن سكان سيبولا كانوا أكثر ذكاء من أبناء فصيلتهم المرافقين للزنجي. ولهذا فرضوا عليه الإقامة الجبرية في كهف خارج المدينة. واستنطقه حكماؤهم وشيوخهم لمدة ثلاثة أيام لمعرفة أسباب وفوده عليهم قبل أن يجتمعوا لتقرير مصيره. قال استيبانكو لهم بأن رجلين من البيض سيلتحقان به وبأنهما موفدان من طرف نبيل يعرف ما في السماوات وأضاف بأن الراهبين مكلفان بتلقين الهنود أصول الدين. لم يصدق زعماء سيبولا المغربي وظنوه جاسوساً لقبيلة تريد غزو أراضيهم ولم يتقبلوا أن يكون رسول البيض ذا بشرة سوداء. إضافة إلى هذا كله غاظتهم طلباته المتكررة بالحصول على الفيروز والنساء فقرروا قتله.

في سيبولا، لم يجد سعيد بن حدو الأزموري الذهب والأحجار الكريمة كما كان يظن بل وجد الموت فقط ينتظره وإن كانت الرواية الإسبانية الرسمية حول مقتله هي التي أوردناها فإن لهنود المنطقة روايات أخرى مغايرة يرددونها. فمثلاً تقول إحدى الروايات الخاصة بقبيلة هندية تسمى زوني التي تعتقد أن البومة طائر الموت ونذيره لأن قراب سعيد بن حدو الطبي كان مصنوعاً من ريش البوم فقد رأى الأهالي في ذلك نذير شؤم فقرروا قتله. كما أن هناك رواية مشابهة تقول بعث الأزموري إلى حاكم مدينة سيبولا رسولين حاملين آنية تحتوي على بعض الخيوط وريشتين واحدة بيضاء والأخرى أرجوانية اللون. ولما مثل الرسولان أمام حاكم المدينة وقدما له الآنية رماها على الأرض غاضباً حينما شاهد محتواها وأمر الرسولين بالرجوع من حيث أتيا وأنذرهما بأنه سيقتل جميع أصحابها إن هم دخلوا المدينة. لكن الأزموري تجاوز هذا الأمر واقترب من المدينة فألقي القبض عليه هو وأصحابه وفي اليوم التالي حاول الأزموري الفرار مع رفاقه غير أن حراس المدينة طاردوهم وقتلوا عدداً منهم وسقط الأزموري بعد أن أصابه هو الآخر أحد السهام.

كما تقول رواية أخرى هندية أن زعيم قبيلة سيبولا أمر بقطع أطراف استيبانكو وأرسل قطعة منها إلى زعماء القبائل حتى يتأكدوا من أن الأسود مجرد إنسان وليس ابناً للشمس. وكانت الرواية الإسبانية الرسمية حول مقتله هي الأقرب للصدق والتي تقول إن زعماء سيبولا لم يصدقوا المغربي وظنوه جاسوساً لقبيلة تريد غزو أراضيهم ولم يتقبلوا أن يكون رسول البيض ذا بشرة سوداء إضافة إلى كل هذا غاظتهم طلباته المتكررة بالحصول على الفيروز والنساء فقرروا قتله.

يعيد الكتاب الذي بين أيدينا اليوم - استناداً إلى عشرات الوثائق الأمريكية- بناء رحلة أول إنسان أسود من شمال أفريقيا إلى أمريكا الشمالية سنة 1539م، يروي محطات هذه الرحلة الاستكشافية المنطلقة يوم 17 يونيو 1527م بقيادة نارفاييز و600 مرافق من ضمنهم مصطفى الأزموري ستيفانيكو وسيده أندريس دورانتيس وأمين وموثق الرحلة كابيزا دي فاكا، كل ذلك يرويه لنا عربياً كتاب (أبكر رحلة شرقية إلى أمريكا الشمالية عام 1539م) لمصطفى واعراب، الكتاب ينسج حكاية هذا المغامر كأول أجنبي تطأ قدماه أراضي جنوب الولايات المتحدة الأمريكية الحالية، ويتصل بحضارة الهنود الحمر (زوني) ويعبر ما يسمى اليوم بأريزونا، وتكساس، ونيو مكسيكو. تقدم سردية هذه الرحلة محاولة جادة لكتابة السيرة المجهولة لاستيبانكو الأزموري، وقد منحت جائزة ابن بطوطة لهذا الكتاب وعومل معاملة مخطوط قديم، لكونه عملاً يمزج بين الوثيقة التاريخية والمخيلة الأدبية، ويعيد تركيب سيرة مصطفى الأزموري.

غير بعيد من أيامنا هذه، شاطرت الصفحة الرسمية لسفارة الولايات المتحدة الأمريكية في المغرب، منشوراً ذكرت فيه الأزموري وسردت القصة الفريدة لأول مغاربي يصل إلى أمريكا، ستيفن، استيبانكو، استيفان، كلها أسماء لرجل واحد اسمه الحقيقي مصطفى الأزموري، نسبة إلى أزمور المغربية، كان عبداً سابقاً وأصبح أول شخص من أصول أفريقية يستكشف جنوب غرب أمريكا خلال مشاركته في رحلة استكشافية في مطلع القرن السادس عشر، تحدث الأزموري ست لغات وعمل مترجماً شفوياً، ومعالجاً، ومرشداً، يتم الاحتفاء بإرث مصطفى الأزموري بالمتحف العربي - الأمريكي القومي بديربورن في ولاية ميتشغان. و"تشير المصادر إلى أنه كانت للأزموري قدرة كبيرة على التواصل مع السكان الأصليين، إذ كان يتعامل معهم على نحو مختلف عن طريقة تعامل الإسبان الذين كان هدفهم الأول الوصول إلى الذهب، ولا تزال ذكرى الأزموري حاضرة إلى اليوم في أمريكا، من خلال مهرجان يحمل اسم «استيبانكو» يقيمه الأمريكيون من أصل أفريقي في مدينة بنساكولا يخلد ذكرى الأزموري، كأول أفريقي تطأ قدماه «العالم الجديد»، كما أن ذكراه لا تزال حاضرة لدى بعض قبائل الهنود الحمر من خلال إحدى دمى «كاتشينا» التي يبجلونها والتي يشير بعضهم إلى أنها تمثل الأزموري الذي كان موضوع تقدير وتبجيل من طرف تلك القبائل. كان الأزموري ورفاقه أول من نقل للعالم الخارجي ثيران البافلو، التي كانت أكبر ثروة حيوانية في أمريكا الشمالية. أما اللغز المحير الأهم، فهو مصير الأزموري! وهل وصل إلى سيبولا؟ ومنح اللجوء من قِبل قبيلة زوني أم قتل بُعيد وصوله بأيام؟ وما سبب توسيع المسافة بينه وبين الراهب دي نيتزا؟ بعد أن ودعه في صحراء سينورا؟ الفرضية التي بدأت تطغى على باقي التصورات هي أنه لم يقتل، وما يدعم هذه الفرضية هو أن الأزموري دُعي للإقامة في معبد القبيلة، فهنود الزوني ربما على علم بمناقبه كطبيب روحاني، والأطباء الروحانيون في ثقافة هنود البايبلو لا يمكن مسهم بسوء، وربما أدركوا أنه لم يكن عدواً لهم وإنما جاءهم ظهيراً ونصيراً. لم يكتشف استيبانكو الأزموري مدن الذهب الأسطورية بالفعل، لكنه فتح - من حيث لا يدري - مناطق جنوب غرب الولايات المتحدة الأمريكية الحالية أمام الإنسان الأبيض، ليستوطنها ويشد على أنقاض قرى الهنود الحمر المحروقة مدناً جديدة يسكنها أحفاده.

من الكتاب:

ويبدو أن ذلك الاستقبال الحسن من هنود فلوريدا الحمر قد شجّع نارباير المتحمس جداً لمباشرة مهامه كحاكم للبلاد التي جاء يحمل لواء اغتصابها، وبينما كان يأكل طعامهم لم تتوقف لديه أسئلة تدور حول خبايا المنطقة. وفي صباح يوم الجمعة المقدسة وهو اليوم التالي لوصول السفن إلى خليج فلوريدا، غادر الحاكم بصحبة عدد من رجاله صوب اليابسة. لكنهم عند بلوغهم قرية الهنود الحمر وجدوا الأكواخ فارغة بعد أن هجرها سكانها خلال الليلة السابقة متسترين تحت جنح الظلام، تحسباً من نوايا الغرباء غير البريئة.

وأثناء تفتيش الأكواخ بأمر من الحاكم وكان أحدها كبيراً جداً بحيث يتسع لإيواء ثلاثمئة نفر تحت سقفه، وجدوا جلجلاً من ذهب خالص، ما شحذ ولا شك في نفوسهم أحلام الثراء التي كانت قد أنستهم إياها إلى حين أهوال العواصف البحرية والكوارث المتلاحقة عليهم منذ غادروا سواحل الأندلس البعيد..

وفي اليوم التالي، رفع الحاكم نارباير أعلام الإمبراطورية

الإسبانية معلناً نفسه حاكماً متوجاً باسم الرب والإمبراطور شارل الخامس على فلوريدا. وتمت إجراءات التتويج الشكلية بعد إنزال بقية الرجال من السفن والجياد أيضاً التي كان العدد المتبقي منها 42 جواداً فقط، وكانت في حال من الهزال والضعف بحيث لم تعد تصلح للاستعمال للركوب.

واستقر الوافدون الجدد من أوروبا في مساكن الهنود الحمر المهجورة ينوون أن يقيموا بها نواة مدينة جديدة. لكن السكان الأصليين عادوا بعد مرور يوم مطالبين من المحتلين بلغة الإشارات الخرساء التي لا تخلو من تهديد، أن يتركوا لهم مساكنهم ويعودوا من حيث أتوا. ولما اتضح لهم أن إشاراتهم الغاضبة لم تحرك شيئاً في عزم الغزاة، انصرفوا لحال سبيلهم مهزومين وقد أدركوا موقف الضعف البين الذي كانوا عليه.

وفي المقابل، كان حماس الحاكم المعين لفلوريدا بلا حد، حتى إنه لم يترك لرجاله فرصة لنيل ما يكفي من الراحة وأمرهم في اليوم الثاني بالتغلغل في عمق الأراضي التي تحيط بهم من أجل كشف ما تحويه من ناس وخيرات. وخرج على رأس بعثة مكونة من ثلاثة ضباط وأربعين رجلاً بينهم ستة فرسان كانوا يمتطون جياداً، وساروا بمحاذاة شاطئ الخليج الصغير الذي أرسوا فيه سفنهم..

لم تكن الطريق مرسومة في تلك الأرض البكر. فالأشجار الجميلة العالية تضج بحركة أصناف من الطيور بعضها سبق لأولئك المغامرين الأوروبيين أن رأوا ما يشبهها في غابات الأندلس كالجوارح والبط البري وإوز البحيرات ومالك الحزين.. بينما كان منظر كثير من أصناف الحيوانات الأخرى غير مألوف لديهم.

بيد أن ما كان يعوق تقدم موكب الرجال الجياع المنهكين بوعثاء السفر أكثر من هجمات الهنود الحمر المباغتة هو الأشجار الكبيرة التي أسقطتها الصواعق، وكانت تقطع عليهم الطريق بشكل يجعل تقدمهم في بعض المواقع غير ممكن إلا بعد الالتفاف عليها، بالإضافة إلى وجود البحيرات الكثيرة المنتشرة بلا نهاية على امتداد الطريق أيضاً. بعضها كان عميقاً جداً يجعل العبور عسيراً رغم استواء تضاريس الأرض في تلك المنطقة.

في ظل تلك الظروف القاسية، سار الحاكم الأعور [نارباييز] ورجاله مدة أربعة وخمسين يوماً أخرى، قطعوا خلالها مسافة تعادل ألف كيلومتر عندما لاحت لهم أخيراً في الأفق: أبالاتشي كانوا في حال بئيسة من الهزال والضعف بسبب الجوع والأمراض، تكسو أجسامهم الجروح، وفي الأقدام القروح بسبب المشي الطويل وهم شبه حفاة، وبسبب الأحمال والسلاح على الأكتاف أيضاً. لكن الأمل في أن مسعى البحث عن الذهب، الذي من أجله تحملوا الأهوال وصور الموت لم يخبُ بعد صبرهم الطويل، منحهم دفعاً معنوياً قوياً، وهم على مشارف أبالاتشي ■

باحث في أدب الرحلة

الهوامش:

1- مدينة أزمور: من أقدم الحواضر المغربية وأعرقها، تقع على الضفة اليسرى لنهر أم الرّبيع غير بعيد عن مصبّ النّهر في المحيط الأطلسي، بالقرب من الدار البيضاء، تروي التاريخ الحافل والأسطوري للمنطقة، أما اليوم فهي وجهة سياحية مميزة لقضاء العطلات، والاستمتاع بالمناظر الخلابة.

2- سيبولا (بالإنجليزية: Cibola County) إحدى مقاطعات ولاية نيو مكسيكو في الولايات المتحدة الأمريكية وإحدى مدن الذهب السبع، وهي مدن أسطورية فيما يعرف الآن بالجنوب الغربي للولايات المتحدة الأمريكية. كان المستكشفون الإسبان في المكسيك يعتقدون أن هذه المدن غنية بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وخلال الثلاثينيات من القرن السادس عشر الميلادي كان الهنود في شمال المكسيك يروون قصصاً للمستكشفين الإسبان عن حضارة غنية في الشمال، وكان من نتيجة ذلك أن قاد القسيس الإسباني ماركوس دي نيزا الرحلة الاستكشافية لاستكشاف الأرض من الشمال في عام 1539م.

3- بانفيلو دي نارفاييز Pánfilo de Narváez (1528 – 1480م) مغامر إسباني وكان نبيلاً من قشتالة، وهو أحد تابعي دييغو فيلاسكيز دي كويلار في حملته على كوبا واحتلالها، وبعد توليه مناصب عديدة في حكومة فيلاسكيز تم تعيينه على رأس حملة إلى المكسيك.

4- ألفار نونييز كابيزا دي فاكا (Cabeza de Vaca) مستكشف إسباني شهير 1507-1559م.

المراجع:

- استيبانكو الأزموري: مغامر مغربي في أرض الهنود الحمر: أبكر رحلة شرقية إلى أمريكا 1539م، تعريب مصطفى واعراب، إصدارات دار السويدي - المركز العربي للأدب الجغرافي وجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة 2009م.

- أساطير وحكايات ج2 - عالمنا المفقود، ليلة لطفي، دار الكتب للنشر والتوزيع، 2022م مصر.

- استيبانكو: المغربي الذي اكتشف أمريكا، محمد البوعبيدي، بيلومانيا للنشر والتوزيع، 2020، مصر.

الهاجس الإنساني في روايات علي أبو الريش

هيثم يحيى الخواجة

على الرغم من أن الرواية في دولة الإمارات العربية المتحدة لا تملك تاريخاً طويلاً، فإن بعض الروائيين جوَّدوا في إبداع الرواية، بحيث غدت بعض الروايات - على الرغم من قلتها - علامة فارقة في الإبداع، ما جعل التحليل النقدي لها يمنحها ميزة الجودة والتقدير. ومن المؤكد أن البناء الفني يحتل دوراً مهماً في الجودة، باعتباره يدفع الرواية إلى الأمام ويقنع المتلقي بجماليات الرواية.

ويعد الروائي علي أبو الريش واحداً من الروائيين الإماراتيين الذين ارتقوا بالرواية الإماراتية، سواء أكان ذلك في الموضوع أم في البنية الفنية أم في الاعتماد على علم النفس، الذي سمح له بالإيغال في النفس الإنسانية ونبش مالها وما عليها، فالنص الروائي لدى علي أبو الريش يحمل صفة الشغل الفني والاهتمام، وعلى الأخص فيما يتعلق بالسرد وعلاقته بالوصف والعرض والخطاب بصورة عامة وترتيب الأحداث وحركتها لدعم ما يسمى بالمفاجآت والتشويق والإقناع وغير ذلك، أي إن جودة الرواية والنجاح لا يقتصر على المضمون، وإنما للبناء الفني دوره الكبير لكونه يعين الرواية على التقدم، ولكونه من العناصر المهمة والرئيسية في تثبيت قواعد الرواية في النجاح والدخول إلى عوالم الفن والإبداع. وعلى الرغم مما تقدم فإن المضمون لاغنى عنه، ولا يمكن إغفاله في نجاح الرواية، ومن هذا المنطلق اخترت البُعد الإنساني في مضامين روايات علي أبو الريش[1]، ففي رواية (الاعتراف)[2]، ينزعج محمد لأن والده أطلق عليه لقب الحمار مع أنه صار واعياً، ما جعله يشعر

بقسوة أبيه، أما موزة فقد كانت تخاف من كلمات زوجها سمحان، فصوته القوي الصارخ وتنمره عليها جعلها تخشاه، خاصة حين يضربها ويزجرها، وعلى الرغم من ذلك فإنها صابرة وراضية لكي تظل إلى جانب ابنها، أما رفيعة فتفلسف موضوع الزواج من حيث التوقيت والعلاقة والحياة. ويستطيع الراوي أن يتلمس دخيلة صارم المملوءة بالحزن والعشق والحلم، كما يستطيع ملاحقة وتتبع حركات رفيعة ومشاعرها وأهدافها. إن صارمَ ومحمدَ شخصيتان محوريتان يعيشان حياة رومانسية فلا همّ لهم سوى تشجيع زواج المحبين، ولذلك كان مستقبلهما ضبابياً. وفي رواية (السيف والزهرة)[3]، ينزعج سلطان من الماضي اللعين الذي يلاحقه كالوحش الضاري يريد انتزاعه من الرفاه والغنى، لكي يرجعه إلى عهد الصداقة التي لا نفع منها. وفي الرواية نفسها يُظهر علي أبو الريش البُعد الإنساني، بحيث يفسر لنا سبب قلق سلطان وخوفه من الماضي المفعم بشقاوات والده وحياة الفقر والحاجة، أما البحر فهو مصدر الخوف الكبير له، لأنه في مده وجزره يشبه علاقته القائمة على المد والجزر. والجميل في الرواية الصورة الإنسانية التي التقطها المؤلف لوجه أم سلطان الحزين عندما عاد ووالده من الصيد دون سمك، لأنها تريد مضاعفة الرزق وزيادة الخير، خاصة أنها تحب جمع المال وتخاف من بقاء السلة خالية[4]. وهناك علاقة استثنائية بين أبي سلطان والبحر، وهناك تصميم على القوة والبقاء والعطاء، لقد صدق الأديب الناقد شكري عياد في كتابه (فن القصة القصيرة في مصر)، عندما قال: (إن فنان الرواية فيه شيء من الباحث الاجتماعي أو المؤرخ أو العالم النفسي أو هؤلاء جميعاً [5].

وتعكس رواية (السيف والزهرة) اهتماماً واضحاً بالبيئة التي تجمع بين الصحراء والبحر، ولهذا نراه يركز على العلاقات الأسرية والاجتماعية، من مثل العلاقة ما بين سلطان وأبيه، خاصة في رحلات الصيد والعمل من أجل كسب العيش، وهذا ما دفع الكاتب إلى رسم شخصية سلطان على المستويين الحسي والنفسي معتمداً على الواقع الفني في رسم حركة العمل والحياة في زمن المستجدات والمتغيرات:

(سلطان يقف على ساقين مترهلتين ترتعش يداه.. يمد يداً أشبه بسمكة حية انتزعت من جوف البحر، يتناول ملف الأوراق التي بعثها له المدير بواسطة السكرتير. حقاً إنها غانية غواني الرشيد، لكنها ترفل بثياب عصرية تتماشى مع شكل المكتب الحديث)[6].

في روايتي (تل الصنم) و(نافذة الجنون) اتجاه واضح نحو البُعد النفسي وأثره على الشخصية الإنسانية، حيث نجد المعتوه

في رواية (تل الصنم) يمثل شخصية حقيقية في الواقع، وهو صريح إلى حدٍّ قاسٍ ويحلم بتغيير واقعه، وهذا ما نجده في رواية (نافذة الجنون) أيضاً، حيث يسعى إلى تحويل أحلامه إلى فعل واقعي، وعبر هذه الأهداف يرسم المؤلف صورة دقيقة للمعتوه والمجنون ليعْبُر من خلالهما إلى تكريس مقولة الحرية التي هي حلم الإنسانية جمعاء.

يقول الناقد الدكتور سمر روحي الفيصل: (والواضح أن تل الصنم لم تلتزم بما التزمت به نافذة الجنون فسمحت بأمرين: أولهما انتقال السارد الممثل من شخصية المعتوه المحورية إلى شخصية الضرير الثانوية، ثم العودة من الضرير إلى المعتوه، دون أن يكون هناك ساردان ممثلان يختص أحدهما بالمعتوه والثاني بالضرير، ولو كان هناك ساردان لأصبحت رواية تل الصنم حوارية تتعدد فيها الأصوات بتعدد الرواة الساردين[7].

لقد أبرز المؤلف سلوك أفعال المعتوه وردوده، كذلك فعل في نافذة الجنون، وكان الصوت الداخلي - المونولوج - قوياً في تجسيد ذلك، وهذا يعني أن علي أبو الريش التفت بقوة إلى الشخصيات المأزومة التي تتشوق إلى أن تستظل بظل الحرية، والتي تعاني لكي تتخلص من البالي والمتكلس.

لكأن الكاتب علي أبو الريش يحرك نبض الوعي باتجاه الحقيقة التي تكره الزيف وتتمسك بالحب والعدالة والحضارة والحياة الكريمة.

(إن كاريزما رواية نافذة الجنون تكمن بالدرجة الأولى في شاعريتها وبنيتها اللغوية الأدبية الإبداعية التي كشفت عن طاقة اللغة الهائلة المؤثرة في تجسيد عالم الرواية وطروحاتها ومضمونها ومرجعياتها)[8]. وبقي الصراع يحرك الأحداث والشخصيات، خاصة في أعماق الراوي الذي لم يعد يعرف اتجاهه لأنه أضاع البوصلة الحقيقية التي تسمح له بحياة مستقرة.

كان يتساءل لماذا لا يجرب كيف يكون الموت، فهو يريد أن يكشف مصيره عن طريق الاستبصار، الذي كان دافعاً لتساؤلات الوعي وفهم كنه الحياة.

إن الهاجس الإنساني في روايات علي أبو الريش يشكل ثيمة حقيقية، ذلك لأن المؤلف الذي حرص على تجليات الإنسان عبر معاناته وعذاباته وآماله وأحلامه يشارك أبطاله في حلم التفاؤل من أجل حياة أكثر ازدهاراً.

ولا ريب في أن علي أبو الريش نجح إلى حد كبير في رصد المعاناة الإنسانية والتطورات التي لعبت دوراً مهماً في حركة حياته ومنطلقاته وطموحاته.

إن تيارَي الوعي والتأمل سمحا للروائي أن يوصف في مشكلات الإنسانية في المشكلات الإنسانية، لكي يوضح أهمية إنسانية الإنسان وضرورة الحب في العطاء والإنجاز والعلاقة مع الآخر وصياغة الواقع المأمول في الفن الروائي.

ولئن كانت الأفكار من محمولات اللغة فإن تجسيدها إبداعياً يحتاج إلى رؤية وأفكار وإيمان لا محدود بالنهوض بالإنسان سواء أكان ذلك عبر مرموزات النص الروائي أم من خلال دلالاته أم عبر المشاعر والصورة الروائية والمواقف الثابتة.

إن الروائي علي أبو الريش الذي أخلص للأدب الروائي مستخدماً ألاعيب فنية وفلسفية متنوعة ومتعددة لإظهار مقولاته الفكرية ورؤيته وتوظيفها من خلال حركة الشخصيات والأحداث استطاع الوصول إلى هدفه بدقة واحترافية. لقد عكس ما

يعتمل في نفس إنسان العصر من طموحات وعذابات في ظل الحياة الاستهلاكية والمتغيرات والتطورات، وكأنه بذلك يتطلع إلى صياغة عالم موازٍ لعالم الواقع، عالم يرغب فيه الروائي أن يكون ناضراً ونظيفاً، وذلك بعودة الإنسان إلى حقيقته الإنسانية وإلى جوهره المتألق.

وإذا كان الكثير من الروائيين العرب والأجانب اهتموا بهذا التوجه فيكفي أن أذكر في هذا المجال: حنا مينة، ونجيب محفوظ، ويحيى حقي، ومبارك ربيع، ودريد يحيى الخواجة، وهوجو، وتولستوي، وغيرهم الكثير الكثير.

لقد تأثر الروائي علي أبو الريش بفرويد لكي يعزز معاناة الإنسان، ليس برؤية طوباوية مثالية أو خيالية، وإنما من منطلق الفهم العميق للواقع وأبعاده الفلسفية.

وما دمنا نتحدث عن الهاجس الإنساني فمن الطبيعي أن نشير إلى منطقية التفكير والتشخيص، فالمؤلف في إبداعه لرواياته لم يكن منحازاً أو مبالغاً سواء أكان ذلك في السلب أم في الإيجاب، وإنما حرص على الواقعية المنطقية بعيداً عن الهوى.

ولئن تباينت المواقف والرؤية والعمق والمستوى في الطبيعة والمضمون، فإنها بالمجمل تعبر عن نزوع المؤلف نحو تشخيص معاناة الإنسان ونبش ما يكمن في اللا شعور الفردي (الذاتي) أو الجمعي. لقد انشغل الروائي علي أبو الريش بالإضافة إلى البناء الفني بالأبعاد الإنسانية في مضامين رواياته لكي يدفع هذه الروايات نحو الحيوية والجدة والتميز والانتماء للإنسان باعتباره المحور الرئيسي في الحياة والأدب والإبداع ■

كاتب وناقد مسرحي

الهوامش والمراجع:

1. علي أبو الريش، روائي إماراتي، ولد في إمارة رأس الخيمة عام 1959م، من رواياته: السيف والزهرة، الاعتراف، ثنائية مجبل بن شهوان، نافذة الجنون، ..إلخ
2. الاعتراف، رواية، علي أبو الريش، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع، أبوظبي، 1982م.
3. السيف والزهرة، رواية، علي أبو الريش، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع، أبوظبي، 1984م.
4. أطياف من الأدب الإماراتي، القصة والشعر، د. هيثم يحيى الخواجة، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2003م.
5. فن القصة القصيرة في مصر، دراسة في تأصيل فن أدبي، شكري عياد، ط. 2، القاهرة، دار المعرفة، 1979م.
6. رواية السيف والزهرة، ص 97.
7. قضايا السرد في الرواية الإماراتية، د. سمر روحي الفيصل، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2003م، ص 125.
8. فضاءات النص الإماراتي، دراسة تطبيقية، د. أحمد الزعبي، دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2005م، ص 166.

الحنين الإنتاجي في التراث المعماري
(نُزُلْ الرياحين) أنموذجاً

لولوة المنصوري

يبدو نُزُل الرياحين الواقع على ساحل (خور فكان) بدءاً بمسماه الأثري الحميم، يبدو خالداً منذ حقب عربية بعيدة في التاريخ، وكأنك تسير في أزقة قرية طينية ساحلية من قرى الإمارات القديمة جداً، ففي جوف المعيشة الفندقية في النُزُل تعود بالزمن إلى عهد الأجداد وأبناء الغوص والعصور اللؤلؤية، تمرُ في الزقاق بخطوات مملوءة بالاشتياق لحضن الظلال الرحيمة، ظلال جدة مجهولة تنتظر أحفاداً ذهبوا إلى حيث لايأتي أحد، أو تلمحُ طيف أمٍ تحملُ رضيعها، وعيونها تنظر نحو الغيمة السابحة بين فضاء الجبل والبحر، منتظرة عند الباب بوح الغروب الشجيّ، تلمحُ دمعتها من تحت البوشية، يغيب قلبك لبرهة في الحزن، لكنك تنتبه إلى كونك في جوف الأطياف والذكريات والشرود الروحي في ملامح الماضي وإشراقاته المستنيرة في دواخلك.

تخرج من السوق الشعبي وقت الظهيرة بعد هدوء المقهى الأثيري الخاص بك، وتسيرُ بهدوء على الجسر الفاصل بين السوق والنُزُل، متأملاً أسفله حركة الماء الصافي المتدفق في مجرى الوادي، وحين تصل إلى النُزُل وتسير بين الأبواب تقفز إلى ذاكرتك تفاصيل الأبواب في قصة علي بابا والأربعين حرامي، تبتسم منتشياً بنبع القصة الطفولية التي غذت حسك التصويري والخيالي والروحي.

تمضي في السكك المؤدية إلى باب بيتك المكوّن من حوش كبير تتوسطه نخلة وعلى طرفه ليوان يهمسُ بالنهار والحب، بالصلوات والتأمل وخطوات الشمس الصباحية وهديل الحمام، كل ما في الحوش يذكرك بحياة لم تعشها، لكنك لمحت تفاصيلها في ذاكرة أجدادك وصور آبائك، وحنين روحك. وما أجمل أن تحتسي شاي العصر تحت ظل ليوان البيت متأملاً سياحة السحب الشتوية بين الجبل والبحر.

المدى الأزرق البحري يلمع من بعيد، حيث نهاية الزقاق، والقرية هادئة للغاية، ونسائم الماضي تنبثق من أشجار القرية بعمق نوستالجي عجائبي. تعبر تفاصيلها المعمارية العريقة ودهاليزها التشكيلية، وتتأمل إكسسوارات الغرف ذات الطابع الحسيّ الطبيعي القادم من طين الأرض وأشجارها، الطابع الأصيل الممزوج بفيض تكويني إماراتي وأخشاب هندية وزخارف عثمانية والزجاج المعشق المتوّج للأبواب والنوافذ، والذي تنعكس ألوانه على البيت والأثاث إذا ما حلّ الظلام وهدأت النفوس وارتاحت. لاشيء في الليل سوى ضوء الفنر والقناديل بين البيوت الناعسة الآمنة، إذ تبدو القرية كلها في حالة سكون وصلاة ليلية طويلة الأمد.

كل تلك التشكلات والعلامات الأسلوبية والتناثر الزخرفي المتجلي بهيبة ووقار في المعمار يأخذك إلى تصديق الأمر، إن القرية امتداد لجذر في الأرض، مبثوثة منذ زمن عريق على هذه الأرض الطيبة المشهورة بزراعة الرياحين، وهنا يكمن الإبداع التصويري المعماري، أن تكون في الحاضر ويأتيك الماضي بكل خفة وجاذبية، يشبع حاجتك للعودة الميتافيزيقية إلى رحم البداية الرمزية للبلدات العتيقة المكتنزة بالدلالات الجمالية.

بيتك في النُزُل مكوّن من حوش بسيط وليوان وغرفة ومطبخ ومجلس ونخلة وظل ورائحة ريحانة، هذا كل شيء. وهذه هي الكفاية اللذيذة للعيش، داخل هذا البيت تشعر وكأنك قد ملكت الأرض كلها، وعشت نورك وعافيتك وطمأنينتك، عشت عرس الضوء والفتح الروحي، وكنت أيقونة البيت ومجاله السابح في العطاء والرعاية. إنك أمام قيمة عظيمة من الخلق الفني والانبعاث الإبداعي للأثر والتراث، والعيش في أعماق اللغة البصرية والشميّة والحسية. والذي قد يعتبره الآخرون في يومنا هذا مفردات هامشية في التراث لا أكثر.

إن الوعي الحاد بتفاصيل الابتكار في التراث يعد أمراً مطروحاً بالضرورة في المجتمعات الإنسانية المعاصرة كلها، إذ إن التماهي الجمالي والوظيفي للمكونات الحقيقية في التراث تكمن في بعثها من حيث الغياب والنسيان والتجاهل، وإعادة إنتاجها وإدراجها في تفاصيل الحياة الحاضرة وبصورة ابتكارية بديعة تتلاءم مع مظاهر الازدهار الحضاري الراقي. وقد سبق أن ذكرتُ في مقال سابق بعنوان (استلهام التراث في الإبداع)، بأننا نستلهم السحر العظيم للأشكال والوحدات المتنوعة والأساطير من الماضي كمحاولة منا للاتساق مع الذاكرة في ظل الحضارة وركب التمدن. فكل مايصير عاجزاً عن الحضور المادي والواقعي، يتَّقد الحنين اتجاهه كمعادل مانع للنسيان والغياب. وبلا شك أن بناء الأحياء والأسواق والفنادق من وحي التراث أو إقامة المهرجانات التراثية المتنوعة والملتقيات الثقافية والمؤتمرات المعنية بالتراث لهي كفيلة بإحداث هذه النقلة الإبداعية عبر تقديم التراث بصورة حداثية إبداعية ولو بشكل جزئي غير مباشر. ولعل لجوءنا إلى التراث وخاصة الرمزي منه / مثل النقوش الصخرية أو العلامات الطقوسية والأيقونية هي حاجة مستترة فينا إلى كل ماهو مستتر وكامن ومُلغِز ومجهول وسحري في ظل الحياة الواضحة والمُباشرة.

وقد يبدو (الحنين الإنتاجي) مولِّداً إبداعاً إنسانياً موازياً، سواء بالكتابة أو التشكيل أو النحت أو بالعزف الوجداني أو عبر إحياء التراث ومناقشته، يحدث كل ذلك بلغة النوستالجيا العميقة والمستترة، ولعل أعمق الحنين إنتاجاً وإبداعاً هو ما يسعى إلى تفكيك الحنين نفسه، ويعيد بعث السؤال فيه: (لماذا الماضي؟ لماذا لا نكتفي من جداوله وغدرانه؟ وحتى متى نطوف في دوامته السرمدية؟) ■

باحثة وروائية إماراتية

ذكريات زمن البدايات (25)

الدكتور عمر الخطيب «فارس اللغة»

خليل عيلبوني

في الثالث من يناير 1971، كان موعدي مع السيد عمر الخطيب الذي يشغل منصب المدير العام للإذاعة والتلفزيون لإمارة أبوظبي. ولم يكن في ذلك الوقت قد حصل على الدكتوراه بعد. كان الموعد في مبنى التلفزيون، واسم مبنى التلفزيون هو اسم مجازي؛ فالمحطة لم تكن تشغل إلا دوراً واحداً من المبنى الذي يملكه سمو الشيخ سرور بن محمد آل نهيان في شارع حمدان. في ذلك الدور تحوّلت الشقق إلى «استوديو»، وبعض المكاتب، وغرفة للمونتاج، وغرفة أخرى لتحميض الأفلام. فلم نكن قد وصلنا بعد إلى التصوير عن طريق الفيديو، وتحميض الأفلام كانت عملية مرهقة، وقد تُسبب الأذى للفنيين العاملين فيها؛ لقوة نفاذ الأبخرة المستخدمة في عملية التحميض. أذكر أن أحد العاملين في التحميض دفع حياته متضرراً من هذه العملية ولكن بعد سنوات عدة، حيث حاول الأخ عبد الله النويس عندما أصبح وكيلاً لوزارة الإعلام أن يعالجه على حسابه الخاص، وطلب مني شخصيّاً الاتصال بالدكتور مجدي يعقوب، وسؤاله عن إمكانية زراعة رئة بدلاً من الرئتين اللتين تدمرتا بسبب تلك المواد، ولكن لم يكن الطب قد وصل إلى مثل هذه المرحلة، وفي النهاية سقط ذلك الفني شهيد الواجب.

اللقاء الأول:

لم يستغرق اللقاء أكثر من خمس عشرة دقيقة، تحدثنا فيها عن تجربتي الإعلامية السابقة، وبرامجي التي قدمتها في: إذاعة صوت العرب، وصوت فلسطين، وإذاعة دمشق. ولم أشعر خلال ذلك الحديث أن عمر الخطيب يمتحنني، أو يسأل أسئلة تهدف إلى معرفة قدراتي أو إمكاناتي الإعلامية بل كان لقاءً وديّاً مثيراً، حدثني فيه هو عن حياته وتجربته، وكان كعادته مرحاً وحيوياً كأنه يقدم أحد برامجه المثيرة. في نهاية اللقاء، سجل عمر الخطيب على طلب العمل الذي قدمته هذه الجملة: «قابلت السيد خليل عيلبوني، فوجدته متعدد جوانب المعرفة، وأوصي بتعيينه مراقباً للبرامج والأركان الخاصة». وقد استطعت الحصول على نسخة من هذا الطلب وما كتبه المرحوم عمر الخطيب عليه، وظلت هذه النسخة محفوظة لدي كأهم شهادة أعتز بها، وتأتي من إعلامي كبير كالدكتور عمر الخطيب، رحمه الله. فتحت لي شهادة المرحوم عمر الخطيب باب العمل في الإذاعة، وساعدتني كثيراً في اللقاء الذي تم فيما بعد مع الأستاذ راشد عبد الله النعيمي الذي كان قد التحق حديثاً بدائرة الإعلام بوظيفة وكيل لها، بعد أن ترك دائرة البترول التي عمل بها بوظيفة مهندس للبترول.

لم يكن الدكتور عمر الخطيب مديراً عاماً للإذاعة والتلفزيون فحسب، بل كان هو نفسه مذيعاً من الدرجة الأولى خاصةً في

أبوظبي خلال السبعينيات

المناسبات التي تحتاج إلى البث المباشر والتغطية الصوتية. عندما أصغيت إليه وهو ينقل الاحتفال بالعيد الوطني لدولة الإمارات العربية المتحدة في التلفزيون، شعرت أنني أمام أستاذ في اللغة العربية، يرتجلها بطلاقة من دون أي لحن، أي من دون أي خطأ في قواعدها. وهو لا يشعرك عندما يرتجل أنه يتصنع ويستحضر جملاً مكررة، بل يجعلك تقتنع أن ذلك الرجل يعرف ما يقول، وأن لديه قضية. وأعتقد أن ميزة الارتجال هذه لا تتوافر في معظم المذيعين هذه الأيام، بل تشعر وأنت تصغي إليهم يرتجلون أن اللغة مسيطرة عليهم وليسوا المسيطرين عليها، ناهيك عن الأخطاء النحوية الصارخة التي يقعون فيها. سألته في إحدى الجلسات: كيف تمكّنت من اللغة ومن الارتجال بهذا الشكل؟ فأجاب: قد تتفاجأ أنني لم أدرس اللغة العربية، وأن دراساتي كانت مركزة على اللغة الإنجليزية ليس في الدول العربية بل في بريطانيا وأمريكا، ولكنني عندما عايشت بعض المذيعين الأجانب المبدعين في الارتجال، وجدت أن اللغة التي يرتجلون بها هي اللغة التي يستعملونها في حياتهم اليومية، ليس لديهم لغتان مثلنا: لغة للإذاعة، ولغة للحياة، ولذلك قررت بإصرار أن تكون لديّ لغة واحدة هي الفصحى، لغة القرآن. وكان لابد لي من إتقان قواعدها، ثم التدرب على القراءة من دون تشكيل حتى أصبحت لي في النهاية لغة واحدة أتكلمها في البيت، في الشارع، في المكتب.. يحدثني الآخرون بلهجتهم المحلية، وأرد عليهم بالفصحى. وهكذا تمكّنت من اللغة وصار سهلاً عليَّ الارتجال بها، وتوطدت بيني وبين اللغة العربية علاقة الحب، أنا أحب هذه اللغة.

برامج المسابقات

ظهرت قوة الدكتور عمر الخطيب عندما بدأ يقدم برامجه التي اشتهر بها، وهي برامج المسابقات التي قدمها من قطر أولاً ثم من خلال محطة MBC؛ فهو في تلك البرامج المثيرة، لم يكن مجرد مذيع عادي يطرح الأسئلة ويحكم بصحة الجواب أو خطئه، ولكنه كان فيها خطيباً مدركاً لأبعاد الأسئلة التي يطرحها، ولديه غنى في الإجابة التي لا تعتمد على نعم أو لا، بل على معلومات مختزنة تدل على ثقافة شاملة. كان إتقانه للغة الإنجليزية لافتاً للنظر كذلك؛ فهو يتكلمها بطلاقة وجزالة تذكرك بشكسبير أو برنارد شو. عاش معنا الدكتور عمر الخطيب في زمن البدايات، وكان له دور فاعل ومؤثر في إنشاء الإذاعة والتلفزيون. آخر لقاء بيني وبينه، كان عندما استدعى المسؤولون عن الإعلام في أبوظبي جميعَ أولئك الرواد الذين

كانوا في زمن البدايات لتكريمهم في احتفال لا ينسى، ترك في نفوسنا جميعاً أثراً جميلاً، وأدركنا خلاله أن الوفاء صفة أهل الإمارات الذين لا ينسون الجميل ويقدرون جميع من قدم لهذه الدولة من جهده وفكره وإبداعه.

جئنا من كل حدب وصوب، واجتمعنا في المدينة التي احتضنتنا في ذلك الزمن الجميل، مدينة أبوظبي. جميل أن يُكرَّم الإنسان في حياته.. لا كما يفعل العرب عادة حيث لا يتذكرون من يكرمونه إلا بعد أن يموت، وبعد أن يكون قد ردد ذلك المقطع الشعري المشهور: «إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر»، وهذه ظاهرة حضارية في دولة الإمارات غير مسبوقة عربياً. عندما التقيت يومها بالدكتور عمر الخطيب، وجدتُ خطوط الكبر قد توضحت في وجهه الجميل، وصوته المميز. وأذكر أنني عانقته بحرارة عندما ودعته كأنني أودعه الوداع الأخير: حاولْ أن تزورني في المغرب. قال: المغرب بلد جميل فعلاً، وسأزورك إن شاء الله. ولكن الله لم يشأ، ومضى الدكتور عمر الخطيب ليلاقي ربه، بعد أن شنف آذاننا بصوته المثقف وتعلمنا على يديه: ماذا يعني الصوت المثقف، وماذا يعني صوت الببغاء. وأدرك جميع الذين عرفوا الرجل، وعملوا معه أو في ظل إدارته أنه: لا يكفي أن تكون ذا صوت رخيم، أو إذاعياً كما يقولون، ولا ذا شكل جميل «فوتوجنيك» كما اصطلح عليه مخرجو التلفزيون لتكون مذيعاً ناجحاً، بل لا بد من أن تملك مع الصوت والشكلِ الثقافةَ الكافية لتجعلك مؤهلاً أن تدخل البيوت، وأن تكون مثلاً يُحتذى به.

كان الدكتور عمر الخطيب في زمن البدايات الجميل، وسيظل على الرغم من رحيله في ذاكرة أبناء هذا الوطن الوفي ■

كاتب وشاعر

تأثير الموسيقى على القلب

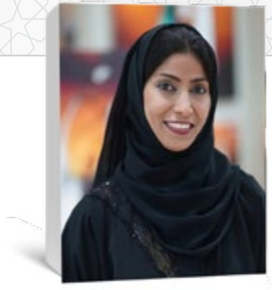

نورة صابر المزروعي
أكاديمية من الإمارات

القلب هو العضو العضلي في الجهاز الدوري، وهو المسؤول عن ضخ الدم إلى مختلف أجزاء الجسم وإمداده بالأكسجين والمواد الغذائية المختلفة بصورة منتظمة ومستمرة، في الانقباض والانبساط وفي الأوقات جميعها. ويعتبر القلب القوة المنظمة والمحركة لعملية دوران الدم في جسم الإنسان[1].

إن أمراض القلب من أكثر مسببات الوفيات في العالم، ومنها أمراض القلب الوعائية التي تتسبب بنحو 30% من نسبة الوفيات في دولة الإمارات العربية المتحدة حسب «منظمة الصحة العالمية «(WHO)، ويطلق تعبير أمراض القلب الوعائية على مجموعة من الاضطرابات التي تصيب القلب والأوعية الدموية، وتشمل التالي:

ارتفاع ضغط الدم (ضغط الدم المرتفع)، مرض القلب التاجي (النوبة القلبية)، الأمراض الدماغية الوعائية (السكتة الدماغية)، أمراض الأوعية الدموية المحيطية، فشل القلب، أمراض القلب الخلقية، اعتلالات عضلة القلب[2].

وبحسب «منظمة الصحة العالمية» فإن أمراض القلب تحتل الصدارة بين الأمراض الأخرى للوفاة على الصعيد العالمي[3]. ويتوقع وفاة نحو 23 مليون نسمة بحلول عام 2030 بسبب أمراض القلب الوعائية وأمراض القلب والسكتة الدماغية، فيما ستظل هذه الأمراض في صدارة مسببات الوفيات حول العالم[4].

علاقة الموسيقى بالقلب

إن القلب هو المكان الذي تخزّن فيه المشاعر بأنواعها كافة، والموسيقى لغة تخاطب المشاعر، ولديها القدرة في إثارة المشاعر بشتى أشكالها المرحة (الدافعة إلى الفرح والرقص)، والحزينة (الدافعة إلى البكاء)، والهادئة (الدافعة إلى التأمل والاسترخاء)، والحماسية (الدافعة إلى الثورة)[5].

وذكر أبو حامد الغزالي أن الموسيقى لها أثر على قلب الإنسان والحيوان، فأودع الله تعالى فيها تأثيراً غريباً يثير الحزن مرة، والبكاء مرة، والضحك أخرى[6]، وقدّم عالم النفس الألماني زوكر كاندل دراسة عن تأثير الأصوات على قلب الإنسان. فوضع نظرية تُعرف بنظرية النبض، وهي تدرس علاقة الألحان بالنسب العددية. إن قلب الإنسان ينبض بعدد معين، فإذا تزايدت النبضات أو تباطأت، فهذا مؤشر لتغيرات قد تحدث في الجسد. ونظرية النبض تربط الذبذبات كمقياس للتقدم في الخط اللحني، وهذا يتناغم مع إيقاعات نبضات القلب، وهو مؤشر على أن الموسيقى تتماشى مع طبيعة جسم الإنسان. أما إذا كان المقياس أعلى من نبضات القلب، فتنحرف نبضات القلب الطبيعي عن الإيقاع، فيسبب ذلك إثارة أو انزعاجاً لا يتقبله الجسد. وإذا كان المقياس يسير ببطء، فهذا يوقظ فيه شعور بالذكريات، وما تحمل من مشاعر سعيدة أو حزينة، أو هدوء نفسي نابع من تلك الألحان المتباطئه[7]. وأجريت الكثير من الدراسات لفهم ماهية التحولات التي تحدث للقلب عند سماع القلب للموسيقى، حيث أظهرت الدراسات أن الاستماع إلى الموسيقى ذات الإيقاع المناسب، يعمل على تنشيط القلب ويعيد حيويته ويخفف من الآلام العضوية، ودرست مجموعة من الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية تحت إشراف مايكل ميلر، مدير طب القلب الوقائي في مركز جامعة ميريلاند الطبي، علاقة الموسيقى المفضلة لدى المرضى وتأثيرها في القلب، وتم فحص حالة القلب على عينة من المرضى تعاني أمراضاً متباينة في القلب، وتوصلت الدراسات، التي أجريت على عدد من المرضى إثر فحصهم بعد الاستماع إلى الموسيقى، أن المرضى شعروا بتحسن وبقوة في حركة عضلة القلب، كما أن الأوعية الدموية توسعت بالأسلوب نفسه التي تتسع بها عند الدخول في نوبات ضحك أو عند تناول أدوية مخصصة لهذا الغرض. ويذكر مايكل ميلر، أن الموسيقى تعمل على توسيع قطر الأوعية الدموية وزيادتها، وتتسع الأوعية بالطريقة ذاتها التي تتسع من خلالها عند القيام ببعض الأنشطة البدنية، لأنه عند اتساع الأوعية الدموية، يتدفق الدم بصورة أكثر انسيابية وتنخفض حينها احتمالات تكوّن الجلطات الدموية التي تتسبب في الإصابة بالأزمات القلبية والسكتات الدماغية، كما تقاوم الأوعية المطاطية النشاط المتجمد لتصلب الشرايين. وقام ميلر بتجربة أخضع فيها عشرة من الرجال والسيدات أسمعهم الموسيقى المفضلة لديهم (لمدة نصف ساعة) كان الهدف من هذه التجربة حصر النتائج المتعلقة بحالة الأوعية الدموية. وثبت بعد ذلك أن القطر الخاص بالأوعية الدموية قد اتسع بنسبة 26% في المتوسط[8]. وقد استخلص ميلر من هذه التجربة أن للموسيقى القدرة على إعادة تأهيل المرضى الذين يعانون مشكلات في الأوعية الدموية. ففي المستشفيات الغربية تستخدم الموسيقى كطرق علاجية لأمراض القلب، كما تستخدم أنواع منتقاة بعناية من الموسيقى الكلاسيكية أثناء التدخل الجراحي لمرضى القلب، حيث يكون هناك تأثير للإيقاع الموسيقي البطيء على الجهاز العصبي، شبيهاً بتأثير أدوية المسكنات، حيث يشعر المريض بالاسترخاء بشكل تام. على سبيل المثال في بلغاريا تستخدم الموسيقى لعلاج المرضى الذين يشكون اضطراباً في القلب أو ارتفاعاً في ضغط الدم، حيث يخضع المرضى لجلسات علاجية بالموسيقى ما يؤثر على الجهاز العصبي كتأثير المسكن[9]. ونُشرت دراسة في مجلة «القلب» الأوروبية بعنوان «تأثير نوعية الموسيقى على القلب»، أكد فيها الأطباء أن هناك علاقة طردية بين نوع الموسيقى المختارة وتأثيرها في الجسد. يشير الكاتب تشوا كوك سوي، أن القلب هو المكان الذي يحمل المشاعر السلبية والإيجابية كلها ويؤثر سلباً أو إيجاباً في جسد الإنسان. وأجريت دراسة على عينة من الأمهات الحوامل، وجدوا أن استماعهن إلى الموسيقى الكلاسيكية أثناء فترة الحمل (موزارت، وبتهوفن، وسبستيان باخ) يجعل الطفل في حالة سكون بينما يكون في حالة هياج وتزداد ضربات قلبه عند سماعه لموسيقى الروك. وأجريت دراسة أخرى خلص الباحثون فيها إلى أن الأطفال في سن مبكرة يتأثر مزاجهم سلبياً بسماع موسيقى الروك، ويندفعون إلى البكاء. وأكدت الدراسة أن 94% من الأطفال يتوقفون فعلياً عن البكاء، ويستغرقون في النوم، فور سماعهم الموسيقى التي كانوا يسمعونها وهم أجنة في بطون أمهاتهم[10]. وأجرى باحثون في سان فرانسيسكو تجارب على الأطفال قبل الولادة وبعدها بتشغيل مقطوعة من (Twinkle Twinkle Little Star) فهدأت الأجنة في فترة ما قبل الولادة، واستخدمت المقطوعة ذاتها لتهدئتهم من الصراخ والبكاء بعد الولادة. وتقوم بعض المستشفيات بتوزيع شرائط بعنوان Baby Go to Sleep، وتم تقسيم حالات الأطفال حديثي الولادة، فوجدوا أن 95% منهم توقفوا عن البكاء، وغطوا في نوم عميق، وكانت هناك حالة لديها صعوبة في التنفس وتتم معالجتها في العناية الخاصة لخطورة وضعها إلا أنها هدأت ونامت وشعرت بالتحسن عندما سمعت صوت الموسيقى[11].

الهوامش والمراجع:

1. د. مجاهد راغب البسرة، أمراض القلب الخلقية والمكتسبة عند الأطفال، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 1971، ص 8.
2. جمانة الصباغ، أسباب وأعراض أمراض القلب وطريق علاجها، 3 سبتمبر 2017، https://www.hiamag.com
3. تقرير عن «منظمة الصحة العالمية» لدى الأمم المتحدة، يوضح قائمة بالأسباب العشرة الأولى للوفاة في العالم على رأسها أمراض القلب، أمريكا، نيويورك، 9 ديسمبر 2020، https://news.un.org/ar/story/2020/12/1067282
4. جمانة الصباغ، أسباب وأعراض أمراض القلب وطريق علاجها، 3 سبتمبر 2017، https://www.hiamag.com
5. د. عبد الفتاح نجله، العلاج النفسي بالموسيقى، الناشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة، 2006، ص 75.
6. المصدر السابق نفسه، ص 78.
7. سامي أحمد الموصلي، الموسيقى والعلاج الطبي، المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، عمّان، 2015، ص 83 - 84.
8. ناجي حسن قاسم، علاج أمراض القلب بالموسيقى، صحيفة سودانيل، سودان، خرطوم، 15 أغسطس 2011 https://www.sudaress.com/sudanile/31360
9. سامي أحمد الموصلي، الموسيقى والعلاج الطبي، ص 83.
10. د. نورة صابر المزروعي، تأثير الموسيقى على القلب، صحيفة الاتحاد، الإمارات، أبوظبي، 23 أغسطس 2020 ttps://www.alkhaleej.ae/2020-08-23
11. Don Campbell, The Mozart Effect, power of the music to heal the body ,strengthen the mind and unlock the Greative Spirit, Avon Books, U.S New York, 1997, p24 - 25.

قراءة في كتاب «علي بن تميم»

«السرد والظاهرة الدرامية».. «نقد النقد» للتراث الأدبي العربي

خالد عمر بن ققه

كلما غُصْتُ في قضايا التراث أو اقتربت منها، أزيحت من أمامي حُجبٌ حالت في كثير من الأحيان دون وصولي إلى تعمق في فهم ينير البصيرة بأهمية تلك القضايا من ناحية «معاصرة للتراث»، كون هذا الأخير يمثل «مشروعاً دائماً للتجديد»[1]، بل إنه يحملنا معه صوب المستقبل، يرافقه ويرافقنا ماضيه لحظة الميلاد الأولى للقضايا وحتى الظواهر التاريخية والثقافية. وطرح إزاحة حجب التراث، أو عجزها، هي عن بقائها في حالة من الاستقرار أو الديمومة، يمثلان جهداً بحثياً لا يمكن الوصول إليه، إلا إذا كان الهدف هنا تشكيل وعي جديد يُعمِّق من أطروحات الماضي، بحيث لا تكتفي بماضويتها، ولا حتى بحضورها الآني من ناحية «راهنيتها» - الظاهرة أو المستترة - وإنما تعبُر بالبشر على المستويات النظرية والعملية، و«الإمبريقية»[2] أيضاً، إلى أزمنة قريبة أو بعيدة.

وفي محاولة العبور - باعتبارها منهجاً وهدفاً - تظهر الحالة الإبداعية في مجال البحث التراثي، خاصة إذا تعلق الأمر بقضايا عصيّة عن التناول، وشكلت موضوعاتها محطات رئيسية بين أزمنة متباعدة، فَعَلَت في الظواهر وأصحابها فعلتها، مع عدم اكتراثها بالجغرافيا بمعانيها وتطبيقاتها المعاصرة، حيث الحكم الجائر عليها من أهل الحاضر، ما يعني أن الاقتراب منها دراسة يمثل نوعاً من الجرأة، التي لا تصدر إلا من الذين اختاروا سعة البحث عن الخفي والمجهول عن ضيق التسليم بمعرفة ما هي كذلك، أو القبول بنتائج دراساتٍ ما رعاها الباحثون حق رعايتها.

قد يَشي القول السابق، بتصادم بين دَارِسِين شتّى في مجال البحث التراثي، ظناً من القارئ أن التصنيف هنا لقضايا البحث يقوم على الفرز من منطلق أكاديمي، غير أن الأمر يتخطّى ذلك عند باحثين بعينهم - وقيل ما هم - إلى سعي نحو معرفة تراثية تحقق متعة على مستوى القراءة أولاً، وعلى مستوى الوعي بالتراث ثانياً، وثالثاً على أساس التميز عن الآخر أيضاً، سواء من خلال القبول والإضافة، أو الرفض والانتقاد، وهو ما يظهر هنا في قراءة لكتاب أحد جلساء التراث.

التراث.. ودراسة النفس

الكتاب الذي بين أيدينا للمؤلف الدكتور«علي بن تميم»[3] حمل عنوان «السّرد والظاهرة الدّرامية»[4]، وقد أرفق هذا العنوان على صفحة الغلاف الخارجي بعنوان شارح لسابقه، هو: «دراسة في التجليات الدرامية للسرد العربي القديم».. الكتاب يطرحُ نوعاً من الدراسات التراثية المميزة، التي قد تغنينا عن سواها من الأبحاث في هذا المجال، وذلك لأسباب كثيرة منها: وضوح الرؤية لدى مؤلفه، وتحديده لمجال بحثه، وتعمقه في موضوعه، ودخوله في حوار مباشر نقدي وهادف مع المؤلفين المعاصرين السابقين، على قلتهم، في التراث السردي العربي. وضوح الرؤية لدى المؤلف، بدَا جلياً من الكلمات الأولى في الكتاب، حيث يقول علي بن تميم: «يتمثل مسعى هذا البحث في دراسة جهود النقاد في تحليل صورٍ من السرد العربي تحليلاً درامياً، أي إنه يحاول تتبع معاينة النقاد للعناصر الدراسية في السرد العربي القديم، انطلاقاً من أهمية التراث باعتباره مصدراً أساسياً من مصادر الإبداع والنشاط الفكري والحضاري في الحياة الإنسانية..»(ص 5).

وهذا الوضوح، وإن مثل رغبةً بحثيةً خالصةً لدى المؤلف، إلا أنه في الوقت ذاته، جمع لديه بأهمية دراسة التراث بالنسبة إلى الأمم، بغض النظر عن الأساليب التي تتخذها في التعامل معه، والأكثر من هذا أهميته للأفراد، بما ينتهي لديه إلى أمرين، الأول: أن الاعتكاف على دراسة التراث يعتبر دراسة لأنفسنا، والثاني: أن الخطاب على الماضي هو في الآن ذاته خطاب عن الحاضر.. وهكذا يستحضر ابن تميم من البداية العنصرين: البشري والزمني، وما يحققانه من تفاعل وشراكة في صناعة التراث.

نحن إذن أمام دراسة تتعلق بإعادة قراءة تراثنا الأدبي والفكري بمنهج متسلح بالمعرفة، كما يذكر الكاتب، لذا علينا النظر إليها من زاوية التنوع من جهة، والتأسيس لقضايا كلية من جهة أخرى، حيث التشابك والتداخل بين التجليات المختلفة للسرد العربي، ومنها «الظاهرة الدرامية».

وعلى صعيد دقة هذه الدراسة في جانبها «الإشكالي» فإنها

تتفادى الاعتماد على طرح «الدارسين المحدثين» الذين تنالوا أجزاء من السرد العربي القديم على أنّه «فن مسرحي»، وبدل ذلك تقدم رؤية نقدية حديثة للتقنيات الدرامية في السرد العربي القديم، ولا يتم ذلك بتطويع قسري، أو من خلال تعسف في التحليل، كما هو شائع في دراسات وأبحاث بعض المجالات التراثية الأخرى.

نص المتفرِّج

الكتاب يحتوي على تمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، في التمهيد اختار المؤلف أو خلص إلى تعريف لمفهوم الدرامية بناء على قراءات ودراسات سابقة لغيره من الدارسين، وكذلك المعاجم، التي تحاشت - في نظر الكاتب - إيجاد مفهوم قاطع في تعريف الدراما، واكتفت بذكر أشكالها وتنوعاتها، ولهذا انتهى من خلالها إلى القول: «.. بكلمة الدراما نعني ذلك الضرب من المتخيل المصمم للتمثيل والمبني على اتفاقات دراميّة خاصة..»(ص7).

وفي تتبّعِهِ وشرحِهِ ونقدِهِ للنص على خلفية الرؤية التي طرحها، يحدثنا ابن تميم عن النص، الذي يراه يتمتع بقدرة حيوية على بث العوالم الدرامية داخل المتفرج والقارئ، مع اختلاف بينهما في تلقي هذه العوالم، ضارباً مثلاً عن علاقة المتفرج بالملفوظات المسرحية، باعتبار أن هذا الأخير يكون في مواجهة ثلاثة نصوص درامية في العملية المسرحية: نص الكاتب، ونص المخرج، ونص الممثلين، ومع ذلك فهو - المتفرج بالنسبة إليه: «يشارك بشكل إيجابي في العرض المسرحي، فالنص الدرامي بهذا المعنى يتشعب إلى أربعة نصوص إذا ما دخل المسرح، أما إذا بقي النص الدرامي بمعزل عن العرض، فلا يشكل إلا نصيّن، نص المؤلف ونص القارئ»(ص9).

القول السابق، وإن بدا حديثاً عن قضايا عصرية، خصوصاً تناوله للعلاقة بين النص والمسرح والمتفرج، إلا أنه يصب في موضوع الدرامية، وفي السياقات المختلفة عن الحديث عنها، وفي الأسباب التي أسهمت في ظهور مفهومها، وقد حددها علي بن تميم في خمسة أسباب هي:

1 - موقف النقاد من النص الدرامي، واعتباره نصاً أدبياً، بحيث لم يفرقوا بينه وبين الأجناس الأدبية الأخرى.

2 - موقف نقَّاد المسرح، حيث لم يكتفوا بتاريخ الأدب المسرحي فحسب، بل تناولوا علاوة على الأدب المسرحي الظاهرة الدرامية.

3 - مفهوم «الدراما» غير المحدد والعريض، جعل الأشكال الأدبية الأخرى، تشترك - ولو بصفات قليلة - معها.

4 - لأن الدراما لم تعد حكراً على الفن المسرحي، بعد أن تعقدت الحياة، واشتد الصراع متخذاً نزعة العنف وطابع التحدي بين مناهج العلم والروح.

5 - لأن مصطلحات السرد الحديثة معظمها كانت في الأصل مصطلحات مسرحية.

السّياقات.. والأداء

قضايا كثيرة طرحها الكاتب وهو يعرّف «الظاهرة الدراميّة»، حيث الطواف المتأني، والحوار المثمر، والقصديّة المعرفيَّة في مناقشته لأطروحات الآخرين[5]، بما حقّ له من اقتباس، أو نقد، أو تصريف، وانتهى بعد ذلك إلى نتيجة مفادها: أن فهم النقاد المعاصرين للدرامية يتجه إلى رؤى تختلف تفاصيلها، ولكنها تنطلق جميعها إلى الرؤى التالية:

- رؤيتهم للعمل الدرامي في السرد العربي القديم.

- رؤيتهم للمتلقي الدرامي في السرد العربي القديم.

- رؤيتهم للمؤدي الدرامي في السرد العربي القديم.

- رؤيتهم المتشابهات الدرامية: بين الإغريق والمسرح الأوروبي من جهة وبين السرد العربي القديم من جهة أخرى.

تلك الرؤى جميعها، بحثها المؤلف بالتفصيل في كتابه هذا، الذي تضمَّن أربعة فصول، حمل الأول منها عنوان: «الأداء الدرامي: تحديد المفاهيم في السياقات السّردية»، وفيه تطرق الكاتب - لأجل تحديد المفاهيم في السياقات الدرامية - إلى كل من المصطلحات الآتية: «الميامس، والحكاية والخيال، والكرّج والسماجة، والمضحك - أو المهرج - والمَسَاخر والمُحبَّطون والصّفاعِنَة، واللعب والملاعب واللعابون، والمخنثون، وخيال الظل والبابة».

وأهمية هذا الفصل - كما يرى الكاتب - تأتي من كونه يناقش المصطلحات الأكثر ترداداً وإشكالاً في أبحاث النقاد، وهذا لتحقيق هدفين، الأول: بغية فهم المصطلحات التي قدموا من خلالها وجهات نظرهم، والثاني: اعتماد تلك المصطلحات بشكل كبير في مؤلفه هذا.

وفي الفصل الثاني: «التجليات الدرامية في السرد القديم»، تناول رؤية النقاد للعمل الدرامي في السرد العربي القديم، وووَضَّحَ رؤيتهم للشخصية والنموذج الإنساني، والبناء الدرامي واللغة الدرامية، كما عرض العلاقة الدرامية بين الشعر والسرد.

وفي الفصل الثالث: «الأداء الدرامي في السرد القديم»، تناول رؤية النقاد للمؤدي، وللأداء الدرامي في السرد العربي القديم، متوقفاً فيه على أشكال الأداء، وأنماط المؤدين، والمرأة المؤدية، والإخراج.. والتنكر السردي، وغيرها من الوسائل الملازمة أو المصحابة للأداء.

وتناول الفصل الرابع: «التلقي الدرامي في السرد القديم»، رؤية للنقاد للمتلقي الدرامي في السرد العربي القديم، حيث تم التطرق إلى المتلقي العام والخاص، والمتلقي الإيجابي المشارك في الأداء والسرد، والمرأة المتلقية، والمتلقي المعياري، ووضع المتلقي، وأغراضه.

لقد قام الكاتب بتفكيك القضايا التي وردت في فصول كتابه، الكلية منها والجزئية، وذهب إلى تكثيف مادة بحثية مَسْنُودة بمراجع عربية وأعجمية، يمكن التعويل عليها في دراسات مثيلة لها أو قريبة منها مستقبلاً.

وخلاصة القول: إن هذا الكتاب يعدُّ مرجعية في هذا مجال التراث الأدبي، وعلينا أن ننظر إليه - قراءةً وفهماً - من زاوية تواصل أمتنا مع التراث ليس لإثبات وجودها على المستوى الإبداعي التعبيري في ماضيها البعيد فحسب، وإنما للقول بإمكانية استنهاض ذلك الإبداع في عصرنا من خلال التعبير عن كل شيء أيضاً، الأمر الذي يجعل من «العربية لغة جامعة وآمنة، وحامية للموروث، على النحو الذي ذكره الدكتور علي بن تميم في حوار سابق»[6] ■

كاتب وصحفي - الجزائر

الهوامش والمراجع:

1 - من القائلين بهذه الفكرة الدكتور عبد العزيز المسلم، رئيس معهد الشارقة للتراث، لمزيد من المعلومات شاهد:

- «شيء يذكر» الحلقة (37) - كائنات الإمارات الخرافية والشارقة والعرب.. وإحياء التراث.. حوار مع الدكتور عبد العزيز المسلم، أجراه خالد عمر بن ققه 2023/06/19م.. رابط الحلقة:

https://www.youtube.com/watch?v=s8K1HB30KmI

2 - مصطلح» إمبريقية» يعبر عن الخبرة، والخبرة مصدرها الحواس، وبالتالي فإن المعرفة الإنسانية تستمد شرعيتها من مرورها بهذه الحواس حتى تصبح بذلك قابلة للتحقق من صحتها، ومفهوم الإمبريقية يدل على كل ما يتعلق بدراسة المجتمع الإنساني بالاحتكام إلى الواقع المحسوس سواء في اختيار المشكلة، وجمع الحقائق، أو تصنيف البيانات، وتحليلها.. لمزيد من التفصيل، راجع:

- تعريف الإمبريقية - مصطلحات اجتماعية، موقع «سوسيو كلوب» على الرابط:

https://www.socioclub.net/2022/10/Empirique.html

3 - د. علي بن تميم.. رئيس مركز أبوظبي للغة العربية التابع لدائرة الثقافة والسياحة، ويشغل حالياً منصب الأمين العام لجائزة الشيخ زايد للكتاب، ورئيس تحرير مجلة المركز للدراسات العربية، بالإضافة إلى المنصة الإخبارية «موقع 24 الإخباري».. له العديد من المؤلفات، منها: النقاد ونجيب محفوظ - الرواية: من النوع السردي القاتل إلى جماليات العالم الثالث (2003م)، الإسلام وتاريخ العرب(2010م)، بنت ابن ظاهر.. أبحاث في قصيدتها وسيرتها الشعبية (2018م)، زايد بن سلطان آل نهيان: سيرة التحول والنهوض (2019م)، كتاب الشعر على الشعر (2021م).

4 . علي بن تميم، السرد والظاهرة الدرامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2003م.

5 . يظهر ذلك في الكم الهائل من المراجع القديمة والحديثة، التي اعتمدها الكاتب في دراسته.

6 . انظر: «شيء يذكر» الحلقة (47)، حديث عن اللغة العربية في ماضيها القومي وحاضرها الإماراتي.. ومستقبلها العالمي، حوار مع الدكتور علي بن تميم، أجراه خالد عمر بن ققه - 08|02\ 2024م.. على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=oeKzVUK37pw

المرأة والتحوُّلات الحضارية (2)

تعظيم التعلّم وتمجيد العمل

خالد صالح ملكاوي

لم تدُم طويلاً تلك المواقف من الشعراء الذين تمسَّكوا بصورة المرأة التقليدية، ووقفوا بوجه رياح التغيير التي هبَّت مع التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية التي صاحبت اكتشاف النفط في الإمارات، وحملت معها آفاقاً من التحضُّر، فتغيّرت تدريجياً مواقف الشعراء، وتماهت مع صورة المرأة بمؤهلاتها الحديثة وأدوارها الجديدة، بعد أن عبرت المرأة آفاق التعليم، وطرقت أبواب العمل وخاضت ميادينه، وأصبح حضورها في المجتمع شاهداً على مرحلة تاريخية تزخر بالتحولات. رافق التحولات والتحضّر التدريجي انسحاب لصورة المرأة التي رسمتها مواقف الشعراء الذين، ظلوا لفترة، متمسكين بالتقليدية التي عُرفت بها المرأة في مختلف المجتمعات في مرحلة ما قبل ظهور النفط، وبدأت صورة حضور المرأة في الشعر تتغيّر تدريجياً بفعل عامل التعليم وخروج المرأة للعمل، وتغيّر نمط الأسرة من الأسرة الممتدة ذات السلطة الأبوية المركزية، إلى أسرة نووية، ما جعل حضورها في القصيدة النبطية في مجتمع التحضّر يشكّل صورة معبّرة عما نالته المرأة من حقوق، وما تيسَّر لها من تسهيلات، وتوفَّر من محفّزات تمهّد لها سبيل الانعتاق من كل المعوّقات التي يمكن أن تحدّ من أداء أدوارها شريكة في مسيرة البناء، ومواكِبةً لخطوات التحضُّر التي تسارعت في عمر المجتمع الإماراتي، الأمر الذي عكسته العديد من القصائد لدى عدد من الشعراء.

العمل وتضاؤل المنتقدين

بعد أن كان التعليم الحديث للفتاة مُحَارَباً لدى بعض الشعراء الذين خشوا أن تفصم الحداثة جذور الأصالة من نفوس الفتيات، لم يعد كثير من الشعراء يعارضون تعليم الفتيات أو عمل المرأة، بل تقدموا خطوة، وقدموا تصوراتهم للمجتمع السليم وفقاً لرؤاهم، آنذاك، فنرى الشاعر عبد الرحمن المبارك يطرح تصوره لتعليم المرأة، ويحدد أهم معالمه بالقول:

عَلِّموهـــــا الفَـــــرض والسُنّـــــا
واجْبـــات الدِيـــــن وأركانَـــــــه

وتسارعت مسارات التحضُّر، وكان من مظاهر التغير والنهضة التي تبدَّت، خروج المرأة من معزلها إلى المدرسة لتتعلم، وقد أفضى ذلك إلى دخول المرأة التدريجي إلى ميادين العمل، حيث فُتحت أمامها فرص للعمل، كانت ثماراً لتوجيهات القيادة المتوالية لتشجيع المرأة على العمل، عكستها الخطط الرسمية التي فتحت آفاقاً واسعة للمرأة، فنالت النساء قسطاً وافراً من الحرية واستقلال الشخصية، والوعي بالذات وبالوطن وبأدوار الجميع التشاركية في خدمة المجتمع والوطن، وقلّ مع هذه المكتسبات معارضو عمل المرأة، ولاقى ذلك أصداء إيجابية لدى معظم الشعراء، وانبرى الشاعر علي بن رحمة بن سالم الشامسي يعبّر عن إعجابه بالنهضة النسائية، وراح يتغنى بها مباركاً مشجّعاً ومزهوّاً بواقع المرأة الجديد:

بإحترامـــي مـــع تهانيَّـــــه
مـــع سلامـــي وســـط الأسجالـــي
بإســـم الجمعيـــة النسائيّـــــه
واســـم مـــن قايـــم بالأعمالـــي
وإســـم مـــن أســـس الجمعيّـــــه
وإســـم لـــي منصـــف بالأعدالـــي
أدّن الواجـــــب فـــي لبْغيّـــــه
فـــي مجـــال العلـــم فـــي الحالـــي
واعملـــن بأخـــــلاصٍ ونيّـــــه
واجعلـــن حـــب الوطـــن غالـــي
مـــن نســـب عالـــي وشخصيّـــه
مـــن سلالـــة جـــــدٍّ وخالـــي
مـــن رئيســـــه وسكرتيريّـــــه
كاتـــب ومشـــــرف بالاحوالـــي
ودْرَسِـــن كِتـــــب العَرَبيّـــــه
فـــي الأدَب وعلومَـــــه اشْكالـــي

فرنســـــــاوي وانجِليزيّـــــــه
وانْجَحَـــــن فـــي جَمـــع لَمْسالـــي
وكْسَبِـــن عِلـــــم وثَقافِيّـــــه
واصْبَحَـــن فـــي مستـــوى عالـــي
واعلَنِـــن واجِـــــب الحَرْبِيّـــه
ساعـــدن بالحـــال والمالـــي
فـــي المجَـــــلّات المحَلِيّـــــه
فـــي الصحـــف تنشَـــر والاقْوالـــي
عاشَـــت المـــرأة الخليجيّـــة
فـــي الزمـــن تـــضرَب بهـــا امثالـــي
واكتَبـــوا عنهـــــا الصحَفِيّـــــه
والحَقَـــت بالرَكـــب مِـــن تالـــي
جعلهـــــا دَعـــــوه إلهيّـــــه
فـــي حفِـــظ رَبّ السَـــما العالـــي
فـــي سُـــرور وفـــي رفاهِيّـــــه
فـــي سَعـــاده وعِـــزّ واجْلالـــي

تعظيم الدور التربوي

وفي اكتساب العلم وزيادة المعرفة تميّز لعطاء المرأة في خدمة مجتمعها ووطنها، وتعزيز لدورها الحضاري، ورفد لرسالتها في التربية والتنشئة للأجيال. وقد وقف الشاعر سالم أبو جمهور القبيسي يشجّع المرأة على العمل والانخراط في بناء الوطن ونهضته، ويرى في اكتساب المرأة للعلم واقتحامها ميادين العمل مدعاة للاحترام والتقدير ومصدراً للفخار:

قالـــت اكتـــب مهنتـــي رَبّـــة وطَـــن
واتّخـــذ من شعلَـــة افْكاري مَنـــارْ
امنِياتـــــي للعـــذارى يعمِلـــــن
سيّـــدات العِلـــم ربّـــات الدِيـــار
فـــي بِنَـــى الأوطـــان لوهِـــن شارَكِـــن
مـــا بهـــا تَعْـــييب ذا عِـــز وفَخـــار
كاتبَـــــه أو ناظْـــرَه عِـــدّة مِهـــــنَ
للتقـــدّم والعُـــــلا والازدهـــــار
بالوَفـــا نوفـــي لمَـــنْ هِنّ ارْضَعِـــن
بالوَفـــا نَجـزي لهـــن خيـــر الثمـــار
ارضَعِنّـــا في المَهِـــد حُـــب الوطَـــن
كبـــر هـــذا الحُـــب واصبَحْنـــا كبـار

وتمتدح الشاعرة فتاة العرب دور المرأة الإماراتية في تربية الأجيال وتنشئتها، وحرصها على غرس بذور الأصالة في نفوسهم، وتعزيز تمسكهم بجذورهم وبموروث آبائهم والاعتزاز بماضي أجدادهم وتاريخهم بما يرسّخ هويتهم ويزيد من اعتزازهم بالقيم النبيلة في مجتمعهم، إذ تقول:

والقعايـد لـــي لهـــن رايٍ سديـــد
عَلَمَـــنْ لاولاد عـــادات الجـــدود
علموهـم كيـف ما ينشـي الوليـــد
نشيـــة الفتيـان من صـدق وصمـــود
مـــن تـراث وكـــل تـــاريخ مجيـــد
واستحســـن الطـفل نفسه في صعـود
والبنـــيّ اللـــي لهـــن حـــظٍ سعيـــد
اكْسبـــن لازواج فـــي عمـــر الـــورود
وانجبـــن لاولاد وامسَـــن فـــي رغيـــد
من نعيـــم العيـــش والجمـع امحمـــود

مركزية الدور ومفتاح البركة

ترسم فتاة العرب لوحة تبرِز فيها المفردات أصيلة الجمال لمدينة العين. وفي تفاصيل امتداحها لهذه المدينة تضع المرأة وحدة مركزية في هذه اللوحة، فتجعل جمال فتياتها وحسن خلقهن من المعالم الأصيلة لتلك المدينة:

داريلـــي ظلـــها مدهـــــمٍّ ودان
لـــي سماهـــا دوم تكسيـــه المـــزون
هـــي نعمـــان لو قالـــوا عمـــان
جنـــة فيهـــا الشرايـــع والغصـــون
هيـه مقـر البيـــض والحور الحســـان
صاينـــات العرض مـــن عفـــه وصـــون
يوسفيـــات المهـــا كالخـــيزران
قايـــدات الفيـــج زينـــات العيـــون
وان تبـــدّى بينهـــن سيـد الغـــوان
شفـــت بـــه نور المهابـــه والسكـــون
يرتـــدي سمـــت ووقـــار وكبر شـــان
والقـــدر ما هوب في الســـوم امْغبـــون

وفي ردّه على قصيدة للشاعر سيف السعدي، يُعلي الشاعر علي بن رحمة الشامسي من مكانة المرأة، ويعظّم من قدرها، ويمجّد فعلها، ويرى فيها باباً من أبواب البركة التي أودعها الخالق منذ البدء، فيقول:

البنـــت يعلـــى بالشـــرف مستواهـــا
والمـــدح فيهـــا يشبـــه الدر واخْيَـــر
يا «سيف» قـــولك شاقني في مْعناهـــا
يطرب لـــه المشتـــاق فـــي كل محضـــر

مثل النجـــوم الواضحـــه في سماهـــا
نجـــمٍ يغـيب ونجـــم تـــوّه بَيَظهـــر
ثم يصل إلى القول:
البنـــت نعـمه يوم ربّـــك عطاهـــا
ام البشـــر من قـــبل الانـــسان يذكـــر
آدم وحـــوّا في الأصـــل مبتداهـــا
من فـضل ربّي خالـق الكـون يشكـــر ■

إعلامي مقيم في الإمارات

المصادر والمراجع:

1. الأعمال الكاملة والسيرة الذاتية للشاعرة عوشة بنت خليفة السويدي (فتاة العرب)، جمع وتحقيق وتأليف: الدكتورة رفيعة عبيد غباش، الإمارات العربية المتحدة، متحف المرأة، الإصدار الأول، الطبعة الثانية، 2012م.
2. تراثنا من الشعر الشعبي، جمع وتحقيق: حمد أبو شهاب، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، الجزأين الأول والثاني، 1998م.
3. حضارة الشعر في بادية الإمارات، أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي. الإمارات، ط 2، 2009م.
4. ديوان روائح النود، للشاعر سالم أبو جمهور القبيسي، أبوظبي، الظفرة للطباعة والنشر، 1993م.
5. ديوان نسيم الخليج للشاعر علي بن رحمة بن سالم الشامسي، الدكتور راشد أحمد المزروعي، أبوظبي، نادي تراث الإمارات، 2010م.
6. الشعر النبطي في منطقة الخليج والجزيرة العربية، غسان حسن أحمد الحسن، أبوظبي، المجمع الثقافي، الطبعة الأولى، القسم الثاني، 1990م.

النهر والذين يعبرون

حمزة قناوي
شاعر وناقد مصري

ينظر كثيرٌ من البشر إلى الحياة باعتبارها ظواهرَ مبنيةً على أسس مادية، ومعادلات محكمة، لا بد أن تفضي بداياتها المنطقية إلى نتائج ونهاياتٍ أكثر إحكاماً، وهم يقيسون الحياة بمساراتها كلها على حسابات رياضيةٍ وآلياتٍ لا تنتج سوى أرقام وإحصاءاتٍ تسوّقها المنفعة، وما يحقق لهم معاني الوفرة والاكتفاء، وتأمين الماديات، لا يرون في الأشياء سوى شواخصها الظاهرة أمامهم، بماديتها وحسيتها، بعيداً عن تأمل ما وراء الظواهر أو طبيعة الأشياء.

لا يرى هؤلاء البشر من الحياة سوى كونها مساحة مفتوحة للربح والخسارة، تنتهي بانتهاء أيامها وانطفاء أعمارهم وانقضاء سيَرِهم، دون أن يتأملوا للحظة أن هذه الحياة نفسها نهرٌ مندفعٌ، سَارٍ في أيام الدنيا وتقلباتِها دون توقفٍ، وأن الإنسان وأيامه عابران لهذا النهر، سابحان في تقلباته واندفاع تياره، نحو مصبِّهِ البعيد، هناك حيث تنتهي الحياة، بين من ينهيها وقد استطاع، بمهارةٍ، مسايرة النهر ومجاراة أمواجه، والوصول إلى شاطئ الأمان وقد ترك خلف ما قطعه من مسافةٍ قُدّرت له، سيرة طيبة وذِكراً حسناً، يمكثان في الأرض، وفي أذهان وأفئدة الآخرين، وبين من ينهي رحلة النهر وقد صارع أمواجه بعنفٍ وجِدّة، عابساً غضوباً لا يرضيه شيء، ولا يفكر في مسايرة النهر في هدوئهِ أو التعامل مع شدة تياره بحكمةٍ حين يقوى، حتى يصل إلى نهاية الرحلة وقد استغرقته تفاصيل صراع المسافة والوصول، فلم تخفق روحه للفتة طبيعةٍ أو يرق قلبه لمشهدٍ حيّ مؤثر، وتنتهي سيرته بانتهاء رحلة النهر في المصب دون تركِ أثرٍ من حمدٍ أو فضلٍ أو ذِكر.

كم منا يرون الحياةَ ظواهر وماديات تشخص وطبيعة صماء، ولا يرون حقيقتها، حقيقة النهر المندفع في مساره، ولا يرون من ينزلون إلى أوله في عنفوان حياتهم وصباهم، ويمضون مع تياره وصولاً لنهايته، في فصول تتبدل من الربيع إلى الصيف ومنه إلى الخريف والشتاء في تغضن أوراقه وانطفاء الحياة فيها، دون أن يتبقى من الذين يعبرون النهر سوى أصداء ملامحهم، وسيرهم، ومواقفهم، وحسهم بالآخرين، والخير الذي قدموه أثناء سباحتهم مع تياره المتغير، دون أن يفكروا سوى في القيمة التي ستبقى وما سيرسخ في الأرض من فضلٍ وخيرٍ وذكرى. لا تقاس مسافة النهر وأمواجه بطول امتداده، وما يستغرقه من أيام عمر المرء في قطعه فقط، ولا في مهارة السابحين في مسايرة أمواجه والتغلب على مشاق الرحلة ومصاعبها فحسب، إنما تقاس بمدى ما سيتركه العابرون في هذه المسافة أيضاً - المحتم قطعها على البشر جميعاً - من أثرٍ باقٍ وعملٍ وإشاراتٍ وقيمةٍ وإيجابيةٍ وأصداء لا تُنسى في ذاكرة النور والإنسانية والنبل البشري.

وثمة من يرون الحياة على حقيقتها، نهراً سيعبرونه بأيامهم، إلى أن تنتهي طالت أم قصرت، غير أنهم لا يكترثون لكيفية عبورهم إياه، كالعابرين على الماء لا على الذاكرة، وكمن ينقشون الريح لا صخر الذكرى والحقيقة، فتنتهي أيامهم معه كمن لم يمر، بلا أثرٍ ولا أسماء، ولم يحتفظ خريره حتى بما همسوا له قبل الغياب من أمنيات أدركوها متأخراً قبل الوصول إلى المصبِّ حيثُ لم تعد تسعف الأمنيات.

في المسافة من المنبع إلى المصب، وجوهٌ لبشر يمرون، وأصواتٌ لضحكاتٍ، وهمسٌ لدعوات، وخفقاتُ قلوب ضاجة بالأحلام، وعيونُ أمهات ممتلئة بتفاصيل أبنائهن، وقلوبُهن تلهج بالدعاء لهم، وأطفالٌ يحلمون، وأجدادٌ يتأملون أحفادهم، وأصواتٌ صادقة تعلو في النداء بالخير والحق، ودموعٌ غزيرة تنهمر خلف أمنياتٍ لم تتحقق، عيونٌ آملةٌ في ليلٍ مسوّرٍ بالدعوات، وأيدٍ تمسك ببعضها بعضاً في محبةٍ لا تفرقها أنهار الدنيا لا نهر حياة واحد ■

الشاعرة القطرية (صدى الحرمان)

2002 - 1962

مريم النقبي

شاعرة من الحجم الثقيل شعراً ومعنىً وحرفاً، ولا يزال اسمها يتردد في مجالس الشعر والشعراء في الخليج ولا تزال قصائدها حاضرة، هي الشاعرة المعروفة بـ «صدى الحرمان» (تليلة بنت غانم المهندي). شاعرة قطرية، من مواليد مدينة الخور في قطر في الثاني والعشرين من سبتمبر عام 1962. تلقت تعليمها الابتدائي في مدرسة الخور الابتدائية وتوقفت عن الدراسة بسبب ما تعانيه من إعاقة جسدية حالت دون تحقيقها لطموحاتها العلمية. بدأت الكتابة سنة 1985 واستمرت بطريق الأدب والشعر النبطي، شاركت في العديد من نشاطات المجتمع كما أقامت أمسية شعرية في جامعة قطر، وحازت على المرتبة الثانية بين أفضل شاعرات الخليج العربي ضمن استفتاء أقامته مجلة «النهضة الكويتية»، وللشاعرة قصائد وإبداعات كثيرة على سبيل المثال: رحلة أيامي، صديقتي، عزة الكلمة، الحلم الأبيض، السؤال الغبي، خيانة العكاز.

و«صدى الحرمان» لقب استلهمته الشاعرة الراحلة من إحدى قصائد الأمير الشاعر عبد الله الفيصل، وكانت تلك القصيدة بعنوان «صدى الحرمان»، فشعرت بأن هذا اللقب قد لامس الواقع الذي تعيشه، خصوصاً أنها قد حرمت من أمور كثيرة، ومن أبرزها إكمال دراستها، وكثير من الأحلام التي قد رسمتها. وعلى الرغم من الحرمان والألم اللذين قاستهما فإنها كانت نهراً من الإبداع المتدفق في جزالة الشعر فلم تجعل من إعاقتها حاجزاً يقف ضدها، بل حوّلت تلك الإعاقة إلى واحة مزدهرة بالشعر والإحساس والإبداع .

توفيت رحمها الله في 2002/8/18 بعد معاناة مع المرض تاركة لنا إرثاً زاخراً من الشعر والأدب والإبداع وقد صدر لها ديوان رحلة أيامي «شعر عامي»، وديوان رحلة حرف «شعر عامي». من أشهر قصائدها «خيانة عكازة»:

أبد لا تحزنـي يمّـه إذا خانتني رجلـيني
وإذا كلّ شـكى همّه وانا همي بقى فينـي
وإذا خنجر صداقتهن غرس حده وسط قلبي
وإذا عكازتي خافـت من اَنها تسنـد اِيديني
ولا تبكين يا «يمّه» إذا عمـري غدى دفتـر
وكـلٍ يمزع أوراقـه ولا ظنّه يكفّيـني
أبد لا يجزع إحساسك لا شفتي البعض يجرحني
وإذا ضـاع الوفا فيهن وضاعت معهن سنينـي
على ضيـم الجفا أبقى تنازع روحي الحسـره
واَحس الظلـم يا امـي يقطّع من شرايينـي
بسيطـة كل ألم جسمي تحملته واَنا اَضحك لك
لكن الخـوف يا يمه من إحساسٍ سكن فينـي
يا حيف الطـيب بالدنيا يضيع وينتهي عمـره
يموت الطيـب يا يمه واَنا فقـري يبكينـي

ومن قصائدها المفعمة بالأمل والقوة والإرادة قصيدة «يامعتقد بالضعف»:

يـا معتقـد بالضعـف خـل اعتقـادك
بعزيمتـك فـي همتـك والإراده
شـارك وشـارك فـي تـقدم بـلادك
غيـرك أبـد مـا فيـه عنـك زيـاده
اِعمـل وبتحصّـل ثمـار اجتـهادك
المجتهـد كـلٍ يخاطـب وداده
اَفـرد يدك للحـب واَنسـى عنـادك
خـل الأمـل يـملا حياتـك سـعاده
عمـر الإعاقـة مـا توقّـف مـدادك
مـدام عزمـك ما يخونـك مـداده
لا..لا تفكـر عاجـز الحيـل عـادك
الواصـل اَنـت وفي اجتهـادك شهـاده
لابـد مـا في يوم تبلـغ مـرادك
مثـلك قـوي .. لابد يبلـغ مـراده ■

كاتبة وشاعرة من الإمارات

الشاعر رفيق الرضي: عندما يخوض الشعر في متاهات الحياة بروح فلسفية

هشام أزكيض

يستلهم الشاعر اليمني رفيق الرضي سر إبداعاته الشعرية من الحياة، فهذه الأخيرة بنظره هي منبع الشعر، لذا جعل مختلف جوانب الحياة المضيئة والمظلمة معاً هي مكونات القصيدة سعياً إلى تقديم مشهد شعري يليق بواقعنا الاجتماعي. ويقيم الشاعر رفيق في إمارة دبي، وقد حصل على شهادة ماجستير إدارة أعمال من جامعة العلوم والتكنولوجيا عام 2008، وبكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة صنعاء عام 2004م، وعمل مترجم لغة إنجليزية مُعتمد، وعضو اللجنة الاستشارية لجائزة عناوين Books للنشر. من إصداراته الشعرية «ظلّ وروح، راعي الذود 1، راعي الذود 2، راعي الذود 3، ما بعد الغروب، شواطئ الذكريات»، وله كتاب «الإيجابية ما بعد الفشل». وللتعرف إلى التجربة الشعرية لرفيق الرضي أجرينا معه الحوار التالي:

- تجربتك الشعرية وإنجازاتك الإبداعية غير منفصلة عن مسألة الهوية، فكيف تشكلت هويتك الشعرية؟

لا شك أن الهوية الشعرية تتشكل خلال مراحل عدة، تبدأ في المدرسة وتتغير وتتشكل مع خوضنا غمار الحياة وتحدياتها وتجاربها، يصل المرء في إحدى مراحلها إلى قمة العطاء، وتبدأ أولاها بقراءة الشعر وتذوقه، وفي مرحلة متقدمة يكون الشاعر قادراً على الذهاب في عوالم الشعر اللانهائية باحثاً عن معنى مُتفرد، وبيت عذب، وقصيدة لا تتلاشى مع مرور الأيام. وللبيئة طبعاً الأثر الأهم في تشكيل الهوية، كونها ما يلهم الشاعر ويحرك وجدانه، والقصيدة إما رد فعل وإما وصف، وإما تماهٍ مع البيئة، وفي حالات قليلة ينحو الشاعر نحو التأمل وهذا يكون أقل تكراراً. بهذا المستوى، للريف الأثر البالغ في تشكيل هويتي الشعرية أيضاً، إذ كنت في مرحلة مبكرة أجد حرجاً كبيراً في استخدام كلمات غير شائعة تتعلق بمنطقتنا الريفية فقط، لكنني لاحقاً عرفت أنها تعود إلى اللغة الحميرية القديمة، وما زالت تستخدم في مناطق مختلفة في اليمن، مثل منطقة يافع، وهذا جعلني أحاول توثيقها في بعض قصائدي. وهناك الشعر الجاهلي والأندلسي والشعر الحديث مما يتميز بالنص البسيط في الأسلوب والصورة، كلها أسهمت في تشكيل هويتي الشعرية، مع ما للمكان من حضور طاغٍ في وجدان الشاعر، حيث أعتبر فترة إقامتي القصيرة في دولة الإمارات العربية المتحدة الأكثر شاعرية، بما فيها من أنشطة ثقافية، ومناظر جمالية في المكان، تعود بي إلى أجواء عشتها في مراحل مبكرة.

- ما موقع إبداعاتك الشعرية من الحياة وقيم المجتمع؟

الحياة تنبض بكل شيء جميل، والشاعر من يبحث عن الجمال لينقله إلى الآخرين محاولاً رسم اللوحات الفنية الجميلة بكلمات تلامس قلوب الناس ومشاعرهم، والشاعر من يجب أن يكون رمزاً اجتماعياً في أخلاقه وسموه وعطائه وتضحيته، وأن يبين للآخرين الصواب من الخطأ. لقد كتبت عن المدن التي سافرت إليها، وعن الأشخاص الذين تعاملت معهم، والذكريات، والعتاب، وشكاوى الغربة والغياب، ومهما يكن فما زالت الحياة أجمل بكثير مما كتبت عنها.

في آخر قصيدة كتبتها مثلاً، وهي غنائية بعنوان أرض اليمن، تحدثت عن الحاضر، وكيفية النهوض من واقعنا المأساوي في اليمن، بالعودة إلى الحوار، والشورى، والتسامح، ونبذ العنف، وأن تسود الحكمة والعودة إلى السلام، في محاولة مني

لملامسة جرح غائر، وتحديد مسار للخروج من النفق المظلم الذي وجدنا أنفسنا فيه، وضرورة العودة إلى التاريخ لنستلهم التجارب المشرقة، مع الاهتمام بالتعليم وسيلة وحيدة للنجاة من الجهل والظلام.

- هل إبداعاتك واتجاهاتك المتعلقة بشؤون الحياة تحيل إلى تمكنك من احتواء حقيقة الحياة؟

من وجهة نظري لا، ولكن نتيجة لما توصلت إليه من فهم للحياة وبعد قراءة تجارب الآخرين وسير الأولين، ليس من الصعب احتواء حقيقة الحياة، ومع ذلك لا أعتقد أن أحداً يزعم أنه من خلال كتاباته قد تمكن من احتواء حقيقة الحياة، فالأمر نسبي يتمثل في مفهوم حقيقة الحياة بالنسبة لي، الذي يختلف عما تراه أنت.

وشخصياً أرى أن للحياة سرها المتمثل في البساطة، فكلما كانت الحياة بسيطة، تمكنا من مسايرة الحياة، بينما تصبح الأمور أكثر تعقيداً عندما تغلب علينا الأمور المادية، وهنا أود الإشارة إلى أن أجدادنا كانت لديهم حياة أكثر سعادة مما لدينا، ويعود الأمر إلى كثرة المتطلبات التي نحتاجها اليوم.

- هل الشعر بنظرك بحاجة إلى فلسفة كي يثبت وجوده الشعري؟

هناك جانبان للإجابة عن سؤالك، الجانب الأول يتمثل في ضرورة الارتقاء باللغة والثقافة للشاعر ليتمكن من القيام بدوره المنشود، وهذا يكون أولاً بمراعاة المفردات، وخصوصية المجتمع... إضافة إلى ضرورة وجود قيمة مضافة في ما نكتبه، مع مراعاة الصدق الحسي في الكتابة، وألا يكون النص بعيداً عن روح الشاعر واعتقاداته وفلسفته في الحياة. وليس المقصود هنا الفلسفة بمعناها المتعارف عليه، ولكن أسلوب الحياة وطريقتها التي يرى الشاعر أنها الأنسب.

الجانب الآخر يعنى بالفكرة التي أود إيصالها إلى القارئ، فإذا لم تكن محددة بهدف معين فقد لا تصل، كما أن وقت القصيدة ومكانها مهيمن للسبب نفسه، مع مراعاة البساطة دائماً وأن تكون اللغة قريبة من المتلقي ومفهومه، بعيداً عن الصور المركبة التي تهتم بالشكل دون الفكرة والرسالة. ما يهم من وجهة نظري أن يكون الشاعر هو نفسه في المجتمع، أي

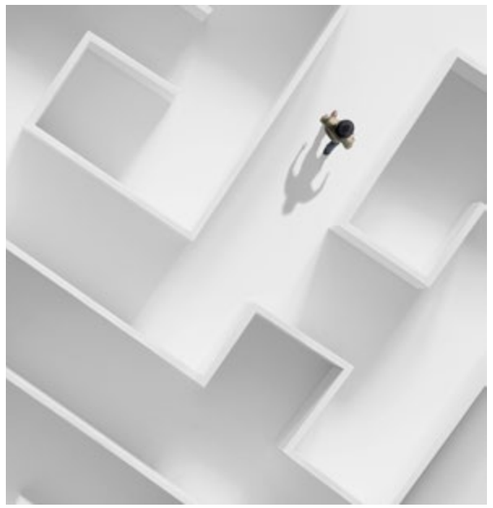

أن يكون ما يعبر عنه يتفق مع قناعاته وأفكاره، فإذا تحدث في قصيدة عن فكرة معينة، فيجب أن يكون قبل الجميع مؤمناً بها.

- أنت تكتب الشعر الشعبي والغنائي معاً، وعلى ضوء ذلك أين تتقاطع قصيدة الفصحى مع الشعبية وأين تفترق؟

الشعر هو الشعر، والقصيدة الفصحى لها جمهورها، لكن العصر الحالي عصر القصيدة الشعبية الأكثر انتشاراً وحضوراً، ربما لسهولة الصور والمفردات، فهما يجتمعان في كل الجماليات ويفترقا عندما نحدد الجمهور الذي سيقرأ لنا، والذي بالتالي سيحدد ما يود قراءته أو سماعه. بدأت بكتابة الشعر الفصيح، ثم وجدتني أكتب الشعر الشعبي، ولكل قصيدة لحظتها وفكرتها التي تسهم في تحديد ما أكتبه.

- حدثنا عن دواوينك الشعبية والفصيحة، وما محتواها وأبرز الأغراض التي احتوتها؟

البداية كانت إصدار ديوان «شواطئ الذكريات» عام 2012 الذي احتوى قصائد كتبتها في المرحلة الجامعية وما قبلها، وتوقفت بعدها عن الكتابة، ثم عدت في عام 2019 بديوان «ما بعد الغروب» الذي تضمن قصائد نبطية. وخلال الثلاث السنوات الأخيرة، ومنذ انتقالي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة اتجهت إلى كتابة الشعر النبطي بشكل كامل، وتمكنت خلال الفترة من إصدار ديوان «راعي الذُّود» في 3 أجزاء، ونحو 778 قصيدة غنائية، وفي منتصف العام الحالي، تمكنت من العودة إلى كتابة الشعر الفصيح من خلال ديوان «ظِلٌ وروح» الذي كان توقيعه في معرض أبوظبي الدولي للكتاب.

في إحدى قصائدي بعنوان «القهوة» وفي موقف محدد كانت عاملة تسألني عما أود تناوله، وإذا كنت أود تناول القهوة، أجبتها بالإيجاب، وكُنت أشعر بالحزن الشديد لما نمر به، فكتبت القصيدة لحظتها، مشيراً فيها إلى ضرورة تجاوز الخلافات، والبدء من جديد: القهوَة

مـــا يسامحنـــي علـــى ذنبـــي
وكـــم سامـــح ذنـــوب
سامحـــه قلبـــي ولـــي ربّـــي
كـــم غـــوى مثلـــي قلـــوب
فـــي دروبـــه ينتهـــي دربـــي
وفـــي أعيانـــه دروب
مُنتهـــى الأمـــال يلعـــب بـــي
أســـى روحـــي تـــذوب
شرقهـــا يـــا نـــور والغربـــي
عســـل صافـــي ونـــوب
هاتـــي القهـــوَه لهـــا صُبّـــي
ودمعاتـــي صبـــوب
مـــا أخبّرهـــا ومـــا انبّـــي
وبـــي منهـــا حـــروب
مـــا أصارحهـــا ومـــا اخبّـــي
ولا فيهـــا عيـــوب
مـــن تعـــز الرّيـــم أو إبّـــي
شمالـــي يـــا العـــذوب
أو جنوبيـــه لهـــا حُبّـــي
وأنـــا هـــاوي الجنـــوب
يـــا دوا روحـــي ويا طبّـــي
أيـــا الظبـــي الغصـــوب
يسألونـــي فيـــك ما خطبـــي
وبـــي منـــك خطـــوب

وفي قصائد غيرها ظلت المرأة هي «صنعاني»

عشقـــي لصنعـــاء
وأنـــا والقلـــب فـــي صنعـــاء
والـــرُوح يـــا نـــاس
والإحســـاس صنعـــاني
لا المـــاء كالمـــاء
ولا الأسمـــاء كالأسمـــاء
صنعـــاء روحـــي
وتاريخـــي وعنوانـــي

وفي قصيدة ثانية: بالسماء

لا تقُل لـــي كيـــف أوضاعـــك
قبـــل ما تـــسأل عـــن أوضاعـــي
بالحنَـــا يا زيـــن أوجاعـــك
زادت آلامـــي وأوجاعـــي
مـــا جـــرى يـــا زيـــن ما راعـــك
ما جـــرى منـــا وما الداعـــي
لو تصـــدّق قلـــب ما باعـــك
قلـــب مـــن يهـــواك ما باعـــي

- بحكم أن أشعارك تحاول اختراق عالم الأغنية، في هذا السياق ما علاقتك برموز الأغنية وصناعها باليمن؟

هناك تواصل مع عدد من العاملين في المجال الفني، ونتيجة للتغيرات التي شهدها المجال وخاصة انتشار الأعمال عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ما جعل الأمر أكثر صعوبة على الشعراء، كون أغلب الفنانين وأتحدث عن اليمن، يقومون بإعادة الأغاني القديمة، وقلة منهم يقدمون الجديد، وقد تم تسجيل بعض منها.

في أغنية بعنوان «أرض اليمن» غناء إبراهيم بن طالب، أشرت إلى ضرورة العودة إلى الثوابت المتمثلة في نبذ العنف، وتغليب لغة الحوار، وأنه مهما زادت الظُّلمات فإن النور قادم، والخير لليمن وجيرانه، وأن اليمن كان وسيظل عربياً.

وفي قصيدة أخرى بعنوان «يا دار زايد» غناء الفنان محمد الماسي، تحدثت عما شهدته دولة الإمارات العربية المتحدة من نهضة؛ لوجود شيوخ وضعوا نصب أعينهم مصلحة الوطن، وعملوا على خدمة المواطن. وللمغفور له - بإذن الله تعالى - الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيّب الله ثراه - الفضل الكبير في ذلك، والأغنية مؤلفة من مجموعة 16 قصيدة غنائية بعنوان «ديوان زايد» وفي الأغنية أشرت إلى حلم

الإمارات، وكيف تحقق بالأمل والريادة، وكيف جدده شيوخ الإمارات اليوم بالعمل والإرادة.

أود الإشارة هنا، أنني أردت أن أقدم وصفاً لما رأيته وعايشته شخصياً في هذا البلد، وثانياً تحديد الطريق الأسلم للخروج من النفق الذي نعيشه في اليمن من خلال اعتماد لغة الحوار والتفاهم، وعدم إلغاء الآخر وتهميشه ليسود السلام، وهذا جزء من رسالتي.

- أنت مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة الراعية للثقافة والشعر عربياً ودولياً، فهل استفدت من هذا الوضع الثقافي حضوراً وتفاعلاً؟

أعتبر نفسي محباً للشعر والثقافة، وأؤمن أن الحضور مهم، لكنني أحرص على الإفادة من تجارب الآخرين الشعرية، وبالتأكيد استفدت من حضوري بالنوادي الشعرية والأدبية ومنها فعاليات بيت الشعر، ومجلس الحيرة الأدبي في الشارقة، وفعاليات كتّاب الإمارات وغيرها من الفعاليات والندوات، وهنا أشكر القائمين على هذه الفعاليات لما يقدمونه من إسهامات جليلة للأدب بشكل عام والشعر بشكل خاص.

الكبار ومنهم الدكتور عبد العزيز المقالح، والشاعر الكبير حسين المحضار - غفر الله لهما - وكثير من الشعراء الكبار المعاصرين، أسهم في الانجذاب أكثر نحو الشعر وكتابته، وقد ساعد وجود فنانين كبار في جعل الأغنية اليمنية رائجة، ويكفي الإشارة إلى الفنان الكبير أبو بكر سالم بلفقيه - رحمه الله - وأسهمت موسيقى الموسيقار الكبير أحمد فتحي في منح الأغنية اليمنية بُعداً جديداً، ومن الموسيقيين الشباب الموسيقار محمد القحوم الذي سحرني بمعزوفاته الموسيقية التي تجدد التراث اليمني وتضيف إليه، وقد تمكن خلال فترة وجيزة من عمل نقلة أعتبرها معجزة في ظل الظروف الثقافية والفنية في اليمن خلال العقدين الماضيين.

هذا التراث الغني والمتجدد، والإبداع الفريد، أفاد الشعراء الشباب كثيراً، وسهّل عليهم، لولا أن التجديد يغلب على الأعمال الفنية أكثر من الابتكار، وأتمنى أن يتغير هذا الأمر قريباً، ليكون التنافس في تقديم الجديد وليس إعادة تقديم التراث.

- كيف استطعت تناول بعض القضايا المجتمعية والطبيعية (زلازل، أزمات اجتماعية، معيشية..) في قصائدك الشعرية؟

لا جدال أن روح الشاعر قلقة، حرة، تبحث عن السلم وتخاف من كل ما يمس جوهر الحياة، وما يحدث من حولنا ينعكس

- ما علاقة الإبداع بالشعر، وأين تتجلى معالمه في تجربتك الشعرية؟ وما أعمالك الشعرية القادمة، والتي ينتظرها قارئ أعمالك؟

الشعر إبداع، وأسعى لأكون مبدعاً، وكُل قصيدة تجلي روحي يحمل عبق الإبداع، ويخالط عذوبة الكلمات والمعنى.

ظهرت أعمالي للجمهور للمرة الثانية في معرض الشارقة الدولي للكتاب 2022، وكانت المرة الأولى لفترة قصيرة قبلها بأكثر من 10 سنوات، توقفت عن الكتابة بين المرحلتين بشكل شبه تام، ولذا لا بُد من التأكيد على أنني أرى نفسي في بداياتي، وهناك الكثير للقيام به. فيما يخص بالأعمال القادمة التي ينتظرها القارئ، وبصراحة أعتقد أن القارئ لا ينتظر الكثير لوجود أسماء كثيرة في الساحة الشعرية، ويصعب على القارئ مواكبة الجديد، ما يهمني أن أصل إلى القارئ في قصائد قليلة، وخلال فترة قصيرة تعوض غيابي عن الحضور الإعلامي

- هل تجربتك الشعرية لها صلة بالإنتاج الشعري والغنائي اليمني، وهل استفاد الشعراء الشباب من ذلك الإنتاج؟

لا شك أن التنوع والإرث الثقافي اليمني الغني بالشعراء

على ما نكتبه في قصائدنا، وأود الإشارة إلى أنه في مقابلة لي مع إحدى المقدمات التي استضافتني في يوم عيد، طلبت مني عدم التطرق إلى قضايا حزينة، ولديها كامل الحق في ذلك كون المناسبة تتطلب الحديث عن البهجة والفرح، ولكني أخبرتها أن جُل ما أكتبه حزين ويصعب عليّ الكتابة عن العيد، وأنا أرى ما يحدث في اليمن وغيرها من البلاد، مما يجعلني غير قادر عن الشعور بالسعادة في الواقع وفي الكتابة.

- ما دواعي اختيارك لموضوع الفشل في كتابك الموسوم «الإيجابية بعد الفشل» وكيف يمكن تجنبه في حياتنا المملوءة بالأزمات والتحديات؟

اخترت موضوع الفشل للحديث عنه لأني وجدت بعضهم يستسلم للفشل، وبعضهم الآخر يرد الأمر للقضاء والقدر دون أن يبذل الأسباب للوصول إلى النجاح، وكأنه يتوقع أن النجاح حتمي من المحاولة الأولى وهذا وارد لكن في أحيان قليلة، بينما يحتاج النجاح إلى المثابرة والإرادة وقبل ذاك توفيق الله عز وجل.

كان هناك زملاء دراسة متفوقين وطموحين، ولكنهم توقفوا عند مرحلة معينة، بينما كان هناك آخرون متوسطي الذكاء والقدرات، لكنهم تمكنوا من تحقيق النجاح في شتى جوانب. ومن هنا أردت تقديم أمثلة تحفز النشء في مرحلة ما قبل الجامعة تحديداً، لتغيير طريقة التفكير واتخاذ الإيجابية خياراً وحيداً أولاً ثم توقع الفشل في مراحل حياتية وعدم الاستسلام للظروف والتحديات لأن هذا هو الفشل الحقيقي. ويمكن تجنب الفشل إما بالتخطيط وإما بالاعتماد على تجارب المتخصصين ومشورتهم، والأهم دراسة التجارب السابقة في هكذا مجال، وعلى يقين أنه لا يوجد شخص ناجح لم يتعرض لمواقف صعبة وتحديات، لو توقف عندها لما تمكن من تحقيق شيء يذكر.

- بنظرك ما مستقبل الأدب في زمن الرقمنة، وما موقفك من هذه القضية، خاصة وأن الكتاب الإلكتروني أصبح متداولاً وسهل الحصول عليه؟

ساعد الكتاب الإلكتروني كثيراً في وصول الكاتب إلى القارئ، وأسهمت وسائل التواصل الاجتماعي في اختصار المسافة على الأديب والمثقف، وفي الوقت نفسه أثرت سلبياً في الثقافة والأدب كون الاهتمام تركز على محتوى معين، وربما يأتي المحتوى الثقافي الهادف متأخراً في قائمة اهتمامات الشباب، لكثرة المحتوى المعروض، وفي غالب الحالات يكون التأثير الأكبر للمؤثر أو المؤثرة ممن له جماهيرية أكثر، بغض النظر عن المحتوى ■

كاتب وقاص مغربي

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

الزعيم الخالد

د. شهاب غانم

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى وأكرم مثواه - لم يكن رئيس دولة فحسب ولم يكن رجل دولة فحسب بل كان واحداً من أولئك القادة القلائل الذين وضعوا نصب أعينهم منذ مرحلة مبكرة في مسيرتهم القيادية مشروع بناء أمة. وإذا كانت شخصيته «الكاريزمية» المفعمة بالحكمة ووضوح الرؤية قد أوصلته إلى مركز صناعة القرار فقد صار واضحاً لشعبه وللناس عموماً في مختلف أنحاء العالم أن الإمارات كانت تحظى بقيادة استثنائية تعمل لخير شعبها وأمتها بل لخير البشرية بخطوات بالغة السرعة ولهذا كانت الإنجازات سريعة ومتعددة وفي الاتجاه الإيجابي من أجل بناء الدولة وبناء الأمة وخير الإنسانية. كانت نظرته المستقبلية عميقة وواسعة فاستطاع أن يبني دولة نموذجية في منطقة تعاني أنواع التخلف. واستطاع أن يمد يد العون والخير في كل اتجاه عربي وإسلامي وعالمي فأحبه الناس في كل مكان. لقد قلت عنه وعن الإمارات في قصيدة في ذكرى الاتحاد عام 2015:

يـــا إمـــاراتُ أنـــت حلـــم جميـلُ
حققتـــه سواعـــــد وعـــــقولُ
ورعتـــــه بكـــل حـــب شيـــوخٌ
ورجـــالٌ لهـــم كفـــاحٌ جليـــلُ
زايـــدٌ كـــان قائـــداً عبقريـــاً
ليـــس نـــدٌ لـــه وليـــس مثيـــلُ
وحدويـــاً ويعربـــياً كريمـــاً
النـــدى فـــوق راحتيـــهِ سيـــولُ
وحواليـــــه راشـــــدٌ وشيـــوخٌ
صَدَقـــوا العـــزم فاستبـــان السبيـــلُ
وتلاهـــــم خليفـــةٌ وبنوهـــــم
يكملـــون البنـــاءَ فهـــو يطـــــولُ
وتجلـــــى المحمـــــدان لكـــــلٍ
منهمـــا بصمـــةٌ وسيـــفٌ صقيـــلُ.

وعندما اجتاح ما يسمى «الربيع العربي» بلداناً عدة في العالم العربي وجدت نفسي أقارن بين الغضب الذي شعرت به بعض الشعوب العربية على حكامها والحب الهائل الذي كان يحظى به الراحل الكبير فقلت ضمن قصيدة في مارس 2011:

نبكيـــك يا زايـــد الخيـــرات في زمـــن
فيه الشعـــوب على الحكـــام تنتفـــض

إلى أن أقول:

وأنت يا زايـــد الخيـــرات كنـــت لنـــا
نِعم الزعيـــم لدَيـــك النهضةُ الغـــرض
وكـــنت نعـــم أب للشعـب تمحضـــه
حبـــاً .. وأبنـــاؤه للحـــب قـــد محضـــوا
وجـــاء يمشـــي أبو سلطـــان قائدنـــا
على خطـــاك.. فنعـــم القائـــد العـــوض
وحوله الإخـــوة الأعـــوان قـــد دعمـــوا
تلك الجهـــود .. وأبنـــاء البـــلاد رضـــوا
إن الذيـــن بنـــوا مجـــداً لأمتهـــم
سيخلـــدون إذ الطغـــيان ينقـــرض

لقد رأينا ليس أبناء الإمارات فحسب يبكون عند رحيل مؤسس الإمارات وبانيها بل رأينا أيضاً كثيراً من أبناء الجاليات التي تقيم على أرض هذا الوطن المعطاء يذرفون الدموع حزناً في ذلك اليوم الحزين عام 2004 وقلت يومها قصيدة طويلة منها

وازايـــداه! وفاض الدمـــع ينهمـــر
والقلـــب في قبضـــة الآلام يُعتصـــرُ
وحرقـــة في دمـــي ... الجمع في حـــرق
كأننـــا مهـــج بالحـــزن تنفطـــر
هنـــا أنيـــن.. هنـــا دمـــع .. هنا وَلَـهٌ..
هنا نشيـــج.. هنا جـــرح.. هنـــا عِبَـــر..
وا زايـــد الخيـــر! كل الشعـــب في لهـــف

مـــذ جـــاء ينبئـــه عن يتمـــه الخبـــر
مضـــى الزعيـــم الذي جاد الزمـان بـــه
وقلمـــا ينجلـــي عن مثلـــه القـــدر
مضى الذي قطـع البتـرول يوم وغـــى
ولـم يخفـــه عـــدو غاشـــم خطـــر
مضـــى الحكيـم .. حكيم العرب قاطبـــة
ومـن بسيرتـــه تسترشـــد السيـــر
من كـــان يجمـع حين الجمع مختلـــف
ومـــن على نبلـه لم يختلـــف بشـــر
وكـــان يعطي بجـــود لا مثيـل لـــه
فيستظـــل بذاك البـــدو والحضـــر
في أرضنـــا.. في بلاد العرب.. في وطـــن
الإســـلام.. بل حيثما الفاقات تنتـــشر
أبو الإمـــارات.. بانـي وحـــدة ثبتـــت
مُثلـــى ... بما أنجـــزت نشـدو ونفتخـــر
أنموذجاً لو أفـــاق العـــرب واقتبســـوا
منـه الكثير لمـــا خابـــوا ولا خســـروا
كنـــا بلا وحـــدة قوماً قـــد اختلفـــت
أهواؤهـــم.. ما لهـــم ذكـــر ولا أثـــر
يكـــاد يجهلنـــا من كـــان تجمعنـــا
بـــه الأواصـــر والتاريـــخ والأطـــر
واليـــوم ها نحـــن شعـب سائر قدمـــاً
لـــه احتـــرام.. له رأي .. لـــه خطـــر
مـــا الاتحـــاد سوى حشـــد لقوتنـــا
وخطـــوة كم من الخطـــوات تَختَصِـــر
قد اعتصمـــنا بحبـــل اللـــه فاجتمعـــت
ريـح لنـــا .. قوة نـــادت بهـــا الـــسور
وســـوف تبقـى بإذن اللـــه ثابتـــة
أهدافنـــا.. ورؤانا ليـــس تنشطـــر..

وعندما ألقيت قصيدة الحفل لجائزة راشد للتفوق العلمي عام 1996 وجدتني وأنا أخاطب الفائزين بالجائزة أتحدث عن نموذجية الإمارات في الوطن العربي في قصيدة طويلة منها:

فيـــا أخوة العلم العظيـــم تحيـــة
فأمثالكـــم نـــور إذا الليـــل أطبقـــا
تعالـــوا انظروا كيـــف الإمارات تكتـــسي
لدى كل صبـــح من سنى العلـــم رونقـــا
وكيـــف غدت للعـــرب جمعاً نموذجـــاً
إذا مـــا رآه المرء أثنـــى وصفقـــا
وكيـــف سعى شيـــخ العروبـة زايـــد
وإخوانـــه نحـــو العلـــى فتحققـــا
وكيف شعـــاع العلـــم في كل قريـــة
وفي كـــل دار قـــد جـــرى وتدفقـــا..

هذا الاهتمام بالعلم والتعليم وبناء الإنسان هو من أهم مميزات الراحل الكبير الذي قال منذ البداية إن بناء الإنسان أهم من بناء المصانع والبنايات. ولقد قلت في قصيدة قديمة بعنوان «حكيم العرب» تتحدث عن اهتمامه ببناء الإنسان ومواقفه في قطع البترول في حرب رمضان عام 1973 ومواقفه العظيمة في التنمية ليس في الإمارات فحسب بل في الدول الشقيقة أيضاً حيث تجد مشاريع المستشفيات والمساكن والمدارس... إلخ، التي تحمل اسم الإمارات والشيخ زايد منتشرة في أماكن كثيرة. وتظل الإمارات من أكثر الدول عطاء للدول الفقيرة والمحتاجة دون شروط:

جلســـت على عـــرش المـــودة والحـــبِ
فكنت كما تهـــوى من الشعـــب للشعـــب
وطافـــت بك الآمـــالُ حتى تجســـدت
بهمتـــك الشمـــاء في الموقف الصلـــب
فقامـــت مقام القفـــر غابـــاتُ وارفٍ
من الظل والأنـــداء والمرتـــع الخصـــب

ومدت لنـــا من حولنا الطـرق أوغلـــت
بكـــل اتجـــاه وهي تـــورق بالعشـــب
فكانـــت شرايين النمـــاء بفيضهـــا
تدفـــق من قلـــب ليرجـــع للقلـــب
وما قلـــت تكفينـــا طريـــقاً بأرضنـــا
على الشط حتى شدت في المرتقى الصعب
طريـــقاً أعادت للـــورى ســـدّ مـــأرب
رحيبـــاً كما قد كان في الزمن الرحـــب
فيا قاطع البتـــرول عن آلة العـــدى
لتقطع سيـــلاً قد جرى من دم العـــرب
وقائـــل إن الثروة الحـــق أمـــة
مسلحـــة بالديـــن والعلم والعضـــب
لأنت حكيـــم العـــرب دون منـــازع
وأنت الذي أعطيـــت في السلـم والحرب
فمن رام أن يبنـــي قواعـــد نهضـــة
بنى شعبه قبـــل المصانـــع والصلـــب

وعندما أعاد الشيخ زايد - رحمه الله تعالى - بناء السد الأسطوري في اليمن وكان قد اتفق على إنجاز ذلك المشروع مع الزعيم اليمني إبراهيم الحمدي - رحمه الله - أصبح الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - رحمه الله تعالى وطيّب ثراه - بطلاً قومياً بحق وأحبه اليمنيون بشكل خاص حباً كبيراً وقد كتبت قصيدة يومها في تلك المناسبة الرائعة أشرت فيها أيضاً إلى الدور المهم الذي لعبه الشيخ زايد - رحمه الله - في إنشاء وإنجاح مجلس التعاون قائلاً:

ياقـــائداً صنـــع التـــاريخ والمُثـــلا
وكـــان إن قال وعـــداً رائعاً فعـــلا
آمنـــت بالوحـــدة الكبـــرى تحققهـــا
قسطاً فقســـطاً فكان الاتحـــاد عـــلا
وكـــان نبـــراس نور للخليـــج بـــه
نحو «التعـــاون» يمضي مذ رأى المثـــلا
آمنت بالوحـــدة الكبـــرى فلا عجـــب
إن كان عشقـــك أرض العرب قد شمـــلا
بالأمس شـــدت إلى التـــاريخ أعمقـــه
درباً إلى مـــأرب الأجـــداد قـــد وصـــلا
واليـــوم قـــد رقـــص التاريـخ منتشيـــاً
لـــما رأى ســـده المأثـــور مكتمـــلا
فإنـــه أول الأســـداد قاطبـــة
والذكـــر قـــد جـــاء فيه ذكره فعـــلا
كأنـــه طائـــر الفينيـــق منبعـــثاً
من الرمـــاد .. يروع السهـــل والجبـــلا
يا قائـــداً حفـــر التاريـــخ سيرتـــه
بأحـــرف من مساميـــر غـــدت شعـــلا
بات اســـمه باسم بلقيـــس وذي يـــزن
والجنتيـــن علـــى الأيـــام متصـــلا
وفي قلـــوب اليمانييـــن صورتـــه
وقد بـــدا وجهـــه بالخيـــر مكتحـــلا
ومنـــذ أن قطـــع البتـــرول يوم وغـــى
عنـــد العروبـــة يبقى القائـــد البطـــلا

وفي رمضان هذا كتبت ونشرت في كل يوم رباعية وفي يوم 19 رمضان ذكرى رحيل القائد العظيم كتبت ونشرت هذه الرباعية:

يا زايـــدَ الخيـــرِ جاء الخيرُ مندفعـــا
إلى الإمـــارات لمّا عنـــك قد سمعـــا
أتـــى يعانـــق في شوق... يداً بيـــدٍ
مضيتمـــا في رباهـــا تزرعـــان معـــا
وتنســـجان على الصحـــراء ملحمـــة
من السعـــادة تُعلـــي الحـــبَّ والورعـــا
للكـــون أسطـــورة مُثلـــى بلا مثـــلٍ...
لا غـــــرو أن فـــؤادي إن رآك دعـــا

رحم الله الشيخ زايد رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى فقد كان قائداً وزعيماً وبانياً عظيماً وأباً لشعبه وأمته قلما يجود بمثله الزمان ■

كاتب وشاعر من الإمارات

الأم وطن ولغة

فاطمة حمد المزروعي
كاتبة وباحثة من الإمارات

الأمومة درجات، تبدأ أولى هذه الدرجات مع الولادة، ومنها اسم الوالدة، التي تلد الطفل أو الطفلة، ثم تأتي درجات الاهتمام، والرعاية، والحب والحنان لأبنائها، ثم تعلو إلى تطوير مهارات الأطفال الدراسية ومواهبهم.

لكن هناك أمهات لديهن مهارات وقدرات أعلى من غيرهن، حتى إن فضلهن يرتفع إلى حفظ اللغة وحمايتها. والوصول إلى هذه القمة، لا يتأتى لأي امرأة، بل لمن هي متميزة باختلافها؛ نظراً لاختلاف المهارات والقدرات، إضافة إلى القوة النفسية الاحتياطية الداخلية، التي تملأ هذه الأم صبراً، وتحدياً، وصموداً؛ لأنها صاحبة فكر عميق، ورؤية واضحة لما تريده لنفسها ولأبنائها. وحتى تبلغ الأمّ أفضل ما عندها، فلابد لها أن تتمتع بالقوة الداخلية، التي تراكمها التجارب، وقوام هذه القوة؛ الثقة بالنفس والتفاؤل والعزيمة والإيجابية، وبوصلتها تشير إلى طريق السعادة والحب والسلام النفسي، هذه القوة هي التي تعزز المناعة النفسية وتساعد على تحويل التحديات إلى فرص للنجاح.

أما نموذج الأم التي أثرت على اللغة، فأعادت إليها حياتها، فهي «ميغيلينا بيلون» من الأرجنتين، التي دأبت على الغناء لابنها بلغتها شديدة المحلية، وحكت له القصص بها، ثم أوصته بأن يحمي لغة «تشانا»، وهي إحدى اللغات الدارجة في الأرجنتين، حتى لا تندثر. العجيب أن ابنها «بلاس جايمي» بدأ في عمر السبعين، بجمع هذه اللغة لمدة عشرين عاماً، والبحث عمن يتحدثونها؛ وجعل شغفه بالأمر ابنته تسهم معه، ثم تواصل مع أحد علماء اللغات «بيدرو فيجاس باروس»؛ ليضع معه معارفه والقصص التي ورثها عن أمه، داخل قاموس يحوي ألف كلمة. جهده هذا حظي باهتمام «اليونسكو» ودعمها، وكان محرك ذلك كله أمّ أوصلت لابنها اللغة بالأغاني والقصص والفولكلور. لقد آمنت بدورها؛ في حماية لغة أسلافها، فأكمل ابنها وحفيدتها أداء هذه الرسالة. لقد صدق المثل الروسي الأم تصنع الأمة، وقد حافظت هذه الأم عن طريق ما أوصلته لابنها عندما كان طفلاً على الأمة، وساعدت جهودها على عودة لغة «التشانا» إلى شجرة اللغات.

لقد ظل حنين الابن للأغاني والحكايات التي سمعها من أمه مشتعلاً، وهو ما دفعه في النهاية لجمع اللغة؛ وهذا دليل على أن الأغاني الشعبية تحظى بمكانة حميمة وتقدير لدى الشعوب؛ لأنها تعبر عن الذاكرة الجمعية، فهي جزء أساسي من تراث أي دولة؛ تشمل المشترك بين أغلب الناس؛ لهذا توصف بكلمة الشعبية أي تعبر عن عموم الشعب، عن دورة حياتهم من الميلاد، إلى التعلم، والعمل، والزواج، وانتهاء بالوفاة، كما تُعبر عن أفكارهم وعواطفهم، وتسجل أهم الأحداث التي عبرت بهم فعبروا عنها بأشكال مختلفة، من شعر وأهازيج وحكايات وأمثال، أي إنّها ميراث ثقافي وذاكرة حية نابضة بالحنين إلى الماضي، تتناقله الأجيال مشافهة، وتعيشه عن طريق الممارسة الحياتية والتنشئة الاجتماعية.

إن الأغنية حتى توصف بالشعبية لابد أن تكون منتشرة، مجهولة المؤلف، يتناقلها الناس شفاهة على مدار عقود من الزمن، يترتب على هذا أن النص يصبح متغيراً حسب الراوي. وللأغاني أهداف تربوية واجتماعية وعاطفية، فهي تنمي في الطفل الحس الفني، لأن لحنها هو الموسيقى الأولى التي يسمعها، فإذا اقترن بأغاني الأم، بكلماتها المتوارثة عبر الأجيال، فإنها تنقل به عواطفها، ومشاعرها؛ لتؤثر في عواطف الطفل ودماغه، من خلال الغناء، ثم تصنع ذكرياته وتجاربه في هذه المرحلة، ومعظم الأطفال قد لا يتذكرون ذلك، لكنها تنطبع داخلهم، لتبقى مدى العمر، ومنها أغاني الطفولة المبكرة مثل أغاني النوم، والطعام، وأغاني الملاعبة والترقيص.

للأمهات فضل كبير علينا جميعاً، لكن مساهمات بعضهن مؤثرة، تمتد من بيتها إلى المجتمع ■

هيئة أبوظبي للتراث
Abu Dhabi Heritage Authority

إعلان طباعة كتب

وَضَعت هيئة أبوظبي للتراث خُطّةً لرفد المشهد الثقافي الإماراتي بإصدارات متنوعة تَخُصُّ تراث الإمارات وتاريخها؛ قَصْدَ إغناءِ المكتبة التراثية الإماراتية، وفَتْحِ منافذَ معرفيةٍ جديدةٍ أمام الباحثين، وتدعوهم إلى طباعة كتبهم وتسهيل نشرها، ليشارك بها في المعارض والفعاليات الثقافية. ويُقدِّمُ لمؤلّف الكتاب مكافأةً مالية تتراوح بين (10000 - 15000 درهم إماراتي).

شروط النشر:

- أن يَتّصف موضوع الكتاب بالجِدّة، والموضوعية، وشمول المعالجة، والفائدة المعرفية.
- ألا يكون الكتاب منشوراً سابقاً، أو مُقدَّماً للنشر في جهة أخرى.
- أن تكون لغةُ الكتابِ العربيّةَ الفصيحة المُصحَّحة لغوياً.
- ألا يكون الكتاب مترجَماً.
- أن يلتزم الكتاب بالمنهجية العلمية في التأليف، والأمانة العلمية، والنهْل من المصادر الأصيلة، وتدوين الهوامش أسفلَ كلِّ صفحة.
- أن تُدوَّن المصادر والمراجع في نهاية كل كتاب.
- أن يُرسَل الكتاب بصيغة الوورد، مرفَقاً بملخَّص من نحوِ مئتي كلمة باللغة العربية، وبنبذة مختصرة عن سيرة المؤلِّف العلمية.
- أن يكون عدد كلمات الكتاب بين 30 و70 ألف كلمة.
- تَتَولّى هيئة تحكيم مختصة مراجعةَ الكتاب وتقييمَه وإصدارَ قرار نهائي بشأن طباعته خلال شهرين من تاريخ إرساله. وفي حال الموافقة، يلتزم الكاتبُ بإجراء التعديلات المقترحة.
- مدة العقد خمس سنوات.
- تُرسَل الكتب بصيغتَي Word وPDF إلى الإيميل التالي: torathbook@ehcl.ae

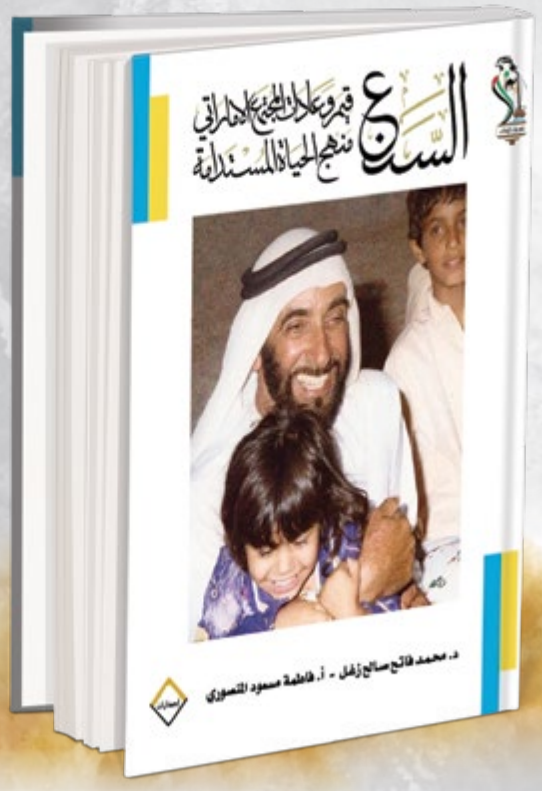

السنع
قيم وعادات المجتمع الاماراتي
منهج الحياة المستدامة

كتاب «السَّنع: قِيَم وعادات المجتمع الإماراتي منهج الحياة المستدامة» ينطلق من مقولة المغفور له الشيخ زايد - طيّب الله ثراه - بأنّ «الثروة الحقيقية للأمة هي في رجالها»، وكذلك من مقولة الشيخ محمد بن زايد، رئيس الدولة - حفظه الله: «القِيَم والعادات والأخلاق والتفاني موجودة في كل مواطن وبيت وعائلة». ويُشكِّل هذا الكتابُ مساهمةً رائدة في مقاربة السَّنع الإماراتي بوصفه منهجَ حياةٍ إماراتيّةٍ مستدامة. ويأتي الكتاب في مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة. يتناول الباب الأول بفصلَيْه مفهومَ التراث الشعبي؛ أدباً وألغازاً وأهازيجَ ومأثوراتٍ وفنوناً وعاداتٍ وتقاليدَ ومعتقداتٍ ومعارفَ شعبيةً. كما يقف على التراث بوصفه هويّةً ثقافيةً للأجيال، مُذكِّراً بالموقف الرسمي للدولة ومؤسساتها وموقف الشعب الإماراتي من التراث. ويتطرق الباب الثاني بفصوله الثلاثة إلى أهميّة السَّنع الإماراتي في بناء شخصية الإنسان الإماراتي، وإلى قواعد السنع في الكلام والسلوك؛ فهي جميعاً تَدعو إلى الرجولة وما يرتبط بها من مفاهيم جوهرية كالاحترام والإخلاص وغيرهما، وما لذلك كلِّه من آثار إيجابية على الفرد والأسرة والمجتمع قاطبةً. ويقف عند الشعر الشعبي وفارسه الشيخ زايد، وكذلك عند شعراء الحكمة الإماراتيين. ويُخصَّصُ البابُ الثالث للحديث عن القوة الناعمة الإماراتية بوصفها من منجزات السَّنع - التاريخ والأصالة وآفاق المستقبل، والدعوة إلى التسامح ووثيقة الأخوّة الإنسانيّة وغيرها.